تراث الإسلام

٣

عمدة التفسير

عن

الحافظ ابن كثير

٧٠٠ — ٧٧٤

اختيار وتحقيق

بقلم

أحمد محمد شاكر

الجزء ٥



هٰذا بلاغٌ للنّاس
وليُنذَرُوا به

عمدةُ التفسير

الجزء ٥



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، حمد الشاكرين . والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتم النبيين ، سيدنا محمد رسول الله ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد : فقد اقتنيت قبل الشروع فى هذا الجزء صوراً لخمس مجلدات مخطوطة من تفسير ابن كثير ، من نسخة عتيقة نفيسة صحيحة ، الخطأ فيها نادر جداً . أحد هذه المجلدات من المكتبة الأزهرية ، وهو المجلد الثالث . وباقيها من دار الكتب المصرية ، وهى المجلدات ٦ و ٨ و ٩ و ١٠ . وكلها من نسخة واحدة .

فهذه النسخة مقسمة إلى عشر مجلدات ، خلافاً للمخطوطة الأزهرية المقسمة إلى سبع مجلدات[1] .

وهذه النسخة العتيقة أقدم من النسخة الأزهرية — على اليقين — بما يظهر من خطها .

بل لعلها كتبت فى حياة المؤلف . وهو الراجح عندنا . ويؤيد ذلك أن ناسخها كتب بهامش ص : ٨٥ منها ، عند آخر تفسير الآية : ٩٩ من سورة الأنعام ما نصه : « آخر الجزء الأول من تفسير سورة الأنعام ، من خط المؤلف ، عفا الله عنه » .

فالظاهر من هذا الدعاء « عفا الله عنه » : أن المؤلف رحمه الله كان حياً عند كتابته .

---

(١) وصفنا المخطوطة الأزهرية فى ص : ٢٠ ، ٢١ من الجزء الأول .

وقد ضاع باقى هذه النسخة . وما يدرينا ، لعله موجود فى أنحاء من الدنيا لم يصل إلينا علمها . أو لعل عوادى الزمن أتت عليه ، أو فرّقته فى أماكن متعددة ، كما فرقت هذه المجلدات الخمس ، بين المكتبة الأزهرية ودار الكتب المصرية ، فى مدينة واحدة ، هى مدينة القاهرة .

وهاك بيان ما اشتملت عليه هذه المجلدات الموجودة :

المجلد الثالث : أوله أول تفسير سورة الأنعام . وآخره آخر تفسير الآية : ٣٦ من سورة التوبة . وهو يوافق ص : ٤٧١ من المخطوطة الأزهرية .

وقد ختم المؤلف رحمه الله تفسير هذه الآية بقوله : « ولنذكر الأحاديث الواردة في ذلك » . وهذه الجملة ثابتة فى المخطوطة الأزهرية ، وبعدها بياض قبل البدء فى تفسير الآية التى بعدها . فلم تذكر فيها الأحاديث التى وعد بها الحافظ ابن كثير .

وكذلك ثبت فى مطبوعة المنار ج ٤ ص ١٦٤ . وكتب أستاذنا السيد رشيد رضا بهامش هذا الموضع ما نصه : « ترك المصنف رحمه الله بياضاً بعد هذا لذكر الأحاديث التى وعد بها . والظاهر أنه توفى قبل أن يكتبها » .

المجلد السادس : أوله أول تفسير سورة الإسراء ، وآخره آخر تفسير سورة الحج .

ولكن فى أوله خمس صفحات و بضعة أسطر من الصفحة السادسة بخط آخر دقيق مخالف لخط سائر النسخة ، متصل بما بعده .

المجلد الثامن : أوله أول تفسير سورة الأحزاب ، وآخره آخر تفسير سورة حٰمٓ السجدة .

المجلد التاسع : أوله أول تفسير سورة الشورى ، وآخره آخر تفسير سورة الممتحنة . وفى آخره أربع ورقات بخط آخر مخالف لخطه .

المجلد العاشر : أوله أثناء تفسير الآية : ٢ من سورة الصف ، فهو ينقص ورقة واحدة من أوله . ثم ينتهى إلى آخر تفسير القرآن الكريم . ثم يتلوه بالخط نفسه « كتاب فضائل القرآن » للمؤلف . وضاعت منه الورقة الأخيرة ، والذى كان فيها هو بضعة أسطر من آخر « كتاب فضائل القرآن » . ويحتمل أن يكون فى هذه الورقة الناقصة اسم الكاتب وتاريخ الكتابة . ولذلك لم نستطع الجزم بتاريخ كتابتها ، لخلو سائر الأجزاء من التاريخ واسم الكاتب .

* * *

ومما يجدر التنبه له ما ذكرنا آنفاً أن كاتب هذه النسخة كتب بهامش الصفحة : ٨٥ من المجلد الثالث : « آخر الجزء الأول من تفسير سورة الأنعام ، من خط المؤلف ، عفا الله عنه » : فإنه قد يفهم منه أن المؤلف قسّم تفسير سورة الأنعام إلى أجزاء صغيرة . فلماذا كان البدء بالجزء الأول من تفسير سورة الأنعام ؟ ! ولماذا لم يكن التقسيم إلى أجزاء من أول تفسير القران ؟ ! ثم لماذا لم يذكر الكاتب بعد ذلك — إلى آخر الكتاب — بياناً بتجزئة المؤلف ، واقتصر على بيان « آخر الجزء الأول من تفسير سورة الأنعام » ؟ !

ليس بين أيدينا فى هذه النسخة ما يفسّر هذا الصنيع ويجيب عن هذه الأسئلة الضرورية فى مثل هذا المقام ! !

ولـكنا وجدنا فى النسخة الأزهرية شيئاً قد يضىء لنا الطريق إلى فهم هذا التصرف :

فإن كاتبها كتب بهامش ص : ١٠٨ من الجزء الثالث منها ، قُبيل نهاية تفسير الآية : ١٠٠ من سورة الأنعام ما نصه :

« حشـ [أى : حاشية] : آخر أول أجزاء المؤلف رحمه الله من هذه السورة . ومن هذه الآية ابتدأ بتعليق هذا التفسير إلى آخر القرآن العظيم . ثم فسّر من سورة البقرة إلى ههنا . ووافق آخر التعليق يوم الجمعة رابع عِشْرِى ذى قعدة ، سنة إحدى وأربعين وسبع مائة . فكتب الجميع فى نحو أربع سنين » .

فهذه الحاشية توافق ما كتب على هامش النسخة العتيقة : أن آخر الجزء الأول من تفسير سورة الأنعام — فى خط المؤلف — هو آخر تفسير الآية : ٩٩ من هذه السورة .

ثم تفيدنا ثلاث فوائد جديدة :

١ — أن الحافظ ابن كثير بدأ تأليف هذا التفسير من أول الآية : ١٠٠ من سورة الأنعام ، حتى أتم تفسير القرآن العظيم . ثم رجع عوداً على بدء ، فـكتب تتمة التفسير من أوله إلى آخر الآية : ٩٩ من سورة الأنعام .

٢ — وأنه فرغ من كتابة التفسير يوم الجمعة ٢٤ ذى القعدة سنة ٧٤١ .

٣ — وأنه كتب هذا التفسير الجليل فى نحو ٤ سنين .

* * *

ولـكن لماذا بدأ الحافظ ابن كثير فى كتابة التفسير من أول الآية : ١٠٠ من سورة الأنعام ؟ ولماذا هذه الآية بالتعيين ، وهى ليست بدء سورة ، وليست بدء جزء ، وليست بدء ربع حزب ؟ ! ونص الآية : ١٠٠ التى بدأ بتفسيرها ، هو :

﴿ وجعلوا لله شُرَكَاءَ الجنَّ وخَلَقَهم وخَرَقُوا له بَنِينَ وَبَنَاتٍ بغير علمٍ ، سبحانه وتعالى عما يَصِفُونَ ﴾ .

لسنا نستطيع أن نعلل هذا التصرف إلا بشيء واحد ، قد يكون هو الحقيقة ، فى أغلب الظن عندنا . إذ ليس بيدنا دليل آخر يرشدنا إلى تعليله الصحيح .

وذلك : أن يكون الحافظ ابن كثير رحمه الله بدأ دروساً علمية لتلاميذه فى تفسير القرآن تفسيراً شفوياً فى الدرس فقط ، وأن الرغبة كانت تساوره ليكتب ما يفسر به ، فيتردد فى الكتابة ، أو أن طلابه كانوا يسألونه كتابة التفسير ، فيتراوح بين الإقدام والإحجام ، حتى أتم التفسير الشفوى فى الدرس إلى نهاية الآية : ٩٩ من سورة الأنعام . ثم زال تردده ، ووفقه الله للعزم على كتابة هذا التفسير الجليل فلم يرد أن يقطع الدرس ويستأنف التفسير ، فكتب من حيث انتهى فى القراءة ، من بدء الآية : ١٠٠ من سورة الأنعام . حتى إذا أتم درس التفسير العظيم قراءةً وكتابةً ، استأنف إتمام التفسير من أول الكتاب العزيز ، إلى حيث انتهى من قبل . فكان القسمُ الذى كتبه من سورة الأنعام إلى آخر الآية : ٩٩ هو آخرَ الجزء الأول من تفسيرها فى خطه . فهو جزء أولُ فى تفسيرها ، لهذا السبب ، لا قصداً إلى تقسيم تفسير سورة الأنعام إلى أجزاء ، ولا قصداً إلى تقسيم التفسير نفسِه كلِّه إلى أجزاء . إذ لو قصد إلى هذا لم يكن أول سورة الأنعام أول أجزاء التفسير ، كما هو بديهى .

ولعلنا نجد فيما نستقبل من العمل فيه ، إن شاء الله ، ما يدلنا على حقيقة ما كان . وهذا غاية جهدنا الآن ، والحمد لله رب العالمين .

مساء الإثنين { ٧ رجب سنة ١٣٧٧
٢٧ يناير سنة ١٩٥٨ }

أحمد محمد شاكر

بسم الله الرحمن الرحيم

بركة من الله ونعمة

﴿ تفسير سورة الأنعام ﴾

وهى مكية

قال ابن عباس : « أنزلت سورة الأنعام بمكة » . وروى الطبرانى عن ابن عباس ، قال : « نزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملةً، حولها سبعون ألف ملك ، يَجْأَرُون حولها بالتسبيح » .[1] وعن أسماء بنت يزيد ، قالت : « نزلت سورة الأنعام على النبى صلى الله عليه وسلم جملةً وأنا آخذةٌ بزمام ناقة النبى صلى الله عليه وسلم، إن كادت من ثقلها لتكسر عظام الناقة »[2]. وروى ابن مردويه عن أنس بن مالك ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نزلت سورة الأنعام معها موكب من الملائكة ، سدَّ ما بين الخافقين ، لهم زَجَل بالتسبيح ، والأرض بهم ترتج ، ورسول الله يقول : سبحان الله العظيم ، سبحان الله العظيم »[3] .

---

(١) إسناده عند الطبرانى إسناد صحيح . وزاد السيوطى فى الدر المنثور (ج ٣ ص ٢) نسبته لأبى عبيد وابن الضريس وابن المنذر وابن مردويه .

(٢) لم يخرجه الحافظ ابن كثير ، فلم يذكر إلا أنه رواه سفيان الثورى . والحديث فى مجمع الزوائد ٧ : ٢٠ ، وقال : « رواه الطبرانى ، وفيه شهر بن حوشب ، وهو ضعيف ، وقد وثق » . وشهر : ثقة عندنا . وذكره السيوطى (ج ٣ ص ٢) ، ونسبه للطبرانى وابن مردويه .

(٣) إسناد ابن مردويه فيه رجلان لم أعرف ترجمتهما . وقد ذكره الهيثمى فى الزوائد ٧ : ٢٠ ، وقال : « رواه الطبرانى عن شيخه محمد بن عبد الله بن عرس ، عن أحمد بن محمد بن أبى بكر السالمى ، ولم أعرفهما ، وبقية رجاله ثقات » . وأما اللذان فى إسناد ابن مردويه فهما شيخ شيخه « إبرهيم بن درستويه الفارسى » ، و « أحمد بن محمد بن أبى بكر » . وهو الذى ذكر الهيثمى أنه فى إسناد الطبرانى . والحديث ذكره أيضاً السيوطى (ج ٣ ص ٢) ، وزاد نسبته لأبى الشيخ والبيهقى فى شعب الإيمان والسلفى فى الطيوريات .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَـٰتِ وَالنُّورَ، ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا ، وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ، ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ، يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾

يقول تعالى مادحاً نفسه الكريمة ، وحامداً لها على خلقه السموات والأرض قراراً لعباده " وجعل الظلمات والنور " منفعة لعباده فى ليلهم ونهارهم ، فجمع لفظ " الظلمات " ووحّد لفظ " النور " لكونه أشرف. كقوله تعالى : ﴿ عن اليمين والشمائل ﴾ . وكما قال فى آخر هذه السورة: ﴿ وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله ﴾ . وقوله " ثم الذين كفروا بربهم يعدلون " أى : ومع هذا كله كفر به بعضُ عباده وجعلوا له شريكاً وعدلا ، واتخذوا له صاحبة وولداً، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً . وقوله "هو الذى خلقكم من طين " يعنى : أباهم آدم ، الذى هو أصلهم ، ومنه خرجوا فانتشروا فى المشارق والمغارب . وقوله " ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده " قال ابن عباس " ثم قضى أجلا " يعنى : الموت " وأجل مسمى عنده " يعنى : الآخرة . وهكذا روى عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم . وقال الحسن – فى رواية عنه – " ثم قضى أجلا " وهو ما بين أن يخلق إلى أن يموت " وأجل مسمى عنده " وهو ما بين أن يموت إلى أن يبعث. ويرجع إلى ما تقدم ، وهو تقدير الأجل الخاص ، وهو عمر كل إنسان ، وتقدير الأجل العام ، وهو عمر الدنيا بكمالها، ثم انتهائها وانقضائها وزوالها وانتقالها والمصير إلى الدار الآخرة . ومعنى قوله " عنده " أى : لا يعلمه إلا هو . كقوله : ﴿ إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو ﴾ . وكقوله : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها * فيم أنت من ذكراها * إلى ربك منتهاها ﴾ . وقوله " ثم أنتم تمترون " قال السدى

وغيره : يعنى تشكون فى أمر الساعة . وقوله " وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم " اختلف مفسرو هذه الآية على أقوال ، بعد الاتفاق على تخطئة الأُوَل ، القائلين بأنه – تعالى عن قولهم علوًّا كبيراً – فى كل مكان ! حيث حملوا هذه الآية على ذلك =: فالأصح من الأقوال : أنه المدعوّ الله فى السموات وفى الأرض ، أى : يعبده ويوحده ويقر له بالإلهية من فى السموات ومن فى الأرض ، ويسمونه الله ، ويدعونه رغباً ورهباً ، إلا من كفر من الجن والإنس . وهذه الآية على هذا القول كقوله تعالى : ﴿ وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله ﴾ . أى : هو إله من فى السماء وإله من فى الأرض . وعلى هذا فيكون قوله " يعلم سركم وجهركم " خبراً أو حالا . والقول الثانى : أن المراد : أنه الله الذى يعلم ما فى السموات وما فى الأرض من سر وجهر . فيكون قوله " يعلم " متعلقاً بقوله " فى السموات وفى الأرض " تقديره : وهو الله يعلم سركم وجهركم فى السموات وفى الأرض ويعلم ما تكسبون . والقول الثالث : أن قوله " وهو الله فى السموات " وقف تامّ ، ثم استأنف الخبر فقال " وفى الأرض يعلم سركم وجهركم " . وهذا اختيار ابن جرير . وقوله " ويعلم ما تكسبون " أى : جميع أعمالكم ، خيرها وشرها .

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ، فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّـٰهُمْ فِى الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَـٰرَ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن المشركين المكذبين المعاندين : أنهم مهما أتتهم آيةٌ – أى : دلالة ومعجزة وحجة من الدلالات على وحدانية الرب عز وجل وصدق رسله الكرام – فإنهم يعرضون عنها ، فلا ينظرون إليها ولا يبالون بها . قال الله

تعالى " فقد كذبوا بالحق لما جاءهم ، فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون " وهذا تهديد لهم ووعيد شديد على تكذيبهم بالحق ، بأنه لا بد أن يأتيهم خبر ما هم فيه من التكذيب ، وليجدُنَّ غِبَّه ، وليذوقُنَّ وباله . ثم قال تعالى واعظاً ومحذراً لهم أن يصيبهم من العذاب والنكال الدنيوى ما حل بأشباههم ونظرائهم من القرون السالفة ، الذين كانوا أشدَّ منهم قوة وأكثر جمعاً وأكثر أموالا وأولاداً واستغلالاً للأرض وعمارةً لها — فقال " ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم " أى : من الأموال والأولاد والأعمار والجاه العريض والسعة والجنود . ولهذا قال " وأرسلنا السماء عليهم مدراراً " أى : شيئاً بعد شىء " وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم " أى : كثَّرنا عليهم أمطارَ السماء وينابيع الأرض ، أى : استدراجاً وإملاءً لهم " فأهلكناهم بذنوبهم " أى : بخطاياهم وسيآتهم التى اجترموها " وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين " أى : فذهب الأولون كأمس الذاهبِ ، وجعلناهم أحاديث " وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين " أى : جيلا آخر ، لنختبرهم ، فعملوا مثل عملهم ، فهلكوا كهلاكهم . فاحذروا — أيها المخاطبون — أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم ، فما أنتم بأعزَّ على الله منهم ، والرسولُ الذى كذبتموه أكرمُ على الله من رسولهم ، فأنتم أولى بالعذاب ومعاجلة العقوبة منهم ، لولا لطفُه وإحسانُه .

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ، وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن كفر المشركين وعنادهم ومكابرتهم للحق ومباهتتهم فيه " ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم " أى : عاينوه ورأوا نزوله

وباشروا ذلك " لقال الذين كفروا إنْ هذا إلا سحر مبين " وهذا كما قال تعالى مخبراً عن مكابرتهم للمحسوسات : ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلُّوا فيه يَعْرُجُون * لقالوا إنما سُكِّرت أبصارُنا ، بل نحن قوم مسحورون ﴾ . وكقوله تعالى : ﴿ وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحاب مركوم ﴾ .
" وقالوا لولا أنزل عليه ملك " أى : فيكون معه نذيراً . قال الله تعالى " ولو أنزلنا ملكاً لقضى الأمر ثم لا ينظرون " أى : لو نزلت الملائكة على ما هم عليه لجاءهم من الله العذاب . كما قال الله تعالى : ﴿ ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذاً منظرين ﴾ وقوله : ﴿ يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً ﴾ . وقوله " ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون " أى : لو أنزلنا مع الرسول البَشَرِىّ ملكاً أى : لو بعثنا إلى البشر رسولا ملكيًّا لكان على هيئة الرجل ، ليمكنهم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه ، ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر ، كما هم يلبسون على أنفسهم فى قبول رساله البَشَرِىّ ، كما قال تعالى : ﴿ قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولا ﴾ . فمن رحمته تعالى بخلقه أنه يرسل إلى كل صنف من الخلائق رسلاً منهم ، ليدعُوَ بعضُهم بعضاً ، وليمكن بعضُهم أن ينتفع ببعض فى المخاطبة والسؤال . كما قال تعالى : ﴿ لقد منّ الله على المؤمنين إذْ بعث فيهم رسولا من أنفسهم ﴾ — الآية . قال ابن عباس : يقول : لو أتاهم ملك ما أتاهم إلا فى صورة رجل ، لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة " وللبسنا عليهم ما يَلبسون " أى : ولخلطنا عليهم ما يخلطون . وقوله " ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون " هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم فى تكذيب من كذبه من قومه ، ووعدٌ له وللمؤمنين به بالنصرة والعاقبة الحسنة فى الدنيا والآخرة . ثم قال " قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين " أى : فكروا فى أنفسكم ، وانظروا ما أحل الله بالقرون الماضية الذين كذبوا رسله

وعاندوه ، من العذاب والنكال والعقوبة فى الدنيا ، مع ما ادخر لهم من العذاب الأليم فى الآخرة ، وكيف نـَجـّى رسله وعبادَه المؤمنين .

﴿ قُلْ لِّمَن مَّا فِي السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ، قُلْ لِّلَّهِ ، كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ، لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ، الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢) * وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ، قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ، وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ، وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (١٦) ﴾

ربع

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ، ومن فيهن ، وأنه قد كتب على نفسه المقدسة الرحمةَ . كما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة ، قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله لما خلق الخلق كتب كتاباً عنده فوق العرش : إن رحمتى تغلب غضبى »(١) . وقوله " ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه " هذه اللام هى الموطئة للقسم فأقسم بنفسه الكريمة ليجمعن عباده لميقات يوم معلوم ، وهو يوم القيامة ، الذى لا ريب فيه ولا شك عند عباده المؤمنين . فأما الجاحدون المكذبون، فهم فى رَيْبهم يترددّون . وقوله " الذين خسروا أنفسهم " أى : يوم القيامة " فهم لا يؤمنون " أى : لا يصدقون بالمعاد ، ولا يخافون شرَّ ذلك اليوم . ثم قال تعالى " وله ما سكن فى الليل والنهار " أى : كل دابة فى السموات والأرض ، الجميعُ عباده وخلقه وتحت قهره وتدبيره ، لا إله إلا هو " وهو السميع العليم " أى : السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم وضمائرهم وسرائرهم .

---

(١) رواه أحمد فى المسند مراراً ، بنحوه ، منها : ٧٢٩٧ ، ٧٤٩١ ، ٧٥٢٠ ، ٨١١٢ . وسيأتى عن الرواية الأخيرة من المسند، ص: ٣٤ من هذا الجزء . ورواه الطبرى فى التفسير ، بنحوه : ١٣٠٩٦ ، ١٣١٠٥ .

ثم قال لعبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى بعثه بالتوحيد العظيم ، وبالشرع القويم ، وأمره أن يدعو الناس إلى صراط الله المستقيم – : " قل أغير الله أتخذ وليًّا فاطِرِ السموات والأرض " كما قال : ﴿ قل أفغيرَ الله تأمرونّى أعبدُ أيها الجاهلون ﴾ . والمعنى : لا أتخذ وليًّا إلا الله وحده لا شريك له ، فإنه فاطر السموات والأرض ، أى : خالقهما ومبتدعهما على غير مثال سبق " وهو يُطعِم ولا يُطعَم " أى : وهو الرازق لخلقه من غير احتياج إليهم . كما قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون * ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ . وقرأ بعضهم ههنا " وهو يُطعِم ولا يَطْعَم " أى : لا يأكل[1].

وعن أبى هريرة ، قال : « دعا رجل من الأنصار من أهل قُبَاءَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم . قال : فانطلقنا معه ، فلما طعم النبى صلى الله عليه وسلم وغسل يديه قال : الحمد لله الذى يُطعِم ولا يُطعَم ، ومَنَّ علينا فهدانا ، وأطعمنا وسقانا ، وكلَّ بلاءٍ حسنٍ أبلانا ، الحمد لله غير مودَّعٍ ربى ولا مكافَإٍ ولا مكفورٍ ولا مستغنًى عنه ، الحمد لله الذى أطعمنا من الطعام ، وسقانا من الشراب ، وكسانا من العُرْى ، وهدانا من الضلال ، وبصَّرنا من العمى ، وفضلنا على كثير ممن خلق تفضيلاً ، الحمد لله رب العالمين »[2]. " قل إنى أمرت

---

(١) يعنى بفتح الياء والعين . وهذه القراءة مروية عن الحسن والمطوعى . انظر القراءات الأربعة عشر ، ص : ٢٠٦ . وذكرها الطبرى ١١ : ٢٨٤ مجهلا قارئها ، وقال : « أى أنه يطعم خلقه ، ولا يأكل هو . ولا معنى لذلك ، لقلة القرأة به » .

(٢) هذا حديث صحيح . ذكره الحافظ ابن كثير دون تخريج . وقد رواه الحاكم ١ : ٥٤٦ ، بهذا اللفظ مع اختلاف قليل فى بعض الكلمات . ورواه ابن حبان فى صحيحه ٧ : ٢٦٥ (مخطوطة الإحسان المصورة) مختصراً قليلا . وقال الحاكم : « صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه » . ووافقه الذهبى .

وقد روى البخارى بعض معناه ٩ : ٥٠١ – ٥٠٢ ، بروايتين من حديث أبى أمامة . وكذلك رواه أبو داود : ٣٨٤٩ . وروى الحاكم حديث أبى أمامة هذا ٤ : ١٣٥ – ١٣٦ ، بروايتين ، وقال فى كل منهما : « صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه » ووافقه الذهبى ! فلم يعقب عليه بأنهما فى صحيح البخارى .

وأشار الحافظ [illegible] إلى [illegible] أبى هريرة هذا أثناء [illegible] حديث أبى أمامة ، ونسبه

أن أكون أول من أسلم " أى : من هذه الأمة " ولا تكونن من المشركين * قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم " يعنى : يوم القيامة " من يصرف عنه " يعنى : العذاب " يومئذ فقد رحمه " يعنى : فقد رحمه الله " وذلك هو الفوز المبين " كما قال : ﴿ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ﴾ . والفوز : هو حصول الربح ونفى الخسارة .

﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ، وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ، وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ، قُلِ ٱللَّهُ، شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ، أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ، قُل لَّا أَشْهَدُ ، قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ ، ٱلَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً أنه مالك الضر والنفع ، وأنه المتصرف فى خلقه بما يشاء ، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه — : " وإن يمسسك الله بضرّ فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير " كما قال : ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ﴾ وفى الصحيح : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الجدّ » . ولهذا قال تعالى " وهو القاهر فوق عباده " أى : هو الذى خضعت له الرقاب ، وذلت له الجباه ،

للنسائى وابن حبان والحاكم . ولكنه ليس فى السنن الصغرى للنسائى ، فالنسبة إذن للسنن الكبرى .

وقوله « غير مودع » : هو بفتح الدال المهملة المشددة ، أى : غير متروك . وهذا الضبط هو الثابت وحده فى اليونينية . وذكر القاضى عياض فى مشارق الأنوار ٢ : ٢٨٢ والحافظ فى الفتح : أنه يجوز كسر الدال المشددة ، بمعنى : غير تارك طاعة ربى .

وعنت له الوجوه ، وقهر كل شيء ، ودانت له الخلائق ، وتواضعت لعظمة جلاله وكبريائه وعظمته وعلوه وقدرته الأشياءُ ، واستكانت وتضاءلت بين يديه وتحت قهره وحكمه " وهو الحكيم " أي : في جميع ما يفعله " الخبير " بمواضع الأشياء ومحالّها ، فلا يعطي إلا لمن يستحق ، ولا يمنع إلا لمن يستحق . ثم قال " قل أي شيء أكبر شهادةً " أي : مَنْ أعظم الأشياء شهادة " قل الله شهيد بيني وبينكم " أي : هو العالم بما جئتكم به وما أنتم قائلون لي " وأوحي إليّ هذا القرآنُ لأنذركم به ومن بلغ " أي : وهو نذير لكل من بلغه . كما قال تعالى : ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾ . قال الربيع بن أنس : حقٌ على من اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعوَ كالذي دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن ينذر كالذي أنذر . وقوله " أئنكم لتشهدون" أي : أيها المشركون " أن مع الله آلهة أخرى ، قل لا أشهد " كما قال : ﴿ فإن شهدوا فلا تشهد معهم ﴾ . " قل إنما هو إله واحد ، وإنني بريء مما تشركون " . ثم قال مخبراً عن أهل الكتاب : أنهم يعرفون هذا الذي جئتَهم به كما يعرفون أبناءهم ، بما عندهم من الأخبار والأنباء عن المرسلين المتقدمين والأنبياء . فإن الرسل كلهم بشروا بوجود محمد صلى الله عليه وسلم ، وبنعته وصفته وبلده ومهاجَره وصفة أمته . ولهذا قال بعد هذا " الذين خسروا أنفسهم " أي : خسروا كل الخسارة " فهم لا يؤمنون " بهذا الأمر الجلي الظاهر ، الذي بشرت به الأنبياء ، ونوهت به في قديم الزمان وحديثه . ثم قال " ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته " أي : لا أظلم ممن تقوّل على الله فادعى أن الله أرسله ولم يكن أرسله ، ثم لا أظلم ممن كذّب بآيات الله وحججه وبراهينه ودلالاته " إنه لا يفلح الظالمون " أي : لا يفلح هذا ولا هذا ، لا المفتري والا المكذّب .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا

مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ، وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ، وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ، وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين " ويوم نحشرهم جميعاً " يوم القيامة ، فيسألهم عن الأصنام والأنداد التى كانوا يعبدونها من دونه قائلا لهم : " أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون " كما قال فى سورة القصص : ﴿ ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون ﴾ . وقوله " ثم لم تكن فتنتهم " أى : حجتهم " إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين " قال ابن عباس ؛ أى : معذرتهم . وكذا قال قتادة . وقال ابن جرير : والصواب : ثم لم يكن قيلهم عند فتنتنا إياهم — اعتذاراً مما سلف منهم من الشرك بالله — " إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين " . وروى ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : « أتاه رجل فقال : يا أبا عباس[١] . سمعت الله يقول " والله ربنا ما كنا مشركين " ؟ قال : أما قوله " والله ربنا ما كنا مشركين " فإنهم رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة ، فقالوا : تعالوْا فلنجحدْ ، فيجحدون ، فيختم الله على أفواههم ، وتشهد أيديهم وأرجلهم ، ولا يكتمون الله حديثاً ، فهل فى قلبك الآن شىء ؟ إنه ليس من القرآن شىء إلا قد نزل فيه شىء ، ولكن لا تعلمون وجهه » [٢] . وقال الضحاك عن ابن عباس : هذه فى المنافقين .

---

(١) « أبو عباس » : كنية عبد الله بن عباس . وهذا هو الثابت فى المخطوطتين « يا أبا عباس » وفى المطبوعة « يا ابن عباس » .

(٢) ورواه أيضاً الطبرى : ١٣١٤٠ (ج ١١ ص ٣٠٢) . ورواه قبل ذلك بالإسناد نفسه : ٩٥٢٠ (ج ٨ ص ٣٧٣) . ورواه عقب ذاك : ٩٥٢١ بإسناد آخر مطولا .

وفيه نظر : فإن هذه الآية مكية ، والمنافقون إنما كانوا بالمدينة . والتى نزلت فى المنافقين آية المجادلة : ﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ، ويحسبون أنهم على شىء ، ألا إنهم هم الكاذبون ﴾ . وهكذا قال فى حق هؤلاء " انظر كيف كذبوا على أنفسهم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون " كما قال : ﴿ ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون * من دون الله ، قالوا ضلوا عنا ، بل لم نكن ندعو من قبلُ شيئاً ، كذلك يضل الله الكافرين ﴾ . وقوله " ومنهم من يستمع إليك ، وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها " أى : يجيئون ليسمعوا قراءتك ولا تجدى عنهم شيئاً ، لأن الله جعل على قلوبهم " أكنة " أى : أغطية ، لئلا يفقهوا القرآن " وفى آذانهم وقراً " أى : صمماً عن السماع النافع . فهم كما قال الله تعالى : ﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، صم بكم عمى ، فهم لا يعقلون ﴾ . وقوله " وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها " أى : مهما رأوا من الآيات والدلالات والحجج البينات لا يؤمنوا بها ، فلا فهم عندهم ولا إنصاف . كما قال تعالى : ﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾ . وقوله " حتى إذا جاؤك يجادلونك " أى : يحاجونك ويناظرونك فى الحق بالباطل " يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين " أى : ما هذا الذى جئتَ به إلا مأخوذ من كتب الأوائل ومنقول عنهم . وقوله " وهم ينهون عنه وينأون عنه " فى معنى " ينهون عنه " قولان : أحدهما : أن المراد أنهم ينهون الناس عن اتباع الحق وتصديق الرسول والانقياد للقرآن " وينأون عنه " أى : ويبتعدون عنه ، فيجمعون بين الفعلين القبيحين : لا ينتفعون ولا يدعون أحداً ينتفع . وهذا القول أظهر — والله أعلم — وهذا اختيار ابن جرير . والقول الثانى : روى عن ابن عباس قال : نزلت فى أبى طالب ، كان ينهى الناس عن النبى صلى الله عليه وسلم أن يؤذى . وكذا قال عطاء بن دينار وغيره : أنها نزلت فى أبى طالب . وقال سعيد بن أبى هلال : نزلت فى عمومة النبى صلى الله عليه وسلم ، وكانوا عشرة ، فكانوا أشدَّ الناس معه فى العلانية ، وأشدَّ الناس عليه فى

السر . رواه ابن أبي حاتم . " وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون " أى : وما يهلكون بهذا الصنيع ولا يعود وباله إلا عليهم ، وهم لا يشعرون .

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ، وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ، وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ، قَالَ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِالْحَقِّ ، قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ، قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

يذكر تعالى حال الكفار إذا وُقفوا يوم القيامة على النار ، وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال ، ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال ، فعند ذلك قالوا " ياليتنا نردّ ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين " يتمنون أن يُرَدُّوا إلى الدار الدنيا ليعملوا عملا صالحاً ولا يكذبوا بآيات ربهم ويكونوا من المؤمنين . قال الله تعالى " بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل " أى : بل ظهر لهم حينئذ ما كانوا يخفون فى أنفسهم من الكفر والتكذيب المعاندة ، وإن أنكروها فى الدنيا أو فى الآخرة ، كما قال قبل هذا بيسير : ﴿ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين * انظر كيف كذبوا على أنفسهم ﴾ . ويحتمل أنهم ظهر لهم ما كانوا يعلمونه من أنفسهم من صدق ما جاءتهم به الرسل فى الدنيا ، وإن كانوا يظهرون لأتباعهم خلافه ، كما قال تعالى مخبراً عن موسى أنه قال لفرعون : ﴿ لقد علمتَ ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر ﴾ . وقال تعالى مخبراً عن فرعون وقومه : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتْها أنفسُهم ﴾ . ويحتمل أن يكون المرادَ بهؤلاء المنافقون الذين كانوا يظهرون للناس الإيمانَ ويبطنون الكفر ، ويكون هذا إخباراً عما يكون يوم القيامة من كلام طائفة من الكفار . ولا ينافى هذا كون هذه السورة مكيةً والنفاق

إنما كان من بعض أهل المدينة ومن حولها من الأعراب ، وقد ذكر الله وقوع النفاق فى سورة مكية ، وهى العنكبوت ، فقال : ﴿ وليعلمنّ الله الذين آمنوا وليعلمنّ المنافقين ﴾ . وعلى هذا فيكون هذا إخباراً عن حال المنافقين فى الدار الآخرة حين يعاينون العذاب ، فظهر لهم حينئذ غب ما كانوا يبطنون من الكفر والنفاق والشقاق . والله أعلم . وأما معنى الإضراب فى قوله " بل بدا لهم " فهم ما طلبوا العود إلى الدنيا رغبةً ومحبةً فى الإيمان ، بل خوفاً من العذاب الذى عاينوه جزاءً على ما كانوا عليه من الكفر ، فسألوا الرجعة إلى الدنيا ليتخلصوا مما شاهدوا من النار . ولهذا قال " ولو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه ، وإنهم لكاذبون" أى : فى تمنيهم الرجعة رغبةً ومحبة فى الإيمان . ثم قال مخبراً عنهم أنهم لو ردوا إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه من الكفر والمخالفة " وإنهم لكاذبون " أى : فى قولهم " ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين". " وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين" أى : لعادوا لما نهوا عنه، ولقالوا : إن هى إلا حياتنا الدنيا ، أى : ما هى إلا هذه الحياة الدنيا لا معادَ بعدها ، ولهذا قال " وما نحن بمبعوثين" . ثم قال " ولو ترى إذ وقفوا على ربهم" أى : أوقفوا بين يديه " قال أليس هذا بالحق " أى : أليس هذا المعاد بحق وليس بباطل كما كنتم تظنون ؟ " قالوا بلى وربنا ، قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون " أى : كما كنتم تكذبون به فذوقوا اليومَ مسَّه ﴿ أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ﴾ .

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ، أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ، وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن خسارة من كذب بلقاء الله ، وعن خيبته إذا جاءته الساعة بغتة ، وعن ندامته على ما فرط من العمل ، وما أسلف من قبح الفعل .

ولهذا قال " حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا ياحسرتنا على ما فرطنا فيها " وهذا الضمير يحتمل عوده على الحياة ، وعلى الأعمال ، وعلى الدار الآخرة ، أى : فى أمرها . وقوله " وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ، ألا ساء ما يزرون " أى : يحملون . وقال قتادة : يعملون . وقوله " وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو " أى : إنما غالبها كذلك " وللدار الآخرة خير للذين يتقون ، أفلا تعقلون " .

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ ، فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ، وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ اللَّهِ ، وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِى الْمُرْسَلِينَ (٣٤) وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَٰهِلِينَ (٣٥) * إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ، وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٦) ﴾ .

ربع

يقول تعالى مسلياً لنبيه صلى الله عليه وسلم فى تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه " قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون " أى : قد أحطنا علماً بتكذيب قومك لك ، وحزنك وتأسفك عليهم ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ . كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين ﴾ . ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً ﴾ . وقوله " فإنهم لا يكذبونك " أى : لا يتهمونك بالكذب فى نفس الأمر " ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون " أى : ولكنهم يعاندون الحق ويدفعونه بصدورهم . كما قال على : « قال أبو جهل للنبى صلى الله عليه وسلم : إنا لا نكذبك ، ولكن نكذب ما جئتَ به ! فأنزل الله " فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون " » . رواه الحاكم ، ثم قال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه [١] . وذكر محمد بن إسحق عن الزهرى ، فى قصة أبى جهل حين

---

(١) ورواه الترمذى ٤ : ١٠٣ ، ثم رواه مرسلا ، من رواية ناجية بن كعب ، دون ذكر

جاء يستمع قراءة النبي صلى الله عليه وسلم من الليل هو وأبو سفيان صخر بن حرب والأخنس بن شَرِيق ، ولا يشعر أحد منهم بالآخر ، فاستمعوها إلى الصباح ، فلما هجم الصبح تفرقوا فجمعتهم الطريق ، فقال كل منهم للآخر : ما جاء بك ؟ فذكر له ما جاء له ، ثم تعاهدوا أن لا يعودوا ، لما يخافون من علم شباب قريش بهم لئلا يفتتنوا بمجيئهم ، فلما كانت الليلة الثانية جاء كل منهم ، ظنًّا أن صاحبيه لا يجيئان لما تقدَّم من العهود، فلما أصبحوا جمعتهم الطريق ، فتلاوموا ، ثم تعاهدوا أن لا يعودوا ، فلما كانت الليلةُ الثالثة جاؤا أيضاً ، فلما أصبحوا تعاهدوا أن لا يعودوا لمثلها ، ثم تفرقوا ، فلما أصبح الأخنس بن شَرِيق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب فى بيته ، فقال : أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعتَ من محمد ؟ قال : يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعتُ أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعتُ أشياء ما عرفتُ معناها ولا ما يراد بها ، قال الأخنس : وأنا والذى حلفتَ به ، ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيتَه فقال: يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعتَ من محمد ؟ قال : ماذا سمعتُ ؟ قال : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرفَ ، أطعَموا فأطعمنا ، وحَمَلوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا : منّا نبىٌّ يأتيه الوحى من السماء ، فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه ، قال : فقام عنه الأخنسُ وتركه .

وقوله " ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا " هذه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وتعزية له فيمن كذبه من قومه ،

« على » ، وقال : « وهذا أصح » . أى أنه رجح المرسل على الموصول . وكذلك رواه الطبرى : ١٣١٩٥ ، ١٣١٩٦ ، عن ناجية – مرسلا . ولكن رواية الحاكم ٢ : ٣١٥ – ٣١٦ ، موصولة ، بإسناد آخر غير إسناد الترمذى . فالوصل زيادة من ثقتين ، فهى مقبولة على اليقين . وقد تعقب الذهبى تصحيح الحاكم إياه « على شرط الشيخين » بأنهما لم يخرجا لناجية شيئاً . وهذا صحيح ، فإن الشيخين لم يخرجا لناجية بن كعب الأسدى شيئاً . ولكنه تابعى ثقة . فالحديث صحيح ، وإن لم يكن على شرطهما .

وأمرٌ له بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ، ووعدٌ له بالنصر كما نُصروا ، وبالظفر كما كانت لهم العاقبة بعد ما نالهم من التكذيب من قومهم والأذى البليغ ، ثم جاءهم النصر فى الدنيا كما لهم النصر فى الآخرة . ولهذا قال " ولا مبدل لكلمات الله " أى التى كتبها بالنصرة فى الدنيا والآخرة لعباده المؤمنين . كما قال : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون * وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ كَتب الله لأغلبن أنا ورسلى ، إن الله قوى عزيز ﴾ . وقوله " ولقد جاءك من نبإ المرسلين " أى : من خبرهم ، كيف نُصروا وأيدوا على من كذبهم من قومهم ، فلك فيهم أسوة ، وبهم قدوة . ثم قال تعالى " وإن كان كبر عليك إعراضهم " أى : إن كان شقّ عليك إعراضهم عنك " فإن استطعتَ أن تبتغى نفقاً فى الأرض أو سلماً فى السماء " قال ابن عباس : النفق السِّرْب ، فتذهبَ فيه فتأتيهم بآية ، أو تجعل لك سلماً فى السماء فتصعد فيه فتأتيهم بآية أفضل مما أتيتهم به — فافعل . وكذا قال قتادة والسدى وغيرهما . وقوله " ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ، فلا تكونن من الجاهلين " كما قال تعالى : ﴿ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً ، أفأنت تكره الناسَ حتى يكونوا مؤمنين ﴾ . قال ابن عباس ، فى قوله " ولو شاء الله لجمعهم على الهدى " قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحرص أن يؤمنَ جميعُ الناس ويتابعوه على الهدى ، فأخبر الله أنه لا يؤمن إلا من قد سبق له من الله السعادة فى الذكر الأول . وقوله " إنما يستجيب الذين يسمعون " أى : إنما يستجيب لدعائك يا محمد من يسمعُ الكلام ويَعيه ويفهمه . كقوله : ﴿ لينذر من كان حياً ويحقّ القول على الكافرين ﴾ . وقوله " والموتى يبعثهم الله " يعنى بذلك الكفار ، لأنهم موتى القلوب ، فشبههم بالأموات الأجساد ، فقال " والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون " وهذا من باب التهكم بهم ، والإزْرَاءِ عليهم .

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ ، قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٧) وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ

يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ، مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ، مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٩) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن المشركين أنهم كانوا يقولون " لولا نزل عليه آية من ربه " أى : خارق على مقتضى ما يريدون وما يتعنتون . كما قالوا : ﴿ لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ — الآيات " قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون " أى : هو تعالى قادر على ذلك ، ولكن حكمته تعالى تقتضى تأخير ذلك ، لأنه لو أنزلها وفق ما طلبوا ثم لم يؤمنوا لعاجلهم بالعقوبة ، كما فعل بالأمم السالفة . كما قال تعالى : ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ، وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ، وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً ﴾ . وقال تعالى : ﴿ إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين ﴾ . وقوله " وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم " قال مجاهد : أى أصناف مصنفة تعرف بأسمائها . وقال قتادة : الطير أمة ، والإنس أمة ، والجن أمة . وقوله " ما فرطنا فى الكتاب من شىء " أى : الجميع علمهم عند الله ، ولا ينسى واحداً من جميعها من رزقه وتدبيره ، سواء كان برياً أو بحرياً . كما قال : ﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها ، كل فى كتاب مبين ﴾ . أى : مفصح بأسمائها وأعدادها ومظانها ، وحاصر لحركاتها وسكناتها . وقال تعالى : ﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها ، الله يرزقها وإياكم ، وهو السميع العليم ﴾ . وقوله " ثم إلى ربهم يحشرون " روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس ، قال : حشرها الموت . وكذا رواه ابن جرير . والقول الثانى : أن حشرها هو بعثها يوم القيامة . لقوله : ﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾ . وروى الإمام أحمد عن أبى ذر : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى شاتين تنتطحان ، فقال : يا أبا ذر ، هل تدرى فيم تنتطحان ؟

قال : لا قال : لكن الله يدرى ، وسيقضى بينهما » . ورواه ابن جرير وزاد : « قال أبو ذر : ولقد تركَنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وما يقلب طائر جناحيه فى السماء إلا ذكر لنا منه علماً »[١] . وروى عبد الرزاق عن أبى هريرة ، فى قوله " إلا أمم أمثالكم ، ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون " قال : « يحشر الخلق كلهم يوم القيامة ، البهائم والدوابّ والطير وكل شىء ، فيبلغ من عدل الله يومئذ أن يأخذ للجَمَّاء من القَرْناء، ثم يقول: كونى تراباً . فلذلك يقول الكافر : ﴿ يا ليتنى كنت تراباً ﴾ »[٢] . وقوله " والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم فى الظلمات " أى : مثلهم فى جهلهم وقلة علمهم وعدم فهمهم ، كمثل أصم ، وهو الذى لا يسمع ، أبكم ، وهو الذى لا يتكلم ، وهو مع هذا فى ظلام لا يبصر ، فكيف يهتدى مثل هذا إلى الطريق أو يخرج مما هو فيه ؟ ! كما قال تعالى : ﴿ مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون * صم بكم عمى فهم لا يرجعون ﴾ . وكما قال تعالى : ﴿ أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ، إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ . ولهذا قال تعالى " من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم " أى : هو المتصرف فى خلقه بما يشاء .

---

(١) المسند ٥ : ١٥٣ ، ١٦٢ (حلبى) . والطبرى : ١٣٢٢٣ ، ١٣٢٢٤ . وفى أسانيدها ضعف ، بالانقطاع أو إبهام بعض الرواة . ولكن قول أبى ذر فى آخره - ثابت من وجه آخر صحيح . فرواه ابن حبان فى صحيحه : ٦٤ بتحقيقنا ، عن أبى ذر ، قال : " تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما طائر يطير بجناحيه إلا عندنا منه علم » . وانظر تتمة التخريج فى تفسير الطبرى (ج ١١ ص ٥٩٠ ، رقم : ٨) . ومجمع الزوائد ٨ : ٢٦٣ - ٢٦٤ .

(٢) إسناد عبد الرزاق إسناد صحيح . وكذلك رواه الطبرى : ١٣٢٢٢ ، من طريق عبد الرزاق . ورواه الحاكم ٢ : ٣١٦ ، من طريق عبد الرزاق أيضاً ، وصححه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى . وهو موقوف على أبى هريرة . ومعناه ثابت صحيح مرفوعاً : فروى أحمد فى المسند : ٧٢٠٣ عن أبى هريرة . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء تنطحها » . وقد مضت الإشارة إلى هذا المرفوع (ج ٣ ص ٢٠٣) . و« الجماء » : التى لا قرن لها . و « القرناء » : ذات القرن .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ ، أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ ، وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِٱلْبَأْسَاءِ وَٱلضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا ، وَلَٰكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ، وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ .

يخبر تعالى أنه الفعال لما يريد ، المتصرف فى خلقه بما يشاء ، وأنه لا معقب لحكمه ، ولا يقدر أحد على صرف حكمه عن خلقه ، بل هو وحده لا شريك له الذى إذا سئل يُجيب لمن يشاء . ولهذا قال "قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة " أى : أتاكم هذا أو هذا " أغير الله تدعون " أى : لا تدعون غيره ، لعلمكم أنه لا يقدر أحد على دفع ذلك سواه ، ولهذا قال " إن كنتم صادقين " أى : فى اتخاذكم آلهةً معه " بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء ، وتنسون ما تشركون " أى : فى وقت الضرورة لا تدعون أحداً سواه ، وتذهب عنكم أصنامكم وأندادكم . كما قال : ﴿ وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ﴾ – الآية . وقوله " ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء " يعنى : الفقر والضيق فى العيش " والضراء " وهى الأمراض والأسقام والآلام " لعلهم يتضرعون " أى : يدعون الله ويتضرعون إليه ويخشعون . قال الله تعالى " فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا " أى : فهلا إذ ابتليناهم بذلك تضرعوا إلينا وتمسكنوا لدينا " ولكن قست قلوبهم " أى : ما رقّت ولا خشعت " وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون" أى : من الشرك والمعاصى " فلما نسوا ما ذكروا به" أى : أعرضوا عنه وتناسَوْه وجعلوه وراء ظهورهم " فتحنا عليهم أبواب كل شىء " أى : فتحنا عليهم أبواب الرزق

من كل ما يختارون . وهذا استدراج منه تعالى وإملاء لهم ، عياذاً بالله من مكره . ولهذا قال " حتى إذا فرحوا بما أوتوا " أى : من الأموال والأولاد والأرزاق " أخذناهم بغتة " أى : على غفلة " فإذا هم مبلسون " أى : آيسون من كل خير . قال ابن عباس : المبلس الآيس . قال الحسن البصرى : من وسّع عليه فلم يَرَ أنه يمكر به فلا رأى له ، ومن قتر عليه فلم ير أنه ينظر له فلا رأى له ، ثم قرأ " فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون" قال : مُكِر بالقوم ورب الكعبة ، أُعْطُوا حاجَتَهم ثم أخذوا . رواه ابن أبى حاتم . وقال قتادة : بغتَ القومَ أمرُ الله ، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وغِرَّتهم ونعمتهم ، فلا تغتروا بالله ، إنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون . رواه ابن أبى حاتم أيضاً . وقد روى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا رأيتَ اللهَ يعطى العبد من الدنيا على معاصيه ما يحبُّ فإنما هو استدراج ، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم "فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون" » . ورواه ابن جرير وابن أبى حاتم[١] . وروى ابن أبى حاتم عن إبرهيم بن أبى عبلة ، عن عبادة بن الصامت : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : إذا أراد الله بقوم بقاءً أو نماءً رزقهم القصد والعفاف ، وإذا أراد الله بقوم اقتطاعاً فتح لهم أو فتح عليهم بابَ خيانة " حتى إذا فرحوا بها أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون" كما قال " فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين " » . ورواه أحمد وغيره [٢] .

---

(١) المسند : ١٧٣٨٢ . والطبرى : ١٣٢٤٠ ، ١٣٢٤١ . وفى إسناد أحمد « رشدين بن سعد » ، وهو ضعيف . وإسنادا الطبرى لا بأس بهما ، فهما يشدان من رواية رشدين ، ويكونان شاهدين له . خصوصاً وأن ضعف رشدين إنما هو من قبل حفظه وتخليطه فى بعض ما يروى ، ولكنه كان رجلا صالحاً .

(٢) إسناده منقطع ، بين إبرهيم بن أبى عبلة وعبادة بن الصامت دهر طويل ! وقوله هنا « ورواه أحمد وغيره » – ثبت فى المطبوعة فقط ، ولم يذكر فى المخطوطتين . وإثباته – فى رأيي –

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ، انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (٤٦) قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (٤٧) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ، فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٤٩) ﴾ .

يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : " قل " لهؤلاء المكذبين المعاندين " أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم " أى : سلبكم إياها كما أعطاكموها ، فإنه ﴿ هو الذى أنشاكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾. ويحتمل أن يكون هذا عبارة عن منع الانتفاع بهما النفع الشرعى ، ولهذا قال " وختم على قلوبكم " كما قال : ﴿ أمّن يملك السمع والأبصار ﴾ . وقال : ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ . وقوله " من إله غير الله يأتيكم به " أى : هل أحد غير الله يقدر على ردّ ذلك إليكم إذا سلبه الله منكم ؟ لا يقدر على ذلك أحد سواه . ولهذا قال " انظر كيف نصرف الآيات " أى : نبينها ونوضحها ونفسرها ، دالةً على أنه لا إله إلا الله، وأن ما يعبدون من دونه باطل وضلال " ثم هم يصدفون " أى : ثم هم مع هذا البيان يعرضون عن الحق ويصدّون الناس عن اتباعه . قال ابن عباس : يصدفون : يعدلون . وقال مجاهد وقتادة : يعرضون . وقال السدى : يصدّون . وقوله " قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة " أى : وأنتم لا تشعرون به حتى بغتكم وفجأكم " أو جهرة " أى : ظاهراً عياناً " هل يهلك إلا القوم الظالمون " أى : إنما كان يحيط بالظالمين أنفسهم بالشرك بالله ، وينجو الذين كانوا يعبدون الله وحده لا شريك له ، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . كما قال تعالى : ﴿ الذين آمنوا

خطأ . فالحديث ليس فى المسند على اليقين . وقد ذكره السيوطى ٣ : ١٢ ، ونسبه لابن أبى حاتم وأبى الشيخ وابن مردويه ، فقط .

ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾. وقوله "وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين" أى : مبشرين عبادَ الله المؤمنين بالخيرات ، ومنذرين من كفر بالله النقمات والعقوبات. ولهذا قال " فمن آمن وأصلح " أى : فمن آمن قلبه بما جاؤا به وصلح عمله باتّباعه إياهم " فلا خوف عليهم " أى : بالنسبة إلى ما يستقبلونه " ولا هم يحزنون" أى : بالنسبة إلى ما فاتهم وتركوه وراء ظهورهم من أمر الدنيا وضيعتها ، الله وليهم فيما خلفوه ، وحافظهم فيما تركوه . ثم قال " والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون " أى : ينالهم العذاب بما كفروا بما جاءت به الرسل ، وخرجوا عن أوامر الله وطاعته ، وارتكبوا من مناهيه ومحارمه وانتهاك حرماته .

﴿ قُلْ لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللهِ ، وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ، وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَىَّ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ، أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠) وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١) وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ، مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّنْ شَىْءٍ ، وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّنْ شَىْءٍ ، فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّٰلِمِينَ (٥٢) وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰٓؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا ، أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّٰكِرِينَ (٥٣) وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ، كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ، أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٤) ﴾ .

يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : " قل لا أقول لكم عندى خزائن الله " أى : لست أملكها ولا المتصرّفَ فيها " ولا أعلم الغيب" أى : ولا أقول لكم إنى أعلم الغيب ، إنما ذاك من علم الله عز وجل ، لا أطلع منه إلا على ما

أطلعني عليه " ولا أقول لكم إني ملك " أي : ولا أدعي أني ملك ، إنما أنا بشر من البشر يوحى إليّ من الله عز وجل ، شرفني بذلك وأنعم عليّ به . ولهذا قال " إن أتبع إلا ما يوحى إليّ " أي : لست أخرج عنه قِيدَ شبر ولا أدنى منه " قل هل يستوي الأعمى والبصير " أي : هل يستوي من اتبع الحق وهدى إليه ومن ضل عنه ولم ينقد له ؟ " أفلا تتفكرون " . وهذه كقوله تعالى : ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ، إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾. وقوله " وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع " أي : وأنذر بهذا القرآن يا محمد ﴿ الذين هم من خشية ربهم مشفقون ﴾ . ﴿ الذين يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ﴾. " الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم " أي : يوم القيامة " ليس لهم " أي : يومئذ " من دونه وليّ ولا شفيع " أي : لا قريب لهم ولا شفيع فيهم من عذابه إن أراده بهم " لعلهم يتقون " أي : أنذرْ هذا اليومَ الذي لا حاكم فيه إلا الله عز وجل ، لعلهم يتقون فيعملون في هذه الدار عملا ينجيهم الله به يوم القيامة من عذابه ، ويضاعف لهم به الجزيل من ثوابه . وقوله " ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه " أي : لا تبعد هؤلاء المتصفين بهذه الصفات عنك ، بل اجعلهم جلساءك وأخِصَّاءَك . كما قال : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ولا تَعْدُ عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فُرُطاً ﴾ . وقوله " يدعون ربهم " أي : يعبدونه ويسألونه " بالغداة والعشي " قال سعيد بن المسيب ومجاهد والحسن وقتادة : المراد بذلك الصلاة المكتوبة . وهذا كقوله : ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجبْ لكم ﴾ . أي : أتقبل منكم . وقوله " يريدون وجهه " أي : يريدون بذلك العمل وجهَ الله الكريم ، فهم مخلصون فيما هم فيه من العبادات والطاعات . وقوله " ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء " كقول نوح عليه السلام في جواب الذين ﴿ قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون * قال وما علمي

بما كانوا يعملون * إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون ﴾ . أى : إنما حسابهم على الله عز وجل ، وليس علىّ من حسابهم من شىء ، كما أنه ليس عليهم من حسابى من شىء . وقوله " فتطردهم فتكون من الظالمين " أى : إن فعلتَ هذا والحالة هذه . روى الإمام أحمد عن ابن مسعود ، قال : « مرَّ الملأ من قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده خَبَّاب وصُهيب وبلال وعمار ، فقالوا : يا محمد ، أرضيت بهؤلاء ؟ فنزل فيهم القرآن " وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم" إلى قوله " أليس الله بأعلم بالشاكرين " » . ورواه ابن جرير عن ابن مسعود ، قال : « مر الملأ من قريش برسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده صهيب وبلال وعمار وخباب وغيرُهم من ضعفاء المسلمين ، فقالوا : يا محمد ، أرضيت بهؤلاء من قومك ؟ أهؤلاء الذين منّ الله عليهم من بيننا ؟ أنحن نصير تبعاً لهؤلاء ؟ اطردهم ، فلعلك إن طردتَهم أن نتبعك ! فنزلت هذه الآية " ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى " " وكذلك فتنا بعضهم ببعض " إلى آخر الآية[١] . وعن سعد ، قال : « نزلت هذه الآية فى ستة من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، منهم ابن مسعود ، قال : كنا نسبق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وندنو منه ونسمع منه ، فقالت قريش : يُدنى هؤلاء دوننا ! فنزلت " ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى " » . رواه الحاكم ، وقال : على شرط الشيخين . وأخرجه ابن حبان فى صحيحه[٢] . وقوله " وكذلك فتنا بعضهم ببعض " أى : ابتلينا واختبرنا وامتحنا بعضهم ببعض " ليقولوا

---

(١) المسند : ٣٩٨٥ . والطبرى : ١٣٢٥٥ . وإسناداهما صحيحان . وتفصيل التخريج هناك فى الموضعين .

(٢) المستدرك ٣ : ٣١٩ . ووافقه الذهبى على تصحيحه . وهو فى الحقيقة لا يستدرك على الشيخين ، فقد رواه مسلم ٢ : ٢٤٠ (بولاق) — بنحوه . ورواه أيضاً الطبرى : ١٣٢٦٣ . واللفظ الذى أورده الحافظ ابن كثير هنا ، هو لفظ الطبرى . وقد خرجه السيوطى ٣ : ١٣ ، ونسبه أيضاً لأحمد . وقلت فى تتمة التخريج فى الطبرى ١١ : ٥٩٠ « لم أجده فى المسند ، فى مسند سعد بن أبى وقاص ، إلا أن يكون الإمام أحمد رواه أثناء مسند صحابى آخر ، فخفى على موضعه » . وكان سعد بن أبى وقاص — راوى الحديث — أحد هؤلاء الستة أيضاً ، كما فى روايتى مسلم والحاكم .

أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا" وذلك : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان غالب من اتبعه فى أول البعثة ضعفاء الناس ، من الرجال والنساء والعبيد والإماء ، ولم يتبعه من الأشراف إلا قليل . كما قال قوم نوح لنوح : ﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ﴾ — الآية . وكما سأل هِرَقْلُ ملكُ الروم أباسفيان حين سأله عن تلك المسائل : « فقال له : فهل اتبعه ضعفاء الناس أو أشرافهم ؟ فقال : بل ضعفاؤهم ، فقال : هم أتباع الرسل » . والغرض : أن مشركى قريش كانوا يسخرون بمن آمن من ضعفائهم ، ويعذبون من يقدرون عليه منهم ، وكانوا يقولون " أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا " أى : ما كان الله ليهدى هؤلاء إلى الخير لو كان ما صاروا إليه خيراً ويدعنا . كما قالوا : ﴿ لو كان خيراً ما سبقونا إليه ﴾ . وكما قال تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أىّ الفريقين خير مقاماً وأحسن نديًّا ﴾ . قال الله تعالى فى جواب ذلك : ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورئياً ﴾. وقال فى جوابهم حين قالوا " أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا" — "أليس الله بأعلم بالشاكرين " أى : أليس هو أعلم بالشاكرين له بأقوالهم وضمائرهم ، فيوفقهم ويهديهم سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً . كما قال : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين ﴾ . وفى الحديث الصحيح : « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى ألوانكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »[1]. وقوله " وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم " أى : فأكرمهم برد السلام عليهم ، وبشرهم برحمة الله الواسعة الشاملة لهم . ولهذا قال " كتب ربكم على نفسه الرحمة " أى : أوجبها على نفسه الكريمة ، تفضلا منه وإحساناً وامتناناً " أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة " قال بعض السلف : كل من عصى الله فهو جاهل . وقال عكرمة: الدنيا كلها جهالة . رواه ابن أبى حاتم " ثم

---

(١) رواه أحمد فى المسند : ٧٨١٤ . ومسلم ٢ : ٢٨٠ — من حديث أبى هريرة . ولكن فيهما : « لا ينظر إلى صوركم وأموالكم » . وكذلك مضى على الصواب ج ٢ ص ١٩٢ .

تاب من بعده وأصلح " أى : رجع عما كان عليه من المعاصى وأقلع ، وعزم على أن لا يعود ، وأصلح العمل فى المستقبل " فأنه غفور رحيم " روى الإمام أحمد عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما قضى الله الخلقَ كتب فى كتاب ، فهو عنده فوقَ العرش : إن رحمتى غلبتْ غضبى » . أخرجاه فى الصحيحين [١]. وسيأتى كثير من الأحاديث الموافقة لهذه الآية ، عند قوله : ﴿ ورحمتى وسعت كل شىء ﴾ [٢] . ومما يناسب هذه الآية من الأحاديث أيضاً : قوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل : « أتدرى ما حق الله على العباد ؟ أن يعبدوه لا يشركوا به شيئاً ، ثم قال : أتدرى ما حق العباد على الله إذا هم فعلوا ذلك ؟ أن لا يعذبهم » . وقد رواه الإمام أحمد عن أبى هريرة [٣] .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ (٥٥) قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦) قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ ، مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ، إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ، يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٧) قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (٥٨) * وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩) ﴾ .

ربع

---

(١) المسند : ٨١١٢ ، فى صحيفة همام بن منبه . وقد مضى من رواية الشيخين ، ص : ١٤ وأشرنا إلى هذا هناك .

(٢) الآية : ١٥٦ من سورة الأعراف .

(٣) حديث معاذ مضى ج ٣ ص ١٧٠ ، وخرجناه من رواية الشيخين وغيرهما . وقد رواه الإمام أحمد من حديث أنس بن مالك : ١٣٧٧٨ . وهو فى الحقيقة من رواية أنس عن معاذ ، كما تدل عليه الروايات الأخر . وأما حديث أبى هريرة ، فهو فى المسند : ٨٠٧١ ، ١٠٨٠٨ ، ١٠٩٣١ .

يقول تعالى : كما بينا ما تقدم بيانه من الحجج والدلائل على طريق الهداية والرشاد وذم المجادلة والعناد – " كذلك نفصل الآيات " أى : التى يحتاج المخاطبون إلى بيانها " ولتستبين سبيلُ المجرمين " أى : ولتظهر طريق المجرمين المخالفين للرسل . وقرئ " ولتستبين سبيلَ المجرمين " أى : ولتستبين يا محمد – أو يا مخاطب – سبيلَ المجرمين (١) . وقوله " قل إنى على بينة من ربى " أى : على بصيرة من شريعة الله التى أوحاها إلىّ " وكذبتم به " أى : بالحق الذى جاءنى من الله " ما عندى ما تستعجلون به " أى : من العذاب " إنِ الحكمُ إلا لله " أى : إنما يرجع أمر ذلك إلى الله ، إن شاء عجل لكم ما سألتموه من ذلك ، وإن شاء أنظركم وأجلكم ، لما له فى ذلك من الحكمة العظيمة. ولهذا قال " يقصُّ الحقَّ وهو خير الفاصلين " أى : وهو خير من فَصَل القضايا وخيرُ الفاتحين ، الحاكمُ بين عباده . وقوله " قل لو أن عندى ما تستعجلون به لقضى الأمر بينى وبينكم " أى : لو كان مرجع ذلك إلىّ لأوقعت بكم ما تستحقونه من ذلك " والله أعلم بالظالمين " . فإن قيل : فما الجمع بين هذه الآية وبين ما ثبت فى الصحيحين عن عائشة : « أنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ من يوم أحد ؟ فقال : لقد لقيتُ من قومكِ ، وكان أشد ما لقيت منه يوم العقبة ، إذ عرضتُ نفسى على ابن عبدِ ياليِل بن عبد كُلاَل ، فلم يجبنى إلى ما أردت ، فانطلقتُ وأنا مهموم على وجهى ، فلم أستفقْ إلا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسى ، فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى ، فنظرتُ فإذا فيها جبريل عليه السلام ، فنادانى فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك مَلَك الجبال لتأمره بما شئتَ فيهم ، قال : فنادانى مَلَك الجبال وسلم علىّ ، ثم قال : يا محمد ، إن الله قد سمع قول قومك لك ، وقد بعثنى ربك إليك لتأمرنى بأمرك ، فما شئتَ : إن شئتَ أطبقتُ عليهم

---

(١) قراءة نصب اللام هى قراءة نافع وأبى جعفر . وقراءة الرفع هى قراءة ابن كثير وأبى عمرو وابن عامر وحفص .

الأَخْشَبَيْن ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً » . وهذا لفظ مسلم[١] . فقد عُرِض عليه عذابُهم واستئصالهم ، فاستأنى بهم ، وسأل لهم التأخير ، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من لا يشرك به شيئاً — فما الجمع بين هذا وبين قوله تعالى فى هذه الآية الكريمة " قل لو أن عندى ما تستعجلون به لقضى الأمر بينى وبينكم والله أعلم بالظالمين " ؟ فالجواب — والله أعلم — : أن الآية دلت على أنه لو كان إليه وقوع العذاب الذى يطلبونه حال طلبهم له لأوقعه بهم . وأما الحديث فليس فيه أنهم سألوه وقوعَ العذاب بهم ، بل عرض عليه ملك الجبال أنه إن شاء أطبق عليهم الأخشبين — وهما جبلا مكة اللذان يكتنفانها جنوباً وشمالا — فلهذا استأنى بهم وسأل الرفق لهم .

وقوله " وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو " روى البخارى عن ابن عمر ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مفاتيح الغيب خمسٌ لا يعلمهن إلا الله : ﴿ إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير ﴾ »[٢]. وفى حديث عمر : أن جبريل حين تبدى له فى صورة أعرابى ، فسأل عن الإيمان والإسلام والإحسان ؟ فقال له النبى صلى الله عليه وسلم فيما قال له : « فى خمسٍ لا يعلمهن إلا الله ، ثم قرأ : ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ — الآية » . وقوله " ويعلم ما فى البر والبحر " أى : يحيط علمه العظيم بجمع الموجودات ، بَرِّيها وبحريها ، لا يخفى عليه من ذلك شىء ، ولا مثقال

---

(١) مسلم ٢ : ٦٨ (بولاق) . والبخارى ٦ : ٢٢٤ — ٢٢٥ (فتح) . و « ياليل » : بكسر اللام الأولى . و « كلال » : بضم الكاف وتخفيف اللام . و « قرن الثعالب » : هو ميقات أهل نجد ، ويقال له : قرن المنازل أيضاً ، وهو على يوم وليلة من مكة . و « الأخشبان » — بالخاء والشين المعجمتين : هما جبلا مكة ، أبو قبيس والذى يقابله .

(٢) البخارى ٨ : ٢١٩ (فتح) . ورواه أحمد مراراً ، منها : ٤٧٦٦ . وسيذكره الحافظ ابن كثير فيما يأتى ، عند تفسير الآية : ٣٤ من سورة لقمان — من رواية المسند وغيره . ورواه — بنحوه — ابن حبان فى صحيحه : ٦٩ ، ٧٠ (بتحقيقنا) . وفصلنا تخريجه هناك .

ذرة فى الأرض ولا فى السماء . وقوله " وما تسقط من ورقة إلا يعلمها " أى : ويعلم الحركات ، حتى من الجمادات ، فما ظنك بالحيوانات ، ولا سيما المكلفون منهم من جنهم وإنسهم ؟ كما قال تعالى : ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾ .

﴿ وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُسَمًّى ، ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ، وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (٦١) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ، أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (٦٢) ﴾ .

يخبر تعالى أنه يتوفى عباده فى منامهم بالليل . وهذا هو التوفى الأصغر . كما قال تعالى : ﴿ إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلىّ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها ، فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ﴾ . يذكر فى هذه الآية الوفاتين الكبرى والصغرى . وهكذا ذكر فى هذا المقام حكم الوفاتين الصغرى ثم الكبرى ، فقال " وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار " أى : ويعلم ما كسبتم من الأعمال بالنهار . وهذه جملة معترضة ، دلت على إحاطة علمه تعالى بخلقه فى ليلهم ونهارهم ، فى حال سكونهم وحال حركتهم . كما قال : ﴿ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ﴾ . وكما قال تعالى : ﴿ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ﴾ أى : فى الليل ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ أى : فى النهار . كما قال : ﴿ وجعلنا الليل لباساً ، وجعلنا النهار معاشاً ﴾ . ولهذا قال تعالى ههنا " وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار" أى : كسبتم بالنهار " ثم يبعثكم فيه " أى : فى النهار ، قاله مجاهد وقتادة والسدى . وقال ابن جريج عن عبد الله بن كثير : أى فى المنام . والأول أظهر . وقوله " ليقضى أجل مسمى " يعنى

به : أجل كل واحد واحد من الناس " ثم إليه مرجعكم " أى : يوم القيامة " ثم ينبئكم " أى : فيخبركم " بما كنتم تعملون " أى : ويجزيكم على ذلك ، إنْ خيراً فخيراً ، وإنْ شرًّا فشرًّا . وقوله " وهو القاهر فوق عباده" أى : هو الذى قهر كل شىء ، وخضع لجلاله وعظمته وكبريائه كل شىء " ويرسل عليكم حفظةً " أى : من الملائكة ، يحفظون بدن الإنسان . كما قال : ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾ . وحفظةٌ يحفظون عمله ويحصونه عليه . كما قال : ﴿ وإن عليكم لحافظين * كراماً كاتبين * يعلمون ما تفعلون ﴾ . وقال : ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد * ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ . وقوله " حتى إذا جاء أحدكم الموت" أى : احتُضِر وحان أجله " توفّته رسلنا " أى : ملائكة موكلون بذلك . وقوله " وهم لا يفرطون " أى : فى حفظ روح المتوفى ، بل يحفظونها وينزلونها حيث يشاء الله عز وجل : إن كان من الأبرار ففى عليين ، وإن كان من الفجار ففى سجين ، عياذاً بالله من ذلك . وقوله " ثم ردوا " قال ابن جرير : يعنى الملائكة " إلى الله مولاهم الحق " . ونذكر ههنا الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « إن الميت تَحْضُرُه الملائكة ، فإذا كان الرجلَ الصالحَ قالوا : اخرجى أيتها النفس الطيبةُ كانتْ فى الجسد الطيب ، اخرجى حميدةً ، وأبشرى برَوْح ورَيْحان ، وربٍّ غيرِ غضبان ، فلا تزال يقال لها ذلك حتى تخرج ، ثم يُعرج بها إلى السماء ، فيستفتح لها ، فيقال : من هذا ؟ فيقال : فلان ، فيقال : مرحباً بالنفس الطيبة كانت فى الجسد الطيب ، ادخلى حميدةً ، وأبشرى بروح وريحان ، وربٍّ غيرِ غضبان . فلا تزال يقال لها ذلك حتى يُنتهى بها إلى السماء التى فيها الله عز وجل ، وإذا كان الرجلَ السَّوْءَ قالوا : اخرجى أيتها النفس الخبيثةُ كانتْ فى الجسد الخبيث ، اخرجى ذميمةً ، وأبشرى بحميم وغسَّاق وآخرَ من شكله أزواج ، فلا تزال يُقال لها ذلك حتى تخرج ، ثم يُعرج بها إلى السماء ، فيستفتح لها ، فيقال : من هذا ؟ فيقال : فلان ، فيقال : لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانتْ

فى الجسد الخبيث ، ارجعى ذميمةً ، فإنه لا يُفتح لك أبواب السماء ، فترسل من السماء ، ثم تصير إلى القبر ، فيُجلَس الرجلُ الصالح فيقال له مثلُ ما قيل فى الحديث الأوّل ، ويُجلَس الرجلُ السَوْءُ فيقال له مثلُ ما قيل فى الحديث الأول » . هذا حديث غريب[1]. ويحتمل أن يكون المراد بقوله " ثم ردوا " يعنى : الخلائق كلهم " إلى الله " يوم القيامة ، فيحكم فيهم بعدله . كما قال : ﴿ قل إن الأوّلين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ﴾ . وقال : ﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً ﴾ — إلى قوله : ﴿ ولا يظلم ربك أحداً ﴾ . ولهذا قال " مولاهم الحق ، ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين " .

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّنْ ظُلُمَٰتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ .

يقول تعالى ممتنًّا على عباده فى إنجائه المضطرين منهم من ظلمات البر والبحر ، أى : الحائرين الواقعين فى المهامه البرية ، واللُّجَج البحرية ، إذا هاجت الرياح العاصفة ، فحينئذ يفردون الدعاء له وحده لا شريك له . كما قال : ﴿ وإذا مسكم الضُّرُّ فى البحر ضلَّ من تدعون إلا إياه ، فلما نجاكم إلى البرّ أعرضتم ، وكان الإنسان كفوراً ﴾ . وقال تعالى : ﴿ هو الذى يسيركم فى البر والبحر ، حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها

(١) المسند : ٨٧٥٤ . وإسناده صحيح . ورواه الطبرى — بنحوه — بإسنادين : ١٤٦١٥ ، ١٤٦١٦ . وسيذكره الحافظ المؤلف ، عند الآية : ٤٠ من سورة الأعراف من رواية الطبرى ، ونسبه هناك لأحمد والنسائى وابن ماجة . ولم أجد وجهاً لحكم الحافظ ابن كثير هنا على هذا الحديث بأنه « غريب » ! فإن إسناد الإمام أحمد صحيح على شرط الشيخين ، وكذلك الإسناد الثانى عند الطبرى ، إلا شيخه « محمد بن عبد الله بن عبد الحكم » فإنه لم يرو له الشيخان ، ولكنه إمام ثقة لا خلاف فيه . وليس فى متن الحديث شىء من الغرابة أو المخالفة لأدلة أخرى .

جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ﴾ — الآية . وقال تعالى : ﴿ أمَّنْ يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بُشْراً بين يدى رحمته ، أإله مع الله ، تعالى الله عما يشركون ﴾ . وقال فى هذه الآية الكريمة " قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية " أى : جهراً وسرًّا " لئن أنجانا من هذه " أى : من هذه الضائقة " لنكونن من الشاكرين " أى : بعدها . قال الله تعالى " قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم " أى : بعد ذلك " تشركون " أى : تدعون معه فى حال الرفاهية آلهةً أخرى .

وقوله " قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم " لما قال " ثم أنتم تشركون " عقّبه بقوله " قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً " أى : بعد إنجائه إياكم . كما قال فى سورة سبحان : ﴿ ربكم الذى يُزْجِى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله ، إنه كان بكم رحيماً * وإذا مسكم الضُّرُّ فى البحر ضَلَّ من تدعون إلا إياه ، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم ، وكان الإنسان كفوراً * أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البرِّ أو يرسلَ عليكم حاصباً ثم لا تجدوا لكم وكيلا * أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارةً أخرى فيرسلَ عليكم قاصفاً من الريح فيغرقَكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تَبِيعاً ﴾ . قال البخارى فى قوله " قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم " — الآية — : " يلبسكم " يخلطكم ، من الالتباس ، يلبسوا : يخلطوا ، " شيعاً " : فرقاً . ثم روى عن جابر بن عبد الله ، قال : « لما نزلت هذه الآية " قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أعوذ بوجهك ، " أو من تحت أرجلكم " قال : أعوذ بوجهك ، " أو يلبسكم شيعاً ويذيقَ بعضكم بأس بعض " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا أهون ، أو قال : هذا أيسر » . ورواه النسائى ، والحميدى فى مسنده ، وابن حبان فى صحيحه ، وابن جرير ، وابن مردويه ،

وسعيد بن منصور [١]. وروى الإمام أحمد عن سعد بن أبى وقاص ، قال : « أقبلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى مررنا على مسجد بنى معاوية ، فدخل فصلى ركعتين فصلينا معه ، فناجى ربه عز وجل طويلا ، ثم قال : سألت ربى ثلاثاً ، سألته أن لا يهلك أمتى بالغرق فأعطانيها ، وسألته أن لا يهلك أمتى بالسَّنَة فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها » . انفرد بإخراجه مسلم[٢]. وروى الإمام أحمد عن جابر بن عتيك، أنه قال: « جاءنا عبد الله بن عمر فى حَرَّة بنى معاوية — قرية من قرى الأنصار — فقال لى : هل تدرى أين صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسجدكم هذا ؟ فقلت : نعم ، فأشرتُ إلى ناحية منه ، فقال : هل تدرى ما الثلاث التى دعا بهنّ فيه ؟ فقلت : نعم ، قال : فأخبرنى بهن ؟ فقلت : دعا بأن لا يظهر عليهم عدوًّا من غيرهم ، ولا يهلكهم بالسنين ، فأعطيهما ، ودعا بأن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعها ، قال: صدقت، فلا يزال الهَرْج إلى يوم القيامة » . ليس هو فى شىء من الكتب الستة ، وإسناده جيد قوى . ولله الحمد والمنة [٣] . وروى الإمام أحمد عن معاذ بن جبل قال : « أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقيل لى : خرج قَبْلُ، قال : فجعلتُ لا أمرّ بأحد إلا قال : مرَّ قبلُ، حتى مررتُ فوجدته قائماً يصلى ، قال : فجئتُ حتى قمت خلفه ، قال : فأطال الصلاة ، فلما قضى الصلاةَ قلتُ يا رسول الله، لقد صليتَ صلاة طويلة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى صليت صلاة رغبة ورهبة ، إنى سألت الله عز وجل ثلاثاً فأعطانى اثنتين ومنعنى واحدةً ، سألته أن لا يهلك أمتى غرقاً فأعطانيها ، وسألته أن لا يظهر عليهم عدوًّا ليس منهم فأعطانيها ، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فردَّها علىَّ » . ورواه ابن ماجة ،

---

(١) البخارى ٨ : ٢١٩ (فتح) . والطبرى : ١٣٣٦٥ ، ١٣٣٦٦ ، ١٣٣٧٢ .

(٢) المسند : ١٥١٦ ، ١٥٧٤ . ومسلم ٢ : ٣٦٣ (بولاق) .

(٣) المسند ٥ : ٤٤٥ (حلبى) . وذكره الهيثمى فى الزوائد ٧ : ٢٢١ ، وقال : « رواه أحمد ، ورجاله ثقات » .

وابن مردويه ، بمثله أو نحوه[١] . وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك ، أنه قال : « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر صلى سُبْحَةَ الضحى ثمان ركعات ، فلما انصرف قال : إنى صليتُ صلاةَ رغبة ورهبة ، وسألت ربى ثلاثاً ، فأعطانى ثنتين ومنعنى واحدةً ، سألته أن لا يبتلى أمّتى بالسنين ، ففعل ، وسألته أن لا يظهر عليهم عدوّهم ، ففعل ، وسألته أن لا يلبسهم شيعاً فأبى علىّ » . ورواه النسائى[٢] . وروى الإمام أحمد عن خَبَّاب بن الأَرَتّ مولى بنى زُهْرة ، وكان قد شهد بدراً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « رَاقبْتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ليلة صلاها كلها ، حتى كان مع الفجر ، فسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلاته ، فقلت : يا رسول الله ، لقد صليتَ الليلة صلاةً ما رأيتك صليتَ مثلها ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أجل إنها صلاةُ رَغَبٍ ورَهَبٍ ، سألت ربى عز وجل فيها ثلاثَ خصال ، فأعطانى اثنتين ومنعنى واحدةً : سألت ربى عز وجل أن لا يهلكنا بما أهلك به الأمم قبلنا ، فأعطانيها ، وسألت ربى عز وجل أن لا يُظْهِر علينا عدوًّا من غيرنا ، فأعطانيها ، وسألت ربى عز وجل أن لا يَلْبسنا شيعاً ، فمنعنيها » . ورواه النسائى وابن حبان فى صحيحه والترمذى ، وقال : حسن صحيح[٣] . وروى الإمام أحمد عن شدّاد بن أوس ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله زَوَى لى الأرض حتى رأيتُ مشارقها ومغاربها ، وإن مُلْك أمتى سيبلغ ما زوى لى منها ، وإنى أُعطِيتُ الكنزين الأبيض والأحمر ، وإنى

---

(١) المسند ٥ : ٢٤٠ (حلبى) . وابن ماجة : ٣٩٥١ . وقال البوصيرى فى زوائده : « إسناده صحيح ، رجاله ثقات » .

(٢) المسند ١٢٥١٣ ، ١٢٦١٦ . وإسناداه صحيحان . ورواية النسائى له إنما هى فى السنن الكبرى ، كما نص عليه الحافظ ابن حجر فى تعجيل المنفعة ، ص : ١٣٤ . وذكره الهيثمى فى الزوائد ٢ : ٢٣٦ . وقال : « رواه أحمد ، ورجاله ثقات » . إلا أنه سقط فيه ألفاظ من متن الحديث .

(٣) المسند ٥ : ١٠٨ – ١٠٩ (حلبى) . والترمذى ٣ : ٢١٠ . ورواه الطبرى : ١٣٣٧٠ ، ١٣٣٧١ ، بإسنادين فيهما انقطاع ، ولكن تبين وصلهما من روايات المسند والترمذى وغيرها .

سألت ربى عز وجل أن لا يهلك أمتى بسَنَة عامة ، وأن لا يسلط عليهم عدوًّا فيُهلكهم بعامة ، وأن لا يَلْبِسهم شيعاً وأن لا يذيق بعضهم بأس بعض، فقال : يا محمد، إنى إذا قضيتُ قضاءً فإنه لا يُرَدُّ ، وإنى قد أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنةٍ عامة ، وأن لا أسلط عليهم عدوًّا ممن سواهم فيهلكَهم بعامة ، حتى يكونَ بعضهم يهلك بعضاً وبعضهم يقتل بعضاً وبعضهم يَسْبِى بعضاً ، قال : وقال النبي صلى الله عليه وسلم : إنى لا أخاف على أمتى إلا الأئمةَ المضلين ، فإذا وُضع السيف فى أمتى لم يرفع عنهم إلى يوم القيامة » . ليس فى شىء من الكتب الستة . وإسناده جيد قوى[1] . وروى ابن مردويه عن أبى مالك الأشجعى ، عن نافع بن خالد الخزاعى ، عن أبيه ، قال : وكان أبوه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان من أصحاب الشجرة ، قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى والناس حوله صلى صلاةً خفيفةً تامةَ الركوع والسجود ، قال : فجلس يوماً فأطال الجلوس ، حتى أومأ بعضنا إلى بعضٍ ، أن : اسكتوا، إنه ينزل عليه، فلما فرغ قال له بعض القوم: يا رسول الله ، لقد أطلت الجلوس حتى أومأ بعضنا إلى بعض أنه ينزل عليه ؟ قال : لا ، ولكنها كانت صلاةَ رغبة ورهبة ، سألت الله فيها ثلاثاً ، فأعطانى اثنتين ومنعنى واحدة : سألت الله أن لا يعذبكم بعذاب عذّب به من كان قبلكم، فأعطانيها ، وسألت الله أن لا يسلطَ على أمتى عدوًّا يستبيحها ، فأعطانيها ، وسألته أن لا يَلبسكم شيعاً وأن لا يذيق بعضكم بأس بعضٍ ، فمنعنيها » . قال : قلت له: أبوك سمعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال: نعم، سمعته يقول : إنه سمعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم عدد أصابعى هذه، عشر أصابع[2].

---

(١) المسند : ١٧١٨٣ . وذكره الهيثمى فى الزوائد ٧ : ٢٢١ ، وقال : « رواه أحمد والبزار ، ورجال أحمد رجال الصحيح » . ورواه الطبرى أيضاً : ١٣٣٦٨ ، ١٣٣٦٩ . وأشار إليه الحافظ فى الفتح ٨ : ٢٢١ عن رواية الطبرى ، وقال : « بإسناد صحيح » . وقوله « زوى لى الأرض » : أى قبضها وجمعها حتى يراها جميعاً .

(٢) ورواه الطبرى : ١٣٣٦٧ — بنحوه — مختصراً قليلا . وأشار إليه الحافظ فى الإصابة ٢ : ١٠١ ، ونسبه للحسن بن سفيان وأبى يعلى والطبرانى والطبرى وغيرهم ، وقال : « رجاله

وروى ابن مردويه عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « سألت ربى لأمتى أربع خصال ، فأعطانى ثلاثاً ومنعنى واحدةً : سألته أن لا تكفر أمتى ، واحدة ، فأعطانيها ، وسألته أن لا يعذبهم بما عذب به الأمم قبلهم ، فأعطانيها ، وسألته أن لا يظهر عليهم عدوًّا من غيرهم ، فأعطانيها ، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها » . ورواه ابن أبى حاتم[1].

وقال مجاهد وسعيد بن جبير وغير واحد ، فى قوله " عذاباً من فوقكم " يعنى : الرجم " أو من تحت أرجلكم " يعنى : الخسف . وهذا هو اختيار ابن جرير ، وهو كما قال ابن جرير رحمه الله . ويشهد له بالصحة قوله تعالى : ﴿ أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرضَ فإذا هى تمور * أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصباً ، فستعلمون كيف نذير ﴾ . وفى الحديث : « ليكونن فى هذه الأمة قذف وخسف ومسخ »[2]. وذلك مذكور مع نظائره فى أمارات الساعة وأشراطها وظهور الآيات قبل يوم القيامة . وستأتى فى مواضعها ، إن شاء الله تعالى . وقوله " أو يلبسكم شيعاً " يعنى يجعلكم ملتبسين شيعاً : فرقاً متخالفين . قال ابن عباس : يعنى الأهواء . وكذا قال مجاهد وغير واحد . وقد ورد فى الحديث المرويّ من طرق عنه صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها فى النار إلا واحدة » . وقوله " ويذيق بعضكم بأس بعض " قال ابن عباس وغير واحد : يعنى يسلط

ثقات » . وذكره الهيثمى فى الزوائد ٧ : ٢٢٢ – ٢٢٣ ، وقال : « رواه الطبرانى بأسانيد ، ورجال بعضها رجال الصحيح غير نافع بن خالد ، وقد ذكره ابن أبى حاتم ، ولم يجرحه أحد . ورواه البزار » . ونافع بن خالد : ترجمه البخارى فى الكبير ٤/٢/٨٥ ، ولم يذكر فيه جرحاً .

(١) ذكره الهيثمى فى الزوائد ٧ : ٢٢٢ ، وقال : « رواه الطبرانى فى الأوسط ، ورجاله ثقات . ورواه البزار ، إلا أنه قال : سألت ربى ثلاثاً » . ورواية البزار أشار إليها الحافظ ابن كثير هنا عقب هذا الحديث ، من رواية أخرى لابن مردويه .

(٢) بهذا اللفظ رواه ابن أبى الدنيا فى ذم الملاهى ، عن أنس . وفى آخره : « ذلك إذا شربوا الخمور ، واتخذوا القينات ، وضربوا بالمعازف » – كما فى الفتح الكبير ٣ : ٧١ . ورواه الترمذى ٣ : ٢١٥ – ٢١٦ ، من حديث عائشة ، مرفوعاً : « يكون فى آخر هذه الأمة خسف ومسخ وقذف ، قالت : قلت : يا رسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم ، إذا ظهر الخبث » . قال الترمذى : حديث غريب .

بعضكم على بعض بالعذاب والقتل . وقوله " انظر كيف نصرف الآيات " أى : نبينها ونوضحها ونفسرها " لعلهم يفقهون " أى : يفهمون ويتدبرون عن الله آياته وحججه وبراهينه .

﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ ، قُل لَّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (٦٦) لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ، وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٦٧) وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِى ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ (٦٨) وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٦٩) ﴾

يقول تعالى " وكذب به " أى : بالقرآن الذين جئتهم به والهدى والبيان " قومك " يعنى : قريشاً " وهو الحق " أى : الذى ليس وراءه حق " قل لست عليكم بوكيل " أى : لست عليكم بحفيظ ولست بموكَّل بكم . كقوله : ﴿ وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ . أى : إنما علىَّ البلاغ وعليكم السمع والطاعة ، فمن اتبعنى سعد فى الدنيا والآخرة ، ومن خالفنى فقد شقى فى الدنيا والآخرة . ولهذا قال " لكل نبأ مستقر " قال ابن عباس وغير واحد : أى لكل نبأ حقيقة ، أى : لكل خبر وقوع ولو بعد حين . كما قال : ﴿ ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ . وقال : ﴿ لكل أجل كتاب ﴾ . وهذا تهديد ووعيد أكيد . ولهذا قال بعده " وسوف تعلمون " . ثم قال " وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا " أى : بالتكذيب والاستهزاء " فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره " أى : حتى يأخذوا فى كلام آخر غير ما كانوا فيه من التكذيب " وإما ينسينك الشيطان " والمراد بذلك كل فرد فرد من آحاد الأمة ، أن لا يجلس مع المكذبين الذين يحرفون آيات الله ويضعونها على غير موضعها ، فإن جلس أحد منهم ناسياً ، فلا يقعد بعد الذكر " مع القوم الظالمين " . ولهذا ورد فى الحديث : « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما

استكرهوا عليه »[1] وقال السدى عن أبى مالك وسعيد بن جبير فى قوله " وإما ينسينك الشيطان" قال : إن نسيتَ فذكرتَ فلا تجلس معهم . وكذا قال مقاتل بن حيان . وهذه الآية هى المشار إليها فى قوله : ﴿ وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، إنكم إذاً مثلهم ﴾ – الآية . أى : إنكم إذا جلستم معهم وأقررتموهم على ذلك فقد ساويتموهم فى الذى هم فيه . وقوله " وما على الذين يتقون من حسابهم من شىء " أى : إذا تجنبوهم فلم يجلسوا معهم فى ذلك فقد برئوا من عهدتهم وتخلصوا من إثمهم . وقوله " ولكن ذكرى " أى : ولكن أمرناكم بالإعراض عنهم حينئذ تذكيراً لهم عما هم فيه " لعلهم يتقون " ذلك ولا يعودون إليه .

﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا ، وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ ، لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ، وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا ، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا ، لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠) ﴾ .

يقول تعالى " وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا " أى : دعهم وأعرض عنهم وأمهلهم قليلا فإنهم صائرون إلى عذاب عظيم . ولهذا قال " وذكر به " أى : ذكر الناس بهذا القرآن ، وحذرهم نقمةَ الله وعذابه الأليم يوم القيامة . وقوله " أن تبسل نفس بما كسبت " أى : لئلا تبسل قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن : تبسل : تُسْلَم . وعن ابن

(١) هو بهذا اللفظ يدور على ألسنة الفقهاء وغيرهم . وقد ذكره السيوطى فى الجامع الصغير : ٤٤٦٣ ، وأنه رواه الطبرانى عن ثوبان ، ورمز له بالصحة . وأخطأ فى ذلك ، فإن فى إسناده رجلا ضعيفاً ، كما بينه شارحه المناوى . وقد أطال السخاوى فى تخريجه وبيان ضعفه فى المقاصد الحسنة ، رقم : ٥٢٨ ، ص ٢٢٨ – ٢٣٠ . ولكن معناه ثابت صحيح . فقد مضى ج ٢ ص ٢١٣ حديث ابن عباس مرفوعاً : « إن الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » . وبينا هناك صحته .

عباس : تفتضح . وقال الكلبي : تجزى . وكل هذه الأقوال والعبارات متقاربة فى المعنى . وحاصلها : الإسلام للهلكة والحبس عن الخير والارتهان عن درك المطلوب . كما قال : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين ﴾ . وقوله " ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع " أى : لا قريب ولا أحد يشفع فيها . كما قال : ﴿ من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ، والكافرون هم الظالمون ﴾ . وقوله "وإن تعدل كل عدل لا يؤخذْ منها" أى : ولو بذلتْ كل مبذول ما قبل منها . كما قال : ﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به ، أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين ﴾ . وهكذا قال ههنا " أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا ، لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون " .

﴿ قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ ، كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ ، لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا ، قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ، وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٧١) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ ، وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ ، قَوْلُهُ الْحَقُّ ، وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣) ﴾ .

قال السدى : قال المشركون للمسلمين : اتبعوا سبيلنا واتركوا دين محمد ، فأنزل الله عز وجل " قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا " أى : فى الكفر " بعد إذ هدانا الله " فيكون مثلنا مثل " الذى استهوته الشياطين فى الأرض " يقول : مثلكم إن كفرتم بعد الإيمان كمثل رجل كان مع قوم على الطريق ، فضلّ الطريقَ ، فحيرته الشياطين واستهوته فى الأرض ، وأصحابه على الطريق ، فجعلوا يدعونه إليهم يقولون : ائتنا فإنا على

الطريق ، فأبى أن يأتيهم ، فذلك مثل من يتبعهم بعد المعرفة بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ومحمد الذى يدعو إلى الطريق ، والطريق هو الإسلام . رواه ابن جرير(١). وقال ابن عباس : هذا مثل ضربه الله للآلهة ومن يدعو إليها ، والدعاة الذين يدعون إلى الله عز وجل ، كمثل رجل ضل عن الطريق تائهاً ضالاً ، إذْ ناداه مناد : يا فلانُ بنَ فلان ، هلم إلى الطريق، وله أصحاب يدعونه : يا فلان هلم إلى الطريق ، فإن اتبع الداعى الأول انطلق به حتى يلقيه إلى الهلكة ، وإن أجاب من يدعوه إلى الهدى اهتدى إلى الطريق ، وهذه الداعية التى تدعو فى البرية من الغيلان ، يقول: مثل من يعبد هذه الآلهة من دون الله فإنه يرى أنه فى شىء حتى يأتيه الموت ، فيستقبل الندامة والهلكة ، وقوله " كالذى استهوته الشياطين فى الأرض " هم الغيلان " يدعونه " باسمه واسم أبيه وجده ، فيتبعها ، وهو يرى أنه فى شىء ، فيصبح وقد ألقته فى هلكة ، وربما أكلته ، أو تلقيه فى مضلة من الأرض يهلك فيها عطشاً، فهذا مثل من أجاب الآلهة التى تعبد من دون الله عز وجل . رواه ابن جرير(٢). وسياق الآية يقتضى أن هذا الذى استهوته الشياطين فى الأرض حيرانَ — وهو منصوب على الحال ، أى : فى حال حيرته وضلاله وجهله بوجْه الحجة — وله أصحاب على المحجة سائرون ، فجعلوا يدعونه إليهم وإلى الذهاب معهم على الطريقة المثلى . وتقدير الكلام : فيأبى عليهم ولا يلتفت إليهم ، ولو شاء الله لهداه ولَرَدَّ به إلى الطريق . ولهذا قال " قل إن هدى الله هو الهدى " كما قال : ﴿ ومن يهد اللهُ فما له من مضلّ ﴾ . وقال : ﴿ إن تحرصْ على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل، وما لهم من ناصرين ﴾ . وقوله " وأمرنا لنسلم لرب العالمين " أى : نخلص له العبادة وحده لا شريك له " وأن أقيموا الصلاة واتقوه " أى : وأمرنا بإقامة الصلاة وبتقواه فى جميع الأحوال " وهو الذى إليه تحشرون " أى : يوم القيامة " وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق "

---

(١) الطبرى : ١٣٤٢٢ .

(٢) الطبرى : ١٣٤٢٣ .

أى : بالعدل ، فهو خالقهما ومالكهما والمدبر لهما ولمن فيهما . وقوله " ويوم يقول كن فيكون " يعنى : يوم القيامة ، الذى يقول الله : كن ، فيكون عن أمره كلمح البصر أو هو أقرب . و" يومَ " منصوب : إما على العطف على قوله " واتقوه " وتقديره : واتقوا يومَ يقول كن فيكون . وإما على قوله " خلق السموات والأرض " أى : وخلق يومَ يقول كن فيكون ، فذكر بدءَ الخلق وإعادتَه . وهذا مناسب . وإما على إضمار فعل ، تقديره : واذكرْ يومَ يقول كن فيكون . " قوله الحق ، وله الملك " جملتان محلهما الجر ، على أنهما صفتان لرب العالمين . وقوله " يومَ ينفخ فى الصور " يحتمل أن يكون بدلاً من قوله " ويومَ يقول كن فيكون " " يومَ ينفخ فى الصور " ويحتمل أن يكون ظرفاً لقوله " وله الملك يومَ ينفخ فى الصور " كقوله : ﴿لمن الملك اليوم ، لله الواحد القهار﴾ . وكقوله : ﴿الملك يومئذ الحق للرحمن ، وكان يوماً على الكافرين عسيراً﴾ . وما أشبه ذلك . واختلف المفسرون فى قوله " يوم ينفخ فى الصور " فقال بعضهم : المراد بالصور ههنا : جمع « صورة » أى : ينفخ فيها فتحيا . قال ابن جرير : كما يقال « سور » لسور البلد ، وهو جمع سورة . والصحيح : أن المراد بالصور : القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام . قال ابن جرير : والصواب من القول فى ذلك عندنا : ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « إن إسرافيل قد التقم الصور وحنى جبهته ، ينتظر متى يؤمر ، فينفخ » . رواه مسلم فى صحيحه[1] .

---

(١) وهم الحافظ ابن كثير هنا وهماً شديداً ! فالحديث ليس فى صحيح مسلم ، على اليقين . ثم ليس فى شىء من رواياته التى رأيتها تسمية « إسرافيل » . بل فيها « صاحب القرن » . والحديث رواه أحمد فى المسند : ١١٠٥٤ . عن أبى سعيد الخدرى ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال :

« كيف أنْعَمُ وقد الْتَقَمَ صاحبُ القَرْنِ القَرْنَ ، وحَنَى جبهتَه ، وأصغى سمعَه ، ينظر متى يؤمرُ ؟ قال المسلمون : يا رسول الله ، فما نقول ؟ قال : قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا » . وإسناده ضعيف . ورواه الحاكم فى المستدرك ٤ : ٥٥٩ بإسنادين ضعيفين . وذكره النابلسى فى ذخائر المواريث : ٧٩٦٠ ، ونسبه لأبى

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو ، قال : « قال أعرابى : يا رسول الله ، ما الصور ؟ قال : قَرْنٌ يُنْفَخُ فيه »[١]. وقد روينا حديث الصُّور بطوله ، من طريق الحافظ أبى القاسم الطبرانى . وهو غريب جداً ! ولبعضه شواهد فى الأحاديث المتفرقة ، وفى بعض ألفاظه نكارة . تفرد به إسمعيل بن رافع قاصّ أهل المدينة ، وقد اختلف فيه : فمنهم من وثقه ، ومنهم من ضعفه . ونص على نكارة حديثه غيرُ واحد من الأئمة ، كأحمد بن حنبل ، وأبى حاتم الرازى ، وعمرو بن على الفلاّس . ومنهم من قال فيه : هو متروك . وقال ابن عدى : أحاديثه كلها فيها نظر ، إلا أنه يكتب حديثه فى جملة الضعفاء . قلت : وقد اختلف عليه فى إسناد هذا الحديث على وجوه كثيرة ، قد أفردتها فى جزء على حدة . وأما سياقه فغريب جداً ! ويقال : أنه جمعه من أحاديث كثيرة وجعله سياقاً واحداً !! فأنكر عليه بسبب ذلك . وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المِزِّى يقول : إنه رأى للوليد بن مسلم مصنفاً قد جمعه كالشواهد لبعض مفردات هذا الحديث . فالله أعلم[٢].

ربع ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ، إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

داود والترمذى وابن ماجة . وذكره السيوطى فى زيادات الجامع الصغير (ج ٢ ص ٣٣٥ - ٣٣٦ من الفتح الكبير)، ونسبه لأحمد والترمذى وابن حبان والحاكم . ورواه أحمد أيضاً : ٣٠١٠ ،من حديث ابن عباس. وكذلك رواه الحاكم ٤ : ٥٥٩. وإسناده - عندهما - ضعيف.

(١) المسند : ٦٥٠٧ ، ٦٨٠٥ . ورواه الترمذى ٣ : ٢٩٥ ، وصححه . ورواه الحاكم ٢ : ٤٣٦ ، ٥٠٦ ، و ٤ : ٥٦٠ ، وصححه ، ووافقه الذهبى .

(٢) هو حديث ظاهر النكارة ، ساقه ابن كثير هنا من رواية الطبرانى ، كما قال . فحذفناه ، كما شرطنا فى كتابنا هذا . و « إسمعيل بن رافع » - راويه - : قال فيه ابن معين : « ليس بشىء » . وقال أبو حاتم : « هو منكر الحديث » . انظر الجرح والتعديل لابن أبى حاتم ١/١/١٦٨ - ١٦٩ . وقال ابن حبان فى كتاب المجروحين ، ص : ٨٣ - ٨٤ (مخطوط مصور) : « كان رجلا صالحاً ، إلا أنه يقلب الأخبار ، حتى صار الغالب على حديثه المناكير ، التى يسبق إلى القلب أنه كالمتعمد لها » .

وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَءَا كَوْكَباً ، قَالَ هَٰذَا رَبِّي ، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَٰذَا رَبِّي ، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ، فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ .

قال الضحاك عن ابن عباس : إن أبا إبرهيم لم يكن اسمه « آزر » وإنما كان اسمه « تارح » . رواه ابن أبي حاتم . وهكذا قال غير واحد من علماء النسب أن اسمه « تارح » . وقال مجاهد والسدى : آزر اسم صنم . قلت : كأنه غلب عليه « آزر » لخدمته ذلك الصنم . فالله أعلم . وقال ابن جرير : وقال آخرون : هو سبّ وعيب بكلامهم ، ومعناه : معوجّ . ولم يسنده ولا حكاه عن أحد . ثم قال ابن جرير : والصواب : أن اسم أبيه « آزر » . ثم أورد على نفسه قول النسابين أن اسمه تارح ، ثم أجاب بأنه قد يكون له اسمان ، كما لكثير من الناس ، أو يكون أحدهما لقباً . وهذا الذى قاله جيد قوى . والله أعلم[1] .

---

(١) أما أن اسم والد إبرهيم « آزر » - فإنه عندنا أمر قطعى الثبوت ، بصريح القرآن فى هذه الآية ، بدلالة الألفاظ على المعانى . وأما التأويل والتلاعب بالألفاظ ، فما هو إلا إنكار مقنع لمضمون الكلام ومعناه . وسواء أكان اسمه فى قول أهل النسب نقلا عن الكتب السابقة - « تارح » ، أو لم يكن ، فلا أثر له فى وجوب الإيمان بصدق ما نص عليه القرآن ، وبدلالة لفظ « لأبيه » على معناه الوضعى فى اللغة . والقرآن هو المهيمن على ما قبله من كتب الأديان السابقة .

ثم يقطع كل شك ، ويذهب بكل تأويل - الحديث الصحيح الذى رواه البخارى (٤ : ١٣٩ من الطبعة السلطانية / ٦ : ٢٧٦ من فتح البارى) : « عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : يلقى إبرهيمُ أباه آزَرَ يومَ القيامة ، وعلى وجه آزَرَ قَتَرَةٌ وغَبَرَةٌ ، فيقول له إبرهيم : أَلَمْ أَقُلْ لك : لا تَعْصِنِى ؟ » - إلى آخر الحديث . وليس بعد هذا النص مجال للتلاعب .

واختلف القراء فى أداء قوله تعالى " وإذ قال إبرهيم لأبيه آزر " فحكى ابن جرير عن الحسن البصرى وأبى يزيد المدنى أنهما كانا يقرآن " وإذ قال إبرهيم لأبيه آ زرُ أتتخذ أصناماً آ لهة " معناه : يا آزرُ أتتخذ أصناماً آ لهة . وقرأ الجمهور بالفتح ، إما على أنه علم أعجمى لا ينصرف ، وهو بدل من قوله ، " لأبيه " أو عطف بيان ، وهو أشبه . وعلى قول من جعله نعتاً لا ينصرفُ أيضاً كأحمر وأسود . فأما من زعم أنه منصوب لكونه معمولا لقوله " أتتخذ أصناماً " تقديره : يا أبت أتتخذ أزرَ أصناماً آ لهة ! فإنه قول بعيد فى اللغة ، فإن ما بعد حرف الاستفهام لا يعمل فيما قبله ، لأن له صدر الكلام . كذا قرره ابن جرير وغيره . وهومشهور فى قواعد العربية . والمقصود : أن إبرهيم عليه السلام وعظ أباه فى عبادة الأصنام وزجره عنها ونهاه فلم ينته ، كما قال " وإذ قال إبرهيم لأبيه آزرَ أتتخذُ أصناماً آ لهة " أى : أتتأله لصنم تعبده من دون الله ؟ " إنى أراك وقومك " أى : السالكين مسلكك " فى ضلال مبين " أى : تائهين لا تهتدون أين تسلكون ، بل فى حيرة وجهل ، وأمركم فى الجهالة والضلال بينٌ واضح لكل ذى عقل صحيح . وقال تعالى : ﴿ واذكر فى الكتاب إبرهيم إنه كان صدّيقاً نبيًّا * إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً * يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك ، فاتبعنى أهدك صراطاً سويًّا * يا أبت لا تعبد الشيطان ، إن الشيطان كان للرحمن عصيًّا * يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليًّا * قال أراغب أنت عن آ لهتى يا إبرهيم ، لئن لم تنته لأرجمنك ، واهجرنى مليًّا * قال سلام عليك ، سأستغفر لك ربى ، إنه كان بى حفيًّا * وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى ، عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيًّا ﴾ . فكان إبرهيم عليه السلام يستغفر لأبيه مدة حياته ، فلما مات على الشرك وتبين إبرهيمُ ذلك رجع عن الاستغفار له وتبرأ منه ، كما قال تعالى : ﴿ وما كان

وقد فصلت تحقيق هذه المسئلة فى بحث مسهب ، ألحقته بكتاب المعرب للجواليق – بتحقيق – طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٦١ ، ص : ٣٥٩ – ٣٦٥ .

استغفار إبرهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدوٌّ لله تبرأ منه ، إن إبرهيم لأوّاهٌ حليم ﴾ . وثبت فى الصحيح : « أن إبرهيم يلقى أباه آزرَ يوم القيامة فيقول له آزر : يا بنيَّ ، اليومَ لا أعصيك ، فيقول إبرهيم : أىْ رب ، ألم تعدنى أنك لا تخزينى يوم الدين ؟ وأىُّ خزى أخزَى من أبى الأبعد ؟ فيقال : يا إبرهيم ، انظر ما وراءك ، فإذا هو بذيح متطلخ ، فيؤخذُ بقوائمه فيلقى فى النار »[1]. وقوله " وكذلك نرى إبرهيم ملكوت السموات والأرض " أى : نبين له وجه الدلالة – فى نظره إلى خلقهما – على وحدانية الله عز وجل فى ملكه وخلقه ، وأنه لا إله غيره ولا ربّ سواه . كما قال تعالى : ﴿ قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ﴾ . وقال : ﴿ أفلم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض ﴾ . وقال : ﴿ أفلم يروا ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء الأرض ، إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء ، إن فى ذلك لآيةً لكل عبد منيب ﴾ . ويحتمل أن يكون هذا كشفٌ له عن بصره ، حتى رأى ذلك عياناً ، ويحتمل أن يكون عن بصيرته ، حتى شاهده بفؤاده ، وتحققه وعرفه ، وعلم ما فى ذلك من الحكم الباهرة والدلالات القاطعة . كما رواه الإمام أحمد والترمذى وصححه ، عن معاذ بن جبل فى حديث المنام : « أتانى ربى فى أحسن صورة ، فقال : يا محمد ، فيمَ يختصم الملأ الأعلى ؟ فقلت : لا أدرى يارب ، فوضع كفه بين كتفيَّ حتى وجدت بَرْدَ أنامله بين ثدييّ ، فتجلى لى كل شىء وعرفت » . وذكر الحديث [2]. وقوله " وليكون من الموقنين " قيل : الواو زائدة ، تقديره : وكذلك نرى إبرهيم ملكوت السموات والأرض ليكون من الموقنين . كقوله : ﴿ وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين ﴾ . وقيل : هى على بابها ، أى : نريه ذلك ليكون عالماً وموقناً . وقوله " فلما جن عليه الليل " أى : تغشاه وستره " رأى كوكباً " أى

---

(١) هو الحديث الذى أشرنا فى الهامشة السابقة إلى أنه رواه البخارى من حديث أبى هريرة والمؤلف اختصره هنا ، كأنه يحكيه بالمعنى .

(٢) المسند ٥ : ٢٤٣ (حلبى) . وانظر الطبرى : ١٣٤٦١ .

نجماً " قال هذا ربى ، فلما أفل " أى : غاب . قال ابن إسحق الأفول : الذهاب . وقال ابن جرير : يقال : «أفل النجم يأفُل و يأفِل أفولا وأفْلا» إذا غاب . ويقال : « أين أفَلْتَ عنا ؟ » بمعنى : أين غبت عنا " قال لا أحب الآفلين " قال قتادة : علم أن ربه دائم لا يزول " فلما رأى القمر بازغاً " أى : طالعاً " قال هذا ربى ، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين * فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى " أى : هذا الشىء الطالعُ ربى " هذا أكبر " أى : جِرماً من النجم ومن القمر ، وأكثرُ إضاءة " فلما أفلت " أى : غابت " قال يا قوم إنى برىء مما تشركون * إنى وجهت وجهى " أى : أخلصت دينى وأفردت عبادتى " للذى فطر السموات والأرض " أى : خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق " حنيفاً " أى : فى حال كونى حنيفاً ، أى : مائلا عن الشرك إلى التوحيد . ولهذا قال " وما أنا من المشركين " . وقد اختلف المفسرون فى هذا المقام : هل هو مقام نظر أو مناظرة ؟ فروى ابن جرير عن ابن عباس ما يقتضى أنه مقام نظر . واختاره ابن جرير . مستدلاً بقوله " لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ". والحق : أن إبرهيم عليه الصلاة والسلام كان فى هذا المقام مناظراً لقومه ، مبيناً لهم بطلانَ ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام ، فبيَّن فى المقام الأول مع أبيه خطأهم فى عبادة الأصنام الأرضية ، التى هى على صور الملائكة السماوية ، ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم ، الذى هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه ، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته ، ليشفعوا لهم عنده فى الرزق والنصر ، وغير ذلك مما يحتاجون إليه . وبين فى هذا المقام خطأهم وضلالهم فى عبادة الهياكل ، وهى : الكواكب السيارة السبعة المتحيرة ، وهى : القمر ، وعطارد ، والزهرة ، والشمس ، والمريخ ، والمشترى ، وزحل . وأشدّهن إضاءةً وأشرقهنّ عندهم : الشمس ثم القمر ثم الزهرة . فبين أولاً : أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية ، لأنها مسخرة مقدَّرة بسير معين ، لا تَزيغ عنه يميناً ولا شمالا ، ولا تملك لنفسها تصرفاً ، بل هى جِرْم من الأجرام خلقها الله منيرةً ، لما له فى ذلك من الحكمة العظيمة ، وهى تطلع من المشرق ، ثم تسير

فيما بينه وبين المغرب، حتى تغيب عن الأبصار فيه، ثم تبدو فى الليلة القابلة على هذا المنوال، ومثل هذه لا تصلح للإلهية. ثم انتقل إلى القمر، فبين فيه مثل ما بين فى النجم. ثم انتقل إلى الشمس كذلك. فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة، التى هى أنور ما تقع عليها الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع – " قال يا قوم إنى برىء مما تشركون " أى : أنا برىء من عبادتهن وموالاتهن، فإن كانت آلهة فكيدونى بها جميعاً ثم لا تنظرون " إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين " أى : إنما أعبد خالق هذه الأشياء ومخترعها ومسخرها ومقدِّرها ومدبرها، الذى بيده ملكوت كل شىء، خالق كل شىء وربه ومليكه وإلهه. كما قال تعالى : ﴿ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش، يغشى الليل والنهار يطلبه حثيثاً، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، ألا له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين ﴾. وكيف يجوز أن يكون إبرهيمُ الخليل ناظراً فى هذا المقام ؟ وهو الذى قال الله تعالى فى حقه : ﴿ ولقد آتينا إبرهيم رشده من قبل وكنا به عالمين * إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ﴾ – الآيات. وقال تعالى : ﴿ إن إبرهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين * شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم * وآتيناه فى الدنيا حسنة، وإنه فى الآخرة لمن الصالحين * ثم أوحينا إليك أن اتبعْ ملة إبرهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾. وقال تعالى : ﴿ قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم، ديناً قيماً ملة إبرهيم حنيفاً، وما كان من المشركين ﴾. وقد ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه قال : « كل مولود يولد على الفطرة ». وفى صحيح مسلم عن عياض بن حِمار، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله : إنى خلقت عبادى حنفاء »[1]. وقال الله فى كتابه العزيز : ﴿ فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق

---

(١) مضى الحديث بطوله ج ٤ ص ١١٥ .

الله ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ، قالوا بلى ﴾ . ومعناه على أحد القولين : كقوله : ﴿ فطرت الله التى فطر الناس عليها ﴾ . كما سيأتى بيانه . فإذا كان هذا فى حق سائر الخليقة ، فكيف يكون إبرهيم الخليل – الذى جعله الله أمةً قانتاً لله حنيفاً ولم يكُ من المشركين – ناظراً فى هذا المقام ؟ ! بل هو أولى الناس بالفطرة السلمية ، والسجية المستقيمة ، بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بلا شكٍّ ولا ريبٍ . ومما يؤيد أنه كان فى هذا المقام مناظراً لقومه فيما كانوا فيه من الشرك . لا ناظراً – قوله تعالى :

﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ، قَالَ أَتُحَـٰجُّونِّى فِى اللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ، وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْئًا، وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ، أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا ، فَأَىُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ، إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوٓا إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُولَـٰٓئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ، نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾ .

يقول تعالى : وجادله قومه فيما ذهب إليه من التوحيد، وناظروه بشُبَهٍ من القول – " قال أتحاجونى فى الله وقد هدان " أى : أتجادلوننى فى أمر الله وأنه لا إله إلا هو ؟ وقد بصرنى وهدانى إلى الحق ، وأنا على بينة منه ، فكيف ألتفت إلى أقوالكم الفاسدة وشبهكم الباطلة ؟ ! وقوله " ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئاً " أى : ومن الدليل على بطلان قولكم فيما ذهبتم إليه : أن هذه الآلهة التى تعبدونها لا تؤثر شيئاً ، وأنا لا أخافها ولا أباليها ، فإن كان لها صنعٌ فكيدونى بها ولا تُنْظِرُونى ، بل عاجلونى بذلك . وقوله " إلا أن يشاء ربى شيئاً " استثناء منقطع ، أى : لا يضر ولا ينفع إلا الله عز وجل.

" وسع ربى كل شىء علماً " أى : أحاط علمه بجميع الأشياء ، فلا يخفى عليه خافية " أفلا تتذكرون " أى : فيما بينته لكم ، فتعتبرون أن هذه الآلهة باطلة فتنزجروا عن عبادتها . وهذه الحجة نظير ما احتج به نبى الله هود عليه السلام على قومه عادٍ ، فيما قص عنهم فى كتابه ، حيث يقول : ﴿ قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين * إن نقول إلا اعتراك بعضُ آلهتنا بسوءٍ ،قال إنى أُشْهِد اللهَ واشْهَدُوا أنى برىء مما تشركون * من دونه فكيدونى جميعاً ثُمَّ لا تُنْظِرون * إنى توكلت على الله ربى وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها، إن ربى على صراط مستقيم ﴾ . وقوله " وكيف أخاف ما أشركتم " أى : كيف أخاف من هذه الأصنام التى تعبدونها من دون الله " ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطاناً " قال ابن عباس وغير واحد من السلف : أى : حجةً . وهذا كما قال تعالى : ﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾ . وقال : ﴿ إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ، ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ . وقوله " فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون " أى : فأى الطائفتين أصوب ؟ الذى عبد من بيده الضرّ والنفع ، أو الذى عبد من لا يضر ولا ينفع بلا دليل ؟ أيهما أحق بالأمن من عذاب الله يوم القيامة ؟ قال الله تعالى " الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون " أى : هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له ولم يشركوا به شيئاً ، هم الآمنون يوم القيامة ، المهتدون فى الدنيا والآخرة . روى البخارى عن عبد الله ، قال : « لما نزلت " ولم يلبسوا إيمانهم بظلم" — قال أصحابه : وأينا لم يظلم نفسه ؟ فنزلت : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ »(١) . وروى الإمام أحمد عن عبد الله ، قال : « لما نزلت هذه الآية " الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم " شقّ ذلك على الناس ، فقالوا : يا رسول الله ، أينا لم يظلم نفسه ؟ قال : إنه ليس الذى تعنون ، ألم تسمعوا ما

---

(١) البخارى ٨ : ٢٢١ (فتح) .

قال العبد الصالح : ﴿ يا بنى لا تشرك بالله ، إن الشرك لظلم عظيم ﴾ ، إنما هو الشرك »[1]. وقوله " وتلك حجتنا آتيناها إبرهيم على قومه " أى : وجهنا حجته على قومه . قال مجاهد وغيره : يعنى بذلك قوله " وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً ، فأى الفريقين أحق بالأمن ، إن كنتم تعلمون " وقد صدقه الله وحكم له بالأمن والهداية ، فقال " الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون " ثم قال بعد ذلك كله " وتلك حجتنا آتيناها إبرهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء " قرئ بالإضافة ، وبلا إضافة ، كما فى سورة يوسف ، وكلاهما قريب فى المعنى . وقوله " إن ربك حكيم " أى : حكيم فى أقواله وأفعاله " عليم " أى : بمن يهديه ومن يضله وإن قامت عليه الحجج والبراهين . كما قال : ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ . ولهذا قال ههنا " إن ربك حكيم عليم " .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ، كُلًّا هَدَيْنَا ، وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ، وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ، كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ، وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ، وَٱجْتَبَيْنَـٰهُمْ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ، وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ، فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ، فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ، قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ .

---

(١) المسند : ٣٥٨٩ . وفصلنا تخريجه هناك . ورواه الطبرى بنحوه : ١٣٤٧٦ – ١٣٤٨٠ .

يخبر تعالى أنه وهب لإبرهيم إسحق بعد أن طعن فى السن وأيس هو وامرأته سارة من الولد ، فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط ، فبشروهما بإسحق ، فتعجبت المرأة من ذلك ، وقالت : ﴿ يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخاً ، إن هذا لشىء عجيب * قالوا أتعجبين من أمر الله ، رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ، إنه حميد مجيد ﴾ . وبشروهما مع وجوده بنبوته ، وبأن له نسلا وعقباً ، كما قال : ﴿ وبشرناه بإسحق نبيًّا من الصالحين ﴾ . وهذا أكمل فى البشارة ، وأعظم فى النعمة . وقال : ﴿ فبشرناه بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب ﴾ . أى : ويولد لهذا المولود ولد فى حياتكما ، فتقرّ أعينكما به كما قرتْ بوالده ، فإن الفرح بولد الولد شديد ، لبقاء النسل والعقب . ولما كان ولد الشيخ والشيخة قد يُتوهم أنه لا يعقب لضعفه ، وقعت البشارة به وبولده باسم « يعقوب » الذى فيه اشتقاق العقب والذرية . وكان هذا مجازاةً لإبرهيم عليه السلام حين اعتزل قومه وتركهم ، ونزح عنهم وهاجر من بلادهم ذاهباً إلى عبادة الله فى الأرض ، فعوضه الله عز وجل عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه على دينه ، لتقرَّ بهم عينه . كما قال : ﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحق ويعقوب ، وكلا جعلنا نبيًّا ﴾ . وقال ههنا " ووهبنا له إسحق ويعقوب ، كلا هدينا " . وقوله " ونوحاً هدينا من قبل " أى : من قبله هديناه كما هديناه ، ووهبنا له ذرية صالحة ، وكل منهما له خصوصية عظيمة : أما نوح عليه السلام ، فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به ، وهم الذين صحبوه فى السفينة ، جعل الله ذريته هم الباقين ، فالناس كلهم من ذرية نوح . وكذلك الخليل إبرهيم عليه السلام ، لم يبعث الله عز وجعل بعده نبيًّا إلا من ذريته . كما قال تعالى : ﴿ وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب ﴾ — الآية . وقال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً وإبرهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب ﴾ . وقال تعالى ﴿ أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ، ومن ذرية إبرهيم وإسرائيل ، وممن هدينا واجتبينا ، إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا

سجداً وبكيًّا ﴾ . وقوله فى هذه الآية الكريمة " ومن ذريته " أى : وهدينا من ذريته داود وسليمان ، الآية . وعود الضمير إلى نوح ، لأنه أقرب المذكورين – ظاهر لا إشكال فيه . وهو اختيار ابن جرير . وعوده إلى إبرهيم ، لأنه الذى سيق الكلام من أجله – حسن ، لكن يشكل على ذلك لوط ، فإنه ليس من ذرية إبرهيم، بل هو ابن أخيه هاران بن آزر . اللهم إلا أن يقال : إنه دخل فى الذرية تغليباً ، كما فى قوله : ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى ، قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبرهيم وإسمعيل وإسحق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون ﴾ . فإسمعيل عمه دخل فى آبائه تغليباً . وكما فى قوله : ﴿ فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس ﴾ . فدخل إبليس فى أمر الملائكة بالسجود ، وذُمَّ على المخالفة ، لأنه كان قد تشبه بهم ، فعومل معاملتهم ، ودخل معهم تغليباً ، وإلا فهو كان من الجن ، وطبيعته من النار ، والملائكة من نور . وفى ذكر عيسى عليه السلام فى ذرية إبرهيم أو نوح – على القول الآخر – دلالةٌ على دخول ولد البنات فى ذرية الرجل ، لأن عيسى عليه السلام إنما ينتسب إلى إبرهيم عليه السلام بأمه مريم عليها السلام ، فإنه لا أب له . روى ابن أبى حاتم عن أبى حرب بن أبى الأسود ، قال : أرسل الحجاج إلى يحيى بن يعمر ، فقال : بلغنى أنك تزعم أن الحسن والحسين من ذرية النبى صلى الله عليه وسلم تجده فى كتاب الله ؟ وقد قرأته من أوله إلى آخره فلم أجده ! قال : أليس تقرأ سورة الأنعام " ومن ذريته داود وسليمان " حتى بلغ " ويحيى وعيسى " ؟ قال : بلى ، أليس عيسى من ذرية إبرهيم وليس له أب ؟ قال : صدقت . فلهذا إذا وصَّى الرجل لذريته أو وقف على ذريته أو وهبهم – دخل أولاد البنات فيهم . فأما إذا أعطى الرجل بنيه أو وقف عليهم – فإنه يختص بذلك بنوه لصلبه وبنو بنيه . واحتجوا بقول الشاعر العربى :

بَنُونَا بنو أبنائنا ، وبناتُنَا بَنُوهُنَّ أبناء الرجال الأجانب

وقال آخرون : ويدخل بنو البنات فيهم أيضاً . لما ثبت فى صحيح البخارى :

« أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للحسن بن على : إن ابنى هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين »[١]. فسماه ابناً ، فدل على دخوله فى الأبناء . وقال آخرون : هذا تجوز . وقوله " ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم " ذكر أصولهم وفروعهم ، وذوى طبقتهم ، وأن الهداية والاجتباء شملهم كلهم . ولهذا قال " واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم " ثم قال " ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده " أى : إنما حصل لهم ذلك بتوفيق الله لهم وهدايته إياهم " ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون " تشديد لأمر الشرك وتغليظ لشأنه وتعظيم لملابسته . كما قال تعالى : ﴿ ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركتَ ليحبطنّ عملك ﴾ — الآية ، وهذا شرط ، والشرط لا يقتضى جواز الوقوع . كقوله : ﴿ قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ﴾ . وكقوله : ﴿ ولو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين ﴾ . وكقوله : ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء ، سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾ . وقوله " أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوّة " أى أنعمنا عليهم بذلك رحمةً للعباد بهم ولطفاً منا بالخليقة " فإن يكفر بها " أى : بالنبوة ، ويحتمل أن يكون الضمير عائداً على هذه الأشياء الثلاثة : الكتاب والحكم والنبوة . وقوله " هؤلاء " يعنى : أهل مكة . قاله ابن عباس وسعيد بن المسيب وقتادة وغير واحد " فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين " أى : إن يكفر بهذه النعم من كفر بها ، من قريش وغيرهم من سائر أهل الأرض ، من عرب وعجم ومليين وكتابيين — : فقد وكلنا بها قوماً ، يعنى : المهاجرين والأنصار وأتباعهم إلى يوم القيامة " ليسوا بها بكافرين " أى : لا يجحدون منها شيئاً ، ولا يردون منها حرفاً واحداً ، بل يؤمنون بجميعها ، محكمها ومتشابهها ، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه وإحسانه . ثم قال تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً صلى الله عليه وسلم "أولئك" يعنى : الأنبياء المذكورين مع من أضيف إليهم من الآباء والذرية والإخوان ،

---

(١) البخارى ٥ : ٢٢٥ (فتح) – فى حديث لأبى بكرة .

وهم الأشباه " الذين هدى الله " أى : هم أهل الهداية لا غيرهم " فبهداهم اقتده " أى : اقتدِ واتبعْ . وإذا كان هذا أمراً للرسول صلى الله عليه وسلم فأمته تبع له فيما يشرعه ويأمرهم به . وقوله " قل لا أسألكم عليه أجراً " أى : لا أطلب منكم على إبلاغى إياكم هذا القرآن أجرةً ، ولا أريد منكم شيئاً " إنْ هو إلا ذكرى للعالمين " أى : يتذكروا به ، فيرشدوا من العمى إلى الهدى ، ومن الغى إلى الرشاد ، ومن الكفر إلى الإيمان .

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ، قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ . تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً ، وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ، قُلِ اللَّهُ ، ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١) وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩٢) ﴾ .

يقول تعالى : وما عظموا الله حقَّ تعظيمه ، إذ كذبوا رسله إليهم . قال ابن عباس ومجاهد : نزلت فى قريش . واختاره ابن جرير . وقيل : نزلت فى طائفة من اليهود . وقيل : فى فنحاص رجل منهم . وقيل : فى مالك بن الصيف ، قالوا : ما أنزل الله على بشر من شىء . والأول أصح ، لأن الآية مكية ، واليهود لا ينكرون إنزال الكتب من السماء ، وقريش والعرب قاطبة كانوا يُبعدون إرسال رسولٍ من البشر . كما قال : ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذْ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا * قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولا ﴾ . وقال ههنا " وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء " . قال الله تعالى "قل" أى : قل يا محمد لهؤلاء المنكرين لإنزال شىء من الكتب من عند الله ، فى جواب سلبهم العام ، بإثبات قضية جزئية موجبة ـ : "من أنزل الكتاب

الذى جاء به موسى " يعنى : التوارة ، التى قد علمتم وكل أحد أن الله قد أنزلها على موسى بن عمران " نوراً وهدى للناس " أى : ليستضاء بها فى كشف المشكلات ، ويهتدى بها من ظُلَم الشبهات . وقوله " يجعلونه[١] قراطيس يُبدونها ويُخفون كثيراً " أى يجعلون جملتها قراطيس ، أى : قطعاً قطعاً ، يكتبونها من الكتاب الأصلى الذى بأيديهم ، ويُحرفون منها ما يُحرفون ، ويبدلون ويتأولون ، ويقولون : هذا من عند الله ، أى : فى كتابه المنزل ، وما هو من عند الله . ولهذا قال " يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً " [١] . وقوله تعالى " وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم " أى : ومن أنزل القرآن الذى علمكم الله فيه من خبَر ما سبق ونبأ ما يأتى ، ما لم تكونوا تعلمون ذلك ، لا أنتم ولا آباؤكم . وقد قال قتادة : هؤلاء مشركو العرب . وقال مجاهد : هذه للمسلمين . وقوله " قل الله " قال ابن عباس : أى : قل الله أنزله . وهذا الذى قاله ابن عباس هو المتعين فى تفسير هذه الكلمة ، لا ما يقوله بعض المتأخرين من أن المعنى " قل الله " أى : لا يكون خطابك هم إلا هذه الكلمة ، « الله » . وهذا الذى قاله هذا القائل يكون أمراً بكلمة مفردة من غير تركيب ، والإتيان بكلمة مفردة لا يفيد فى لغة العرب فائدةً يحسن السكوت عليها [٢] . وقوله " ثم ذرهم

---

(١) من أول قوله « وقوله " يجعلونه " » — إلى هنا — أثبتنا الأفعال « يجعلونه » و « يبدونها » و « يخفون » ، والأفعال فى كلام الحافظ ابن كثير فى تفسير الآية — بياء الغائب فى المضارعة ، دون تاء المخاطب ، لأن هذا هو الثابت فى المخطوطتين . وهى قراءة ابن كثير — القارئ — وأبى عمرو « بالغيب فى الثلاثة ، على إسناده للكفار » . ووافقهم ابن محيصن واليزيدى . وقرأ باقى الأربعة عشر « تجعلونه » — إلخ بتاء المخاطب ، وهى قراءة حفص الثابتة فى مصاحفنا . وكذلك قول ابن كثير « من الكتاب الأصلى الذى بأيديهم » — هو الثابت فى المخطوطتين . وثبت فى المطبوعة « بأيديكم » . وهو المناسب لقراءة تاء الخطاب . وإنما رجحنا إثبات ما فى المخطوطتين لأنه هو الذى يستقيم وما ذهب إليه الحافظ ابن كثير — تبعاً الطبرى — أن الآية نزلت فى قريش ، فيكون الخبر عن اليهود بياء الغائب . وقد رجح الطبرى القراءة بياء الغائب ، وحكى أنها قراءة مجاهد أيضاً (١١ : ٥٢٥ — ٥٢٦) . بل جعلها « الأصوب من القراءة » : « أن يكون بالياء ، لا بالتاء . على معنى : أن اليهود يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً . ويكون الخطاب بقوله " قل من أنزل الكتاب " لمشركى قريش » . هذا نص كلامه .

(٢) هذا هو الحق . وهو يدل على بطلان ما يتلاعب به بعض المتصوفة ، بالذكر بكلمات مفردة من أسماء الله عز وجل .

فى خوضهم يلعبون " أى : ثم دعهم فى جهلهم وضلالهم يلعبون ، حتى يأتيهم من الله اليقين ، فسوف يعلمون : ألهم العاقبةُ أم لعباد الله المتقين ؟ وقوله " وهذا كتاب " يعنى : القرآن " أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى " يعنى : مكة " ومن حولها " من أحياء العرب ومن سائر طوائف بنى آدم من عرب وعجم . كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً ﴾ . وقال : ﴿ لأنذركم به ومن بلغ ﴾ . وقال : ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾ . وقال : ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾ . وقال : ﴿ وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ، فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد ﴾ . وثبت فى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أعطيتُ خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى — وذكر منهن — وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبُعثتُ إلى الناس عامةً »[١] . ولهذا قال " والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به " أى : كل من آمن بالله واليوم الآخر يؤمن بهذا الكتاب المبارك الذى أنزلناه إليك يا محمد ، وهو القرآن " وهم على صلاتهم يحافظون " أى : يقيمون بما افترض عليهم من أداء الصلوات فى أوقاتها .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ، وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ، ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ، وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ

---

(١) رواه الشيخان وغيرهما . فى حديث مطول ، من حديث جابر . انظر الفتح الكبير ١ : ١٩٩ .

زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَـٰٓؤُا ، لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤) ﴾ .

يقول تعالى " ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً " أى : لا أحد أظلم ممن كذب على الله فجعل له شريكاً أو ولداً ، أو ادعى أن الله أرسله إلى الناس ولم يرسله . ولهذا قال تعالى " أو قال أوحى إلىّ ولم يُوحَ إليه شىء " قال عكرمة وقتادة : نزلت فى مسيلمة الكذاب " ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله " يعنى : أو من ادعى أنه يعارض ما جاء من عند الله من الوحى مما يفتريه من القول . كما قال تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا ، لو نشاء لقلنا مثل هذا ، إنْ هذا إلا أساطير الأولين ﴾ . قال الله تعالى " ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت " أى : فى سَكَرَاته وغمراته وكرباته " والملائكة باسطو أيديهم " أى : بالضرب . كما قال : ﴿ لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ﴾ — الآية . وقال : ﴿ ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء ﴾ — الآية . قال الضحاك وأبو صالح " باسطو أيديهم " أى : بالعذاب . وكما قال : ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ . ولهذا قال " والملائكة باسطو أيديهم " أى : بالضرب لهم ، حتى تخرج أنفسهم من أجسادهم . ولهذا يقولون لهم " أخرجوا أنفسكم " وذلك : أن الكافر إذا احتضر بشرته الملائكة بالعذاب والنكال ، والأغلال والسلاسل ، والجحيم والحميم ، وغضب الرحمن الرحيم ، فتتفرق روحه فى جسده ، وتعصى وتأبى الخروج ، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم ، قائلين لهم " أخرجوا أنفسكم ، اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق " — الآية . أى : اليوم تهانون غاية الإهانة ، كما كنتم تكذبون على الله ، وتستكبرون عن اتباع آياته والانقياد لرسله . وقد وردت الأحاديث المتواترة فى كيفية احتضار المؤمن والكافر عند الموت ، وهى مقررة عند قوله تعالى : ﴿ يثبت الله

الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ﴾[١]. وقوله "ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة" أى : يقال لهم يوم معادهم هذا . كما قال : ﴿ وعرضوا على ربك صفًّا ، لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ﴾ . أى : كما بدأناكم أعدناكم ، وقد كنتم تنكرون ذلك وتستبعدونه ، فهذا يوم البعث . وقوله " وتركتم ما خولناكم " أى : من النعم والأموال التى اقتنيتموها فى الدار الدنيا " وراء ظهوركم " . وثبت فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يقول ابن آدم : مالى مالى ! وهل لك من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ ، أو لبست فأبليتَ ، أو تصدقتَ فأمضيتَ ، وما سوى ذلك فذاهبٌ وتاركه للناس »[٢]. وقوله " وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء " تقريع لهم وتوبيخ على ما كانوا اتخذوا فى الدنيا من الأنداد والأصنام والأوثان ، ظانين أنها تنفعهم فى معاشهم ومعادهم إن كان ثَمَّ معاد، فإذا كان يوم القيامة تقطعت بهم الأسباب ، وانزاح الضلال ، وضل عنهم ما كانوا يفترون ، ويناديهم الرب جل جلاله على رؤس الخلائق : ﴿ أين شركائى الذين كنتم تزعمون ﴾ . ﴿ وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون * من دون الله ، هل ينصرونكم أو ينتصرون ﴾ . ولهذا قال ههنا " وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء " أى : فى العبادة ، لهم فيكم قسط فى استحقاق العبادة لهم . ثم قال تعالى " لقد تقطع بينكم " قرئ بالرفع ، أى : شملُكم . وبالنصب ، أى : لقد تقطع ما بينكم من الوصلات والأسباب والوسائل " وضل عنكم " أى : ذهب عنكم "ما كنتم تزعمون " من رجوى الأصنام . كما قال : ﴿ إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب * وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا ، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم ، وما هم بخارجين من النار ﴾ . وقال : ﴿ فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾ . وقال : ﴿ إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم

---

(١) الآية : ٢٧ من سورة إبرهيم .

(٢) رواه مسلم ٢ : ٣٨٣ - ٣٨٤ من حديث عبد الله بن الشخير . وكذلك رواه أحمد والترمذى والنسائى . وقد مضى ج ٢ ص ٨٢ .

فى الحياة الدنيا ، ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ، ومأواكم النار ، وما لكم من ناصرين ﴾ . وقال : ﴿ وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ﴾ — الآية . وقال تعالى : ﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم ، فزيّلنا بينهم ، وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون * فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم ، إن كنا عن عبادتكم لغافلين * هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت ، وردوا إلى الله مولاهم الحق ، وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ . والآيات فى هذا كثيرة جداً .

ربع ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ، يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ، ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ، فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ، ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ (٩٦) وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ، قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) ﴾ .

يخبر تعالى أنه " فالق الحب والنوى " أى : يشقه فى الثرى ، فتنبت منه الزروع على اختلاف أصنافها من الحبوب والثمار ، ومن اختلاف ألوانها وأشكالها وطعومها — من النوى . ولهذا فسر قوله " فالق الحب والنوى " بقوله " يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى " أى : يخرج النبات الحى من الحب والنوى الذى كالجماد الميت . كما قال : ﴿ وآيةٌ لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبًّا فمنه يأكلون * وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون * ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم ، أفلا يشكرون * سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ﴾ . وقوله " ومخرج الميت من الحى " معطوف على " فالق الحب والنوى " ثم فسره ثم عطف عليه قوله " ومخرج الميت من الحى " وقد عبروا عن هذا وهذا بعبارات كلها متقاربة مؤدية للمعنى . فمن قائل : يخرج الدجاجة من البيضة والبيضة من الدجاجة ، ومن قائل: يخرج الولد الصالح من الكافر والكافر من الصالح ،

وغير ذلك من العبارات التى تنتظمها الآية وتشملها . ثم قال تعالى " ذلكم الله " أى : فاعل هذا هو الله وحده لاشريك له " فأنى تؤفكون " أى : كيف تصرفون عن الحق وتعدلون عنه إلى الباطل ، فتعبدون معه غيره ؟ ! وقوله " فالق الإصباح وجاعل الليلِ سكناً "[١] أى : خالق الضياء والظلام ، كما قال فى أول السورة : ﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾ فهو سبحانه يفلق ظلام الليل عن غُرة الصباح ، فيضىء الوجودُ ويستنير الأفق ، ويضمحل الظلام ، ويذهب الليل بَدَآدِئِهِ وظلام رواقه[٢] ، ويجىء النهار بضيائه وإشراقه .

---

(١) " وجاعل الليل " – قراءة عاصم وحمزة والكسائى وخلف والأعمش " وجعل الليل " بصيغة الفعل الماضى ونصب " الليل " مفعولا . وهى قراءة حفص عن عاصم الثابتة فى مصاحف مصر ، وقرأ باقى الأربعة عشر " وجاعل الليل " بصيغة اسم الفاعل وجر " الليل " بالإضافة . وهى الثابتة فى المخطوطتين من ابن كثير هنا ، فأثبتناها كذلك . والقراءتان صحيحتان .

(٢) قوله « بدآدئه » : بفتح الدال الأولى وبعدها ألف ممدودة ثم دال مكسورة ثم همزة مكسورة . وقد رسمت فى المخطوطة العتيقة هكذا : « بداديه » ، ورسمت فى المخطوطة الأزهرية هكذا « بداءديه » . أما الهمزة فى الأزهرية فوضعها خطأ من الناسخ ، موضعها الصحيح قبل الألف ، لتقرأ ألفاً ممدودة . وأما الياء بعد الدال الثانية فيهما ، فهكذا ترسم الهمزة المكسورة التى تكتب على ياء فى الخطوط القديمة ، كلها أو أكثرها . حتى فى ألفاظ القرآن . مثلا لفظ « بارئكم » فى الآية ٥٤ من سورة البقرة مكرراً مرتين ، رسم فى المخطوطة الأزهرية (١ : ١٤٦) فى المرتين « باريكم » . وتسهيل هذه الهمزة إلى ياء فصيح صحيح فى لغة العرب . ولم يحسن طابعو تفسير ابن كثير قراءة هذه الكلمة ، فاستسهلوا تغييرها ، فجعلوها « بسواده » ! وما أبعد ما بين الحرفين فى الرسم ! !

وأما معناها ، فالمراد بها شدة الظلام فى آخر الشهر . وأصل الحرف فى نص لسان العرب (مادة : دأدأ) ، قال :

« والدَّأْدَاء والدُّؤْدُؤُ والدُّوْدَاء والدَّيْدَاء : آخر أيام الشهر . قال :

نحنُ أجَزْنَا كلَّ ذَيَّالٍ قَتِرْ فى الحجِّ مِنْ قَبْلِ دَآدِى المُؤْتَمِرْ

أراد : دَآدِئَ المُؤْتَمِر ، فأبدل الهمزة ياء ثم حذفها لالتقاء الساكنَيْن . قال الأعشى :

تَدَارَكَهُ فى مُنْصِلِ الالِّ بَعْدَ مَا مَضَى غَيْرَ دَأْدَاءٍ وقد كَادَ يَعْطَبُ

قال الأزهرى : أراد أنه تداركه فى آخر ليلة من ليالى رجب . وقيل : الدَّأْدَاء

كما قال : ﴿ يُغشى الليلَ النهارَ يطلبه حثيثاً ﴾ . فبين تعالى قدرته على خلق الأشياء المتضادة المختلفة ، الدالة على كمال عظمته وعظيم سلطانه ، فذكر أنه فالق الإصباح ، وقابل ذلك بقوله " وجاعل الليل سكناً " أى : ساجياً مظلماً تسكن فيه الأشياء . كما قال : ﴿ والضحى والليل إذا سجى ﴾ . وقال : ﴿ والليل إذا يغشى * والنهار إذا تجلى ﴾ . وقال : ﴿ والنهار إذا جلاها * والليل إذا يغشاها ﴾ . وقال صهيب الرومى لامرأته – وقد عاتبته فى كثرة سهره – : إن الله جعل الليل سكناً إلا لصهيب ، إن صهيباً إذا ذكر الجنة طال شوقه ، وإذا ذكر النار طار نومه . رواه ابن أبى حاتم . وقوله " والشمس والقمر حسباناً " أى : يجريان بحساب مقنَّن مقدَّر ، لا يتغير ولا يضطرب ، بل كل منهما له منازل يسلكها فى الصيف والشتاء ، فيترتب على ذلك اختلاف الليل والنهار طولا وقصراً . كما قال : ﴿ هو الذى جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدره منازل ﴾ – الآية . وكما قال : ﴿ لاالشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون ﴾ . وقال : ﴿ والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ﴾ . وقوله " ذلك تقدير العزيز العليم " أى : الجميع جارٍ بتقدير العزيز الذى لا يمانَع ولا يخالَف ، العليم بكل شىء ، فلا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى

والدِّئْدَاء ليلة خمس وست وسبع وعشرين . وقال ثعلب : العرب تسمى ليلة ثمان وعشرين وتسع وعشرين : الدَّآدِئَ ، والواحد : دَأْدَاءَةٌ . وفى الصحاح : الدَّآدِئُ ثلاث ليال من آخر الشهر قَبْل ليالى المِحَاق ، والمحاق آخرُها ، وقيل: هِيَ هِيَ . أبو الهيثم : الليالى الثلاثُ التى بعدَ المِحَاق سُمِّينَ دَ آدِئَ ، لأن القمر فيها يُدَأْدِئُ إلى الغُيُوب . أى يُسرع ، من دَأْدَأَةِ البعير . وقال الأصمعى : فى ليالى الشهر ثلاثٌ مِحَاقٌ ، وثلاثٌ دَآدِئُ ، قال : والدَّآدِئُ الأواخر ، وأَنْشَدَ :

أَبْدَىْ لَنَا غُرَّةَ وَجْهٍ بَادِي كزُهْرَةِ النُّجومِ فى الدَّآدِى » .

السماء . وكثيراً ما إذا ذكر تعالى خلق الليل والنهار والشمس والقمر يختم الكلام بالعزة والعلم ، كما ذكر فى هذه الآية ، وكما فى قوله : ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون * والشمس تجرى لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ . ولما ذكر خلق السموات والأرض وما فيهن فى أول سورة حم السجدة قال : ﴿ وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ، ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ . وقوله " وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر " قال بعض السلف : من اعتقد فى هذه النجوم غير ثلاث فقد أخطأ وكذب على الله : أن الله جعلها زينةً للسماء ، ورجوماً للشياطين ، ويهتدى بها فى ظلمات البر والبحر . وقوله " قد فصلنا الآيات " أى : قد بيناها ووضحناها " لقوم يعلمون " أى : يعقلون ويعرفون الحق ويتجنبون الباطل .

﴿ وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ، قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَهُوَ الَّذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ، انْظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩) ﴾ .

يقول تعالى " وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة " يعنى : آدم عليه السلام . كما قال : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيراً ونساء ﴾ وقوله " فمستقر ومستودع " اختلفوا فى معنى ذلك : فعن ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم " فمستقر " أى : فى الأرحام . قالوا أو أكثرهم " ومستودع " أى : فى الأصلاب . وعن ابن مسعود وطائفةٌ عكسه . وعن ابن مسعود أيضاً وطائفة :

فمستقر فى الدنيا ، ومستودع حيث يموت . والأول هو الأظهر . والله أعلم .
وقوله "قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون" أى : يفهمون ويَعُونَ كلام الله ومعناه .
وقوله " وهو الذى أنزل من السماء ماء " أى : بقدر ، مباركاً رزقاً للعباد ، غِيَاثاً للخلائق ، رحمةً من الله بخلقه " فأخرجنا به نبات كل شىء " كما قال : ﴿ وجعلنا من الماء كل شىء حىٍّ ﴾ . " فأخرجنا منه خضراً " أى : زرعاً وشجراً أخضر ، ثم بعد ذلك نخلق فيه الحبَّ والثمر . ولهذا قال " نخرج منه حبًّا متراكباً " أى : يركب بعضه بعضاً ، كالسنابل ونحوها " ومن النخل من طلعها قنوان" أى : جمع « قِنْوٍ » ، وهى عُذُوق الرطب " دانية " أى : قريبة من المتناول . كما قال ابن عباس : يعنى بالقنوان الدانية قِصَارَ النخل اللاصقة عذوقُها بالأرض . رواه ابن جرير . قال ابن جرير : وأهل الحجاز يقولون « قِنْوَان » ، وقيس يقولون «قُنْوَان» . قال امرؤ القيس :

فَأَثَّتْ أعاليه وآدَتْ أصولُهُ ومَالَ بِقِنْوَانٍ من البُسْرِ أحْمَرَا

قال : وتميم يقولون « قُنْيَان » بالياء . قال : وهى جمع « قنو » كما أن « صنوان » جمع « صِنْو » . وقوله " وجناتٍ من أعناب" أى : ونخرج منه جنات من أعناب . وهذان النوعان هما أشرف الثمار عند أهل الحجاز ، وربما كانا خيارَ الثمار فى الدنيا . كما امتنَّ الله بهما على عباده فى قوله : ﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سَكَراً ورزقاً حسناً ﴾ . وكان ذلك قبل تحريم الخمر ، وقال : ﴿ وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب ﴾ . وقوله " والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه " قال قتادة وغيرُه : يتشابه فى الورق ، قريب الشكل من بعضه بعض ، ويتخالف فى الثمار شكلاً وطعماً وطبعاً .
وقوله " انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه " أى : نُضجه . قاله البراء بن عازب وابن عباس وقتادة وغيرهم . أى : فكروا فى قدرة خالقه من العدم إلى الوجود ، بعد أن كان حطباً صار عنباً ورطباً ، وغيرَ ذلك مما خلق تعالى من الألوان والأشكال والطعوم والروائح . كما قال تعالى : ﴿ وفى الأرض قطع متجاوراتٌ وجناتٌ من أعناب وزرعٌ ونخيلٌ صنوانٌ وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضل

بعضها على بعض فى الأُكُل ، إن فى ذلك لآياتٍ لقوم يعقلون ﴾ . ولهذا قال ههنا " إن فى ذلكم " أيها الناس " لآياتٍ " أى : لدلالاتٍ على كمال قدرة خالق هذه الأشياء وحكمته ورحمته " لقوم يؤمنون " أى : يصدقون به ويتبعون رسله (١) .

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) ﴾ .

هذا ردّ على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره ، وأشركوا به فى عبادته : أنْ عبدوا الجن فجعلوهم شركاءَ له فى العبادة ، تعالى الله عن شركهم وكفرهم . فإن قيل : فكيف عُبدت الجنُّ مع أنهم إنما كانوا يعبدون الأصنام ؟ فالجواب : أنهم ما عبدوها إلا عن طاعة الجن وأمرهم إياهم بذلك . كما قال تعالى : ﴿ إنْ يدعون من دونه إلا إناثاً وإن يعبدون إلا شيطاناً مريداً * لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً * ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ، ومن يتخذ الشيطان وليًّا من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً * يعدهم ويمنيهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ﴾ . وقال تعالى : ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدوّ ، بئس للظالمين بدلاً ﴾ . وقال إبرهيم لأبيه : ﴿ يا أبت لا تعبد الشيطان ، إنّ الشيطان كان للرحمن عصيًّا ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا

(١) هنا بهامش المخطوطة العتيقة ما نصه : « آخر الجزء الأول من تفسير سورة الأنعام ، من خط المؤلف ، عفا الله عنه » .

وبهامش المخطوطة الأزهرية – ولكن بعد هذا الموضع بقليل – ما نصه : « آخر أول أجزاء المؤلف رحمه الله من هذه السورة . ومن هذه الآية ابتدأ بتعليق هذا التفسير إلى آخر القرآن العظيم . ثم فسر من سورة البقرة إلى ههنا . ووافق آخر التعليق يوم الجمعة رابع عِشْرِى ذى قعدة ، سنة إحدى وأربعين وسبع مائة . فكتب الجميع فى نحو أربع سنين » .

الشيطان، إنه لكم عدوّ مبين * وأن اعبدونى ، هذا صراط مستقيم ﴾ . وتقول الملائكة يوم القيامة : ﴿ سبحانك أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن ، أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ . ولهذا قال تعالى " وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم " أى : وقد خلقهم ، وهو الخالق وحده لا شريك له ، فكيف يعبد معه غيره ؟ ! كما قال إبرهيم عليه السلام : ﴿ أتعبدون ما تنحتون * والله خلقكم وما تعملون ﴾ . ومعنى الآية : أنه تعالى هو المستقلّ بالخلق وحده ، فلهذا يجب أن يُفرد بالعبادة وحده لا شريك له . وقوله " وخرقوا له بنين وبنات بغير علم " ينبه به تعالى على ضلال من ضل فى وصفه تعالى بأن له ولداً ، كما يزعم من قاله من اليهود فى العُزَيْر ، ومن قال من النصارى فى المسيح ، وكما قالت المشركون من العرب فى الملائكة أنها بنات الله ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيراً . ومعنى قوله " وخرقوا " أى : اختلقوا وائتفكوا وتخرصوا وكذبوا ، كما قاله علماء السلف . قال ابن جرير : فتأويل الكلام إذاً : وجعلوا لله الجنَّ شركاءَ فى عبادتهم إياه ، وهو المنفرد بخلقهم بغير شريكٍ ولا معينٍ ولا ظهيرٍ " وخرقوا له بنين وبنات بغير علمٍ " بحقيقة ما يقولون ، ولكن جهلاً بالله وبعظمته ، وأنه لا ينبغى لمن كان إلهاً أن يكون له بنون وبناتٌ ولا صاحبة ، ولا أن يَشْركه فى خلقه شريك . ولهذا قال " سبحانه وتعالى عما يصفون " أى : تقدّس وتنزّه وتعاظم عما يصفه هؤلاء الجهلة الضالون ، من الأولاد والأنداد والنظراء والشركاء .

﴿ بَدِيعُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ، أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ﴾ .

" بديع السموات والأرض " أى : مبدع السموات والأرض وخالقها ومنشؤها ومحدثها على غير مثال سبق ، كما قال مجاهد والسدى . ومنه سميت البدعة بدعةً ، لأنه لانظير لها فيما سلف " أنى يكون له ولد " أى : كيف يكون له ولد " ولم تكن له صاحبة " أى : والولد إنما يكون متولداً بين شيئين

متناسبين ، والله لا يناسبه ولا يشابهه شيء من خلقه ، لأنه خالق كل شيء ، فلا صاحبةَ له ولا ولد . كما قال تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً * لقد جئتم شيئاً إدًّا * تكاد السموات يتفطرن منه وتنشقّ الأرض وتخرّ الجبال هدًّا * أنْ دعَوْا للرحمن ولداً * وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً * إنْ كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمنِ عبداً * لقد أحصاهم وعدّهم عدًّا * وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾ . " وخلق كل شيء ، وهو بكل شيء عليم " فبين تعالى : أنه الذى خلق كل شيء ، وأنه بكل شيء عليم ، فكيف يكون له صاحبة من خلقه تناسبه ، وهو الذى لا نظير له ؟! فأنى يكون له ولد ؟! تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً .

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ، لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ، وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ (١٠٣) ﴾ .

يقول تعالى " ذلكم الله ربكم " أى : الذى خلق كل شيء ، ولا ولد له ولا صاحبة " لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه " أى : فاعبدوه وحده لا شريك له ، وأقروا له بالوحدانية ، وأنه لا إله إلا هو ، وأنه لا ولد له ولا والد ولا صاحبة له ولا نظير ولا عديل " وهو على كل شيء وكيل " أى : حفيظ ورقيب ، يدبر كل ما سواه ويرزقهم ويكلَؤُهم بالليل والنهار . وقوله تعالى : " لا تدركه الأبصار " فيه أقوال للأئمة من السلف : أحدها : لا تدركه فى الدنيا وإن كانت تراه فى الآخرة ، كما تواترت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من غير ما طريقٍ ثابت فى الصحاح والمسانيد والسنن ، كما قالت عائشة : « من زعم أن محمداً أبصر ربه فقد كذب ، فإن الله تعالى يقول " لا تدركه الأبصار " » . رواه ابن أبى حاتم ، وثبت فى الصحيح وغيره عن عائشة من غير وجه . وخالفها ابن عباس ، فعنه : إطلاق الرؤية ، وعنه : رآه بفؤاده مرتين . والمسئلة تذكر فى أول سورة النجم ، إن شاء الله .

وقال آخرون " لا تدركه الأبصار " أى : جميعها . وهذا مخصص بما ثبت من رؤية المؤمنين له فى الدار الآخرة . وقال آخرون من المعتزلة ــ بمقتضى ما فهموه من الآية : أنه لا يرى فى الدنيا ولا فى الآخرة . فخالفوا أهل السنة والجماعة فى ذلك ، مع ما ارتكبوه من الجهل بما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله . أما الكتاب ، فقوله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ . وقال تعالى عن الكافرين : ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ . قال الإمام الشافعى : فدل هذا على أن المؤمنين لا يحجبون عنه تبارك وتعالى . وأما السنة ، فقد تواترت الأخبار عن أبى سعيد وأبى هريرة وأنس وجريج وصهيب وبلال وغير واحد من الصحابة عن النبى صلى الله عليه وسلم : أن المؤمنين يرون الله فى الدار الآخرة فى العرصات وفى روضات الجنات . جعلنا الله تعالى منهم بمنه وكرمه ، آمين . وقال آخرون : لا منافاة بين إثبات الرؤية ونفى الإدراك ، فإن الإدراك أخصُّ من الرؤية ، ولا يلزم من نفى الأخص انتفاء الأعم . ثم اختلف هؤلاء فى الإدراك المنفى ، ما هو ؟ فقيل : معرفة الحقيقة ، فإن هذا لا يعلمه إلا هو وإن رآه المؤمنون . كما أن من رأى القمر فإنه لا يدرك حقيقته وكنهه وماهيته . فالعظيم أولى بذلك ، وله المثل الأعلى . وقال آخرون : المراد بالإدراك الإحاطة ، قالوا : ولا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية ، كما لا يلزم من عدم إحاطة العلم عدمُ العلم . قال تعالى : ﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾ . وفى صحيح مسلم : « لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك »[1] . ولا يلزم من هذا عدم الثناء ، فكذلك هذا . وروى ابن أبى حاتم عن عكرمة أنه قيل له " لا تدركه الأبصار " ؟ قال : ألستَ ترى السماء ؟ ! قال : بلى ، قال : فكلها ترى؟ ! وقال آخرون فى الآية بما رواه الترمذى وابن أبى عاصم فى كتاب السنة له وابن أبى حاتم وابن مردويه عن عكرمة قال : « سمعت ابن عباس يقول : رأى محمد ربه تبارك وتعالى ، فقلت : أليس الله يقول " لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار " ــ الآية ؟ فقال لى : لا أمَّ لك ! ذاك نوره

---

(١) صحيح مسلم ١ : ١٤٠ (بولاق) ، من حديث ، من رواية أبى هريرة عن عائشة .

الذى هو نوره ، إذا تجلى بنوره لا يدركه شىء — وفى رواية : لا يقوم له شىء » . قال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه[1]. وفى معنى هذا الأثر ما ثبت فى الصحيحين من حديث أبى موسى الأشعرى ، مرفوعاً : « إن الله لاينام ، ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يُرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل ، حجابه النور — أو النار — لو كشفه لأحرقت سُبُحَاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه »[2]. ونفىُ هذا الإدراك الخاص لا ينفى الرؤية يوم القيامة ، يتجلى لعباده المؤمنين كما يشاء . فأما جلاله وعظمته على ما هو عليه — تعالى وتقدس وتنزه — فلا تدركه الأبصار . ولهذا كانت أم المؤمنين عائشة تثبت الرؤية فى الدار الآخرة وتنفيها فى الدنيا ، وتحتج بهذه الآية " لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار " . فالذى نفته الإدراك الذى هو بمعنى رؤية العظمة والجلال على ما هو عليه ، فإن ذلك غير ممكن للبشر ولا للملائكة ولا لشىء . وقوله " وهو يدرك الأبصار " أى : يحيط بها ويعلمها على ما هى عليه ، لأنه خلقها . كما قال تعالى : ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ . وقال أبو العالية فى قوله " وهو اللطيف الخبير " — قال : اللطيف لاستخراجها ، الخبير بمكانها . والله أعلم . وهذا كما قال إخباراً عن لقمان فيما وعظ به ابنه : ﴿ يا بنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله ، إن الله لطيف خبير ﴾ .

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ عَمِيَ

---

(١) لم أجده فى المستدرك بهذا اللفظ ، خفى على موضعه منه . وهو فى الترمذى ٤ : ١٨٩ ، « عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : رأى محمد ربه ، قلت : أليس الله يقول " لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار " ؟ قال : ويحك ، ذاك إذا تجلى بنوره الذى هو نوره ، وقد رأى محمد ربه مرتين » . قال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب » .

(٢) مسلم ١ : ٦٤ ، فى حديث . ولم أجده فى البخارى ، فلا أدرى أخفى على موضعه ، أم وهم الحافظ ابن كثير ؟

﴿فَعَلَيْهَا ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (١٠٤) وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٠٥)﴾

البصائر : هى البينات والحجج التى اشتمل عليها القرآن وما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم " فمن أبصر فلنفسه " مثل قوله : ﴿فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها﴾ . ولهذا قال " ومن عمى فعليها " لما ذكر البصائر قال " ومن عمى فعليها " أى : إنما يعود وبالُ ذلك عليه . كقوله : ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور﴾ . " وما أنا عليكم بحفيظ " أى : بحافظ ولا رقيب ، بل إنما أنا مبلغ ، والله يهدى من من يشاء ويضل من يشاء . وقوله " وكذلك نصرف الآيات " أى : كما فصلنا الآيات فى هذه السورة — من بيان التوحيد وأنه لا إله إلا هو — هكذا نوضح الآيات ونفسرها ونبينها فى كل موطن ، لجهالة الجاهلين ، وليقول المشركون والكافرون المكذبون : دَارَسْتَ يا محمد مَن قبلك من أهل الكتاب وقارأتهم وتعلمتَ منهم[1]. هكذا قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم. وروى الطبرانى عن ابن عباس ، قال : دَارَسْتَ : تلوتَ ، خاصمتَ ، جادلت[2]. وهذا كما قال تعالى إخباراً عن كذبهم وعنادهم : ﴿وقال الذين كفروا إنْ هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ، فقد جاؤا ظلماً وزوراً * وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرةً وأصيلا﴾ . وقال تعالى إخباراً عن زعيمهم وكاذبهم : ﴿إنه فكر وقدّر * فقتل كيف قدّر * ثم قتل كيف قدّر * ثم نظر * ثم عبس وبسر * ثم أدبر واستكبر * فقال إنْ هذا إلا سحر يؤثر * إنْ هذا إلا قولُ البشر﴾ . " ولنبينه لقوم يعلمون " أى : ولنوضحه لقوم يعلمون الحق فيتبعونه ، والباطل فيتجنبونه . فلله تعالى الحكمة

(١) فسرها المؤلف رحمه الله على قراءة " دارست " بإثبات الألف بين الدال والراء . وهى قراءة ابن عباس ، كما روى ذلك عنه الطبرى : ١٣٧١٧ . وهى أيضاً قراءة ابن كثير القارئ وأبى عمرو . وكتبت فى الآية فى المخطوطتين بإثبات الألف ، على هذه القراءة . وقراءة حفص التى فى مصاحفنا " درست " بدون ألف . والقراءتان صحيحتان .

(٢) إسناده جيد . وكذلك رواه الطبرى عن ابن عباس : ١٣٧١٩ ، ١٣٧٢٠ .

البالغة فى إضلال أولئك وبيان الحق لهؤلاء . كما قال تعالى : ﴿ يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً ﴾ — الآية . وقال تعالى : ﴿ ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم ، وإن الله لهادى الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ، ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ، ولا يرتابَ الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون ، وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا ، كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء ، وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ . وقال تعالى : ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى ، أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ . إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى أنزل القرآن هدى للمتقين ، وأنه يضلّ به من يشاء ويهدى به من يشاء .
ولهذا قال ههنا " وكذلك نصرف الآيات وليقولوا دارستَ ولنبينه لقوم يعلمون " وقرأ بعضهم " وليقولوا دَرَسْتَ " قال التميمى عن ابن عباس : درست ، أى : قرأتَ وتعلمتَ . وكذا قال مجاهد والسدى والضحاك وغير واحد . وقال الحسن " وليقولوا دَرَسَتْ " يقول : تقادَمَتْ وانمحتْ . وروى عبد الرزاق عن ابن الزبير : إن صبياناً يقرأون ههنا "دارَسْتَ" وإنما هى "دَرَسَتْ". وقال شعبة : حدثنا أبو إسحق الهمدانى ، قال : هى فى قراءة ابن مسعود " دَرَسَتْ " يعنى بغير ألف بنصب السين ووقف على التاء . قال ابن جرير : ومعناه انمحتْ وتقادمتْ ، أى : أن هذا الذى تتلوه علينا قد مر بنا قديماً وتطاولتْ مدته . وقال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة ، أنه قرأها " دَرَسْتَ " أي : قرأتَ وتعلمتَ . وروى ابن مردويه عن أبى بن كعب ، قال : « أقرأنى رسول الله صلى الله عليه وسلم " وليقولوا دَرَسْتَ " » . ورواه الحاكم وقال : يعنى بجزم السين ونصب التاء ، ثم قال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه [1] .

---

(١) المستدرك ٢ : ٢٣٨ — ٢٣٩ . ووافقه الذهبى على تصحيحه .

﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ، وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ، وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (١٠٧) ﴾

يقول تعالى آمراً لرسوله صلى الله عليه وسلم ولمن اتبع طريقته — : " اتبع ما أوحى إليك من ربك " أى : اقتد به واقتف أثره واعمل به ، فإن ما أوحى إليك من ربك هو الحق الذى لا مرية فيه ، لأنه " لا إله إلا هو ، وأعرض عن المشركين " أى : اعف عنهم واصفح واحتمل أذاهم ، حتى يفتح الله لك وينصرك ويظفرك عليهم . واعلم أن لله حكمة فى إضلالهم ، فإنه لو شاء لهدى الناس كلهم جميعاً ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى " ولو شاء الله ما أشركوا " أى : بل له المشيئة والحكمة فيما يشاؤه ويختاره ، ولا يُسأل عما يفعل وهم يسألون . وقوله " وما جعلناك عليهم حفيظاً " أى : حافظاً تحفظ أعمالهم وأقوالهم " وما أنت عليهم بوكيل " أى : موكل على أرزاقهم وأمورهم ، إنْ عليك إلا البلاغ . كما قال تعالى : ﴿ فذكر إنما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر ﴾ . وقال : ﴿ إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ .

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ، كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٠٨) ﴾

يقول تعالى ناهياً لرسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عن سب آلهة المشركين ، وإن كان فيه مصلحة ، إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها ، وهى مقابلة المشركين بسب إله المؤمنين ، وهو الله لا إله إلا هو . كما قال ابن عباس فى هذه الآية : « قالوا : يا محمد ، لتنتهين عن سبك آلهتنا أو لنهجونّ ربك ، فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم " فيسبوا الله عَدْواً بغير علم " » . ومن هذا القبيل — وهو ترك المصلحة لدرْءِ مفسدةٍ أرجح منها — ما جاء فى الصحيح ، أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ملعون من سبّ والديه ، قالوا : يا رسول الله ، وكيف يسبّ الرجل والديه ؟ قال : يسبُّ أبا الرجل فيسبُّ أباه ، ويسبُّ أمّه فيسبُّ أمّه » . أو كما قال صلى الله عليه وسلم[1]. وقوله تعالى " كذلك زينا لكل أمّة عملهم " أى : كما زينا لهؤلاء القوم حبَّ أصنامهم والمحاماةَ لها والانتصار ،كذلك زينا لكل أمة ، أى : من الأمم الخالية على الضلال — عملهم الذى كانوا فيه . ولله الحجة البالغة والحكمة التامّة فيما يشاؤه ويختاره " ثم إلى ربهم مرجعهم" أى : معادهم ومصيرهم " فينبئهم بما كانوا يعملون " أى : يجازيهم بأعمالهم ، إن خيراً فخيرٌ ، وإن شرًّا فشرٌّ .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ، قُلْ إِنَّمَا الْآيَـٰتُ عِنْدَ اللَّهِ ، وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) ﴾

يقول تعالى إخباراً عن المشركين : أنهم " أقسموا بالله جهد أيمانهم " أى : حلفوا أيماناً مؤكدة " لئن جاءتهم آية " أى : معجزة وخارق " ليؤمنن بها " أى : ليصدقنها " قل إنما الآيات عند الله " أى : قل يا محمد لهؤلاء الذين يسألونك الآيات تعنتاً وكفراً وعناداً ، لا على سبيل الهدى والاسترشاد — : إنما مرجع هذه الآيات إلى الله ، إن شاء جاءكم بها ، وإن شاء ترككم . روى ابن جرير عن محمد بن كعب القرظى ، قال : « كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً ، فقالوا : يا محمد ، تخبرنا أن موسى كان معه عصاً يضرب بها الحجر فانفجرتْ منه اثنتا عشرة عيناً ، وتخبرنا أن عيسى كان يحيى الموتى ، وتخبرنا أن ثمود كانت لهم ناقة ، فأتنا من الآيات حتى نصدقك ! فقال رسول

---

(١) مضى ج ٣ ص ١٥٣ ، من رواية البخارى عن عبد الله بن عمرو ، بلفظ : « من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه ، قالوا : وكيف يلعن الرجل والديه ؟ . . . » . وهو أيضاً فى المسند : ٦٥٢٩ ، ٦٨٤٠ ، ٧٠٢٩ . وصحيح مسلم ١ : ٣٧ (بولاق) — بنحوه ، والمؤلف الحافظ ذكره هنا بالمعنى لا باللفظ .

الله صلى الله عليه وسلم : أيّ شيء تحبون أن آتيكم به ؟ قالوا : تجعل لنا الصفا ذهباً ، فقال لهم : فإن فعلتُ تصدقونى؟ قالوا : نعم ، والله لئن فعلتَ لنتبعنّك أجمعين ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو ، فجاءه جبريل عليه السلام فقال له : ما شئتَ ، إن شئتَ أصبح ذهباً ، ولئن أرسل آيةً فلم يصدقوا عند ذلك ليعذبنّهم ، وإن شئتَ فأترُكهم حتى يتوبَ تائبهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل يتوب تائبهم . فأنزل الله تعالى " وأقسموا بالله جهد أيمانهم " إلى قوله ﴿ يجهلون ﴾ » . وهذا مرسل ، وله شواهد من وجوه أخر[١] . وقال الله تعالى : ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ، وآتينا ثمود الناقة فظلموا بها ، وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً ﴾ . وقوله تعالى " وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون " قيل : المخاطب بـ " ما يشعركم " المشركون . وإليه ذهب مجاهد . كأنه يقول لهم : وما يدريكم بصدقكم فى هذه الأيمان التى تقسمون بها . وعلى هذا فالقراءة " إنها إذا جاءت لا يؤمنون " بكسر " إنها " على أنها على استئناف الخبر عنهم بنفى الإيمان عند مجىء الآيات التى طلبوها . وقرأ بعضهم " أنها إذا جاءت لا تؤمنون " بالتاء المثناة من فوق . وقيل المخاطب بقوله " وما يشعركم " المؤمنون . أى : وما يدريكم أيها المؤمنون . وعلى هذا فيجوز فى قوله " إنها " الكسر كالأول ، والفتح على أنه معمول " يشعركم "[٢] . وعلى هذا فتكون " لا " فى قوله " أنها إذا جاءت لا يؤمنون " صلة ، كقوله : ﴿ ما منعك ألا تسجد إذْ أمرتك ﴾ . وقوله : ﴿ وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون ﴾ . أى : ما منعك أن تسجد إذْ أمرتك . وحرام أنهم يرجعون . وتقديره فى هذه الآية : وما يدريكم - أيها المؤمنون الذين تَودّون لهم ذلك حرصاً على إيمانهم - أنها إذا جاءتهم الآيات يؤمنون . وقال بعضهم " أنها " بمعنى : لعلها . قال ابن جرير : وذكروا أن ذلك كذلك

---

(١) الطبرى : ١٣٧٤٦ .

(٢) قراءة " إنها " بكسر الهمزة - هى قراءة القارئ ابن كثير وأبى عمرو ، وقرأ باقى السبعة بفتحها . وقراءة " تؤمنون " بتاء الخطاب - قراءة ابن عامر وحمزة . وبياء الغائب باقى السبعة .

فى قراءة أبى بن كعب . قال : وقد ذكر عن العرب سماعاً : اذهبْ إلى السوق أنك تشترى لنا شيئًا ، بمعنى : لعلك تشترى. وقد اختار هذا القول ابن جرير ، وذكر عليه شواهد من أشعار العرب . والله أعلم . وقوله تعالى " ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة " قال ابن عباس فى هذه الآية : لما جحد المشركون ما أنزل الله لم تثبت قلوبهم على شىء ورُدَّتْ عن كل أمر . وقال مجاهد : ونحول بينهم وبين الإيمان ، ولو جاءتهم كل آية فلا يؤمنوا ، كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة . وكذا قال عكرمة . وعن ابن عباس أنه قال : أخبر الله ما العباد قائلون قبل أن يقولوه ، وعملهم قبل أن يعملوه ، قال : ﴿ ولا ينبئك مثل خبير ﴾ ، ﴿ أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطتُ فى جنب الله ﴾ إلى قوله : ﴿ لو أن لى كرةً فأكونَ من المحسنين ﴾ ، فأخبر سبحانه أنهم لو رُدُّوا لم يقدروا على الهدى ، وقال : ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ، وإنهم لكاذبون ﴾ ، وقال " ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة " قال : ولو ردوا إلى الدنيا لحيل بينهم وبين الهدى ، كما حلنا بينهم وبينه أول مرة وهم فى الدنيا [1] . وقوله " ونذرهم " أى : نتركهم " فى طغيانهم " قال ابن عباس والسدى : فى كفرهم . وقال أبو العالية وقتادة : فى ضلالهم " يعمهون " قال الأعمش : يلعبون . وقال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : فى كفرهم يترددون .

﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَـٰئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ، وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١) ﴾

يقول تعالى : ولو أننا أجبنا سؤال هؤلاء - الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها - فنزلنا عليهم الملائكة ، أى : تخبرهم بالرسالة من الله بتصديق الرسل ، كما سألوا فقالوا : ﴿ أو تأتى بالله والملائكة قبيلاً ﴾ . ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله ﴾ . ﴿ وقال الذين

---

(١) رواه الطبرى عن ابن عباس : ١٣٧٥٤ .

لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ، لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيراً ﴾ . " وكلمهم الموتى " أى : فأخبروهم بصدق ما جاءتهم به الرسل " وحشرنا عليهم كل شىء قبلا " قرأ بعضهم " قِبَلا " بكسر القاف وفتح الباء ، من المقابلة والمعاينة . وقرأ آخرون " قُبُلا " بضمهما [1]. قيل: معناه من المقابلة والمعاينة أيضاً ، قاله ابن عباس . وبه قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم . وقال مجاهد " قُبُلا " أى : أفواجاً ، قبيلاً قبيلاً ، أى : تعرض عليهم كل أمة من الأمم ، فتخبرهم بصدق الرسل فيما جاؤهم به " ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله " أى : إن الهداية إليه لا إليهم ، بل يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، وهو الفعال لما يريد . و ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ . لعلمه وحكمته وسلطانه وقهره وغلبته . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ، وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ، فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (١١٣) ﴾

يقول تعالى : كما جعلنا لك يا محمد أعداء يخالفونك ويعادونك ويعاندونك — جعلنا لكل نبى من قبلك أيضاً أعداء ، فلا يهيدنّك ذلك[2]. كما قال تعالى: ﴿ وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك ﴾. وقال تعالى: ﴿ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ﴾ . وقال تعالى :

---

(١) " قبلا " — بكسر القاف وفتح الباء : قراءة نافع وابن عامر . وقراءة ضمهما لباقى السبعة .

(٢) أى : لا يزعجنك ذلك . يقال : « هاده الشىء يهيده هيداً وهاداً » : إذا أفزعه وكربه . وتقول : « ما يهيدنى ذلك » ، أى: ما يزعجنى ولا أكترث له ولا أباليه » . وغير الطابعون هذا الحرف ، فكتبوه « فلا يحزنك ذلك » ! وهو تصرف غير جيد .

﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ، إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواًّ من المجرمين ، وكفى بربك هادياً ونصيراً ﴾ . وقال ورقة بن نوفل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنه لم يأت أحدٌ بمثل ما جئتَ به إلا عُودى » . وقوله " شياطين الإنس والجن " بدل من " عدواًّ " أى : لهم أعداء من شياطين الإنس والجن . والشياطين : كل من خرج عن نظيره بالشر . ولا يعادى الرسلَ إلا الشياطين من هؤلاء ، قَبَّحَهم الله ولعنهم . قال قتادة فى قوله "شياطين الإنس والجن" -: من الجن شياطين ، ومن الإنس شياطين ، يوحى بعضهم إلى بعض ، قال قتادة : وبلغنى : « أن أبا ذر كان يوماً يصلى ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: تعوّذتَ يا أبا ذر من شياطين الإنس والجن ؟ فقال : أوَ إن من الإنس لَشَياطين ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم » . وهذا منقطع بين قتادة وأبى ذر . ورُوى متصلا ، فرواه الإمام أحمد عن أبى ذر ، قال : « أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى المسجد ، فجلست ، فقال : يا أبا ذر ، هل صليت؟ قلت : لا ، قال : قم فصل ، قال: فقمت فصليتُ ، ثم جلست ، فقال : يا أبا ذر ، تعوذْ بالله من شر شياطين الإنس والجن ، قال : قلت : يا رسول الله ، وللإنس شياطين؟ قال : نعم » . وذكر تمام الحديث بطوله . وكذا رواه ابن مردويه[1] . وروى ابن أبى حاتم عن أبى أمامة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أبا ذر ، تعوّذتَ من شياطين الجن والإنس؟ قال : يا رسول الله ، وهل للإنس شياطين ؟ قال : نعم ، " شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً " »[2] . فهذه طرق لهذا الحديث ، ومجموعها يفيد قوته وصحته . والله أعلم . وعلى كل حال فالصحيح ما تقدم

(١) مضى بطوله (ج ٢ ص ١٥٧ – ١٥٨) ، وبينا صحته وتخريجه هناك . ومضى بعضه أيضاً (ج ١ ص ٦٤ ، ١٠٩ ، ١٣٤) .

(٢) هو جزء من حديث مطول ، رواه أحمد فى المسند ٥ : ٢٦٥ – ٢٦٦ (حلبى) . وذكره الهيثمى بطوله فى مجمع الزوائد ١ : ١٥٩ ، ونسبه لأحمد والطبرانى فى الكبير ، وقال : « ومداره على على بن يزيد ، وهو ضعيف » .

من حديث أبى ذر : أن للإنس شياطين منهم . وشيطان كل شىء : ماردُه . ولهذا جاء فى صحيح مسلم عن أبى ذر ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الكلب الأسود شيطان » [١]. ومعناه — والله أعلم — شيطان فى الكلاب . وقال مجاهد فى تفسير هذه الآية : كفار الجن شياطين ، يوحون إلى شياطين الإنس كفارِ الإنس زخرفَ القول غروراً . وروى ابن أبى حاتم عن عكرمة قال : قدمت على المختار ، فأكرمنى وأنزلنى ، حتى كان يتعاهد مبيتى بالليل ، قال : فقال لى : اخرجْ فحدِّث الناسَ ، قال : فخرجت ، فجاء رجل فقال : ما تقول فى الوحى ؟ فقلت : الوحى وحيان ، قال الله تعالى : ﴿ بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ . وقال تعالى " شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً " قال : فهموا بى أن يأخذونى ، فقلت لهم : ما لكم ذاك ، إنى مفتيكم وضيفكم ، فتركونى . وإنما عرَّض عكرمة بالمختار ، وهو ابن أبى عُبيد ، قَبَّحه الله ، وكان يزعم أنه يأتيه الوحى . وقد كانت أخته صفية تحت عبد الله بن عمر ، وكانت من الصالحات ، ولما أخبر عبد الله بن عمر أن المختار يزعم أنه يوحى إليه قال : صدق ! قال الله تعالى : ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ﴾ [٢]. وقوله تعالى " يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً " أى : يلقى بعضهم إلى بعضٍ القولَ المزينَ المزخرفَ ، وهو المزوَّق الذى يغترّ سامعه من الجهلة بأمره " ولو شاء ربك ما فعلوه " أى : وذلك كله بقدر الله وقضائه وإرادته ومشيئته ، أن يكون لكل نبى عدوٌّ من هؤلاء " فذرهم " أى : فدعهم " وما يفترون " أى : يكذبون . أى : دَعْ أذاهم وتوكل على الله فى عداوتهم ، فإن الله كافيك وناصرُك عليهم . وقوله تعالى " ولتصغى إليه " أى : ولتميل إليه . قاله ابن عباس " أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة " أى : قلوبهم وعقولهم وأسماعهم . وقال السدى : قلوب الكافرين " وليرضوه " أى : يحبوه و يريدوه . وإنما يستجيب لذلك من لا يؤمن بالآخرة .

---

(١) من حديث مضى (ج ١ ص ٦٥ ، و ج ٤ ص ٨٠) .
(٢) سيأتى هذا الخبر من رواية ابن أبى حاتم ، ص ٩٣ .

كما قال تعالى : ﴿ فإنكم وما تعبدون * ما أنتم عليه بفاتنين * إلا من هو صال الجحيم ﴾ . وقال تعالى : ﴿ إنكم لفى قول مختلف * يؤفك عنه من أفِك ﴾ . وقوله " وليقترفوا ما هم مقترفون " قال ابن عباس : وليكتسبوا ما هم مكتسبون . وقال السدى وابن زيد : وليعملوا ما هم عاملون .

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ، وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ، لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥) ﴾

يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : قل لهؤلاء المشركين بالله غيره ، الذين يعبدون غيره — : " أفغير الله أبتغى حكماً " أى : بينى وبينكم " وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا " أى : مبيناً " والذين آتيناهم الكتاب " أى : من اليهود والنصارى " يعلمون أنه منزل من ربك بالحق " أى : بما عندهم من البشارات بك من الأنبياء المتقدمين " فلا تكوننّ من الممترين " . كقوله : ﴿ فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك ، لقد جاءك الحق من ربك ، فلا تكونن من الممترين ﴾ . وهذا شرط ، والشرط لا يقتضى وقوعه ، ولهذا جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا أشك ولا أسأل »[1] . وقوله تعالى " وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً " قال قتادة : صدقاً فيما قال ، وعدلاً فيما حكم ، يقول : صدقاً فى الإخبار وعدلا فى الطلب ، فكل ما أخبر به فحق لا مرية فيه ولا شك ، وكل ما أمر به فهو العدل الذى لا عدل سواه ، وكل ما نهى عنه فباطل ، فإنه لا ينهى

(١) سيذكره المؤلف الحافظ ، عند تفسير الآية : ٩٤ من سورة يونس : « قال قتادة بن دعامة : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا أشك ولا أسأل » . وكذلك ذكره السيوطى ٣ : ٣١٧ عن قتادة ، ونسبه لعبد الرزاق وابن جرير . وأقوى منه وأثبت ، ما ذكره السيوطى عن ابن عباس ، قال : « لم يشك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يسأل » . ونسبه لابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والضياء فى المختارة .

إلا عن مفسدة . كما قال : ﴿ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ﴾ . " لا مبدل لكلماته " أى : ليس أحد يعقب حكمه تعالى ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة " وهو السميع " لأقوال عباده " العليم " بحركاتهم وسكناتهم ، الذى يجازى كل عامل بعمله .

﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِى الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١١٧) ﴾

يخبر تعالى عن حال أكثر أهل الأرض من بنى آدم : أنه الضلال . كما قال تعالى : ﴿ ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ [١] . وهم فى ضلالهم ليسوا على يقين من أمرهم ، وإنما هم فى ظنون كاذبة ، وحسبان باطل " إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون " فإن الخرص : هو الحزر ، ومنه خرص النخل ، وهو حزرُ ما عليها من التمر . وذلك كله عن قدر الله ومشيئته ، و" هو أعلم من يضل عن سبيله " فييسره لذلك " وهو أعلم بالمهتدين " فييسرهم لذلك . وكل ميسر لما خلق له .

﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ، وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩) ﴾

هذا إباحة من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يأكلوا من الذبائح ما ذكر عليه اسمه . ومفهومه : أنه لا يباح ما لم يذكر اسم الله عليه ، كما كان يستبيحه كفار المشركين ، من أكل الميتات ، وأكل ما ذبح على النصب ، وغيرها . ثم ندب

---

(١) هذه الآيات وما فى معناها تدمغ بالبطلان نوع الحكم الذى يخدعون به الناس ويسمونه « الديمقراطية » ، إذ هى حكم الأكثرية الموسومة بالضلال ، هى حكم الدهماء والغوغاء .

إلى الأكل مما ذكر اسم الله عليه ، فقال " وما لكم أن لا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم " أى : قد بين لكم ما حرمه عليكم ووضحه . وقرأ بعضهم " فصل " بالتشديد ، وقرأ آخرون بالتخفيف [1]. والكل بمعنى البيان والوضوح " إلا ما اضطررتم إليه " أى : إلا فى حالة الاضطرار ، فإنه يباح لكم ما وجدتم . ثم بين جهالةَ المشركين فى آرائهم الفاسدة ، من استحلالهم الميتات وما ذكر عليه غير اسم الله تعالى ، فقال " وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم ، إن ربك هو أعلم بالمعتدين " أى : هو أعلم باعتدائهم وكذبهم وافترائهم .

﴿ وَذَرُوا ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ، إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (١٢٠) ﴾ .

قال مجاهد "وذروا ظاهر الإثم وباطنه" -: معصيته فى السر والعلانية . وفى رواية عنه : هو ما ينوى مما هو عامل . وقال قتادة : قليله وكثيره ، وسره وعلانيته . وقال السدى : ظاهره : الزنا مع البغايا ذوات الرايات ، وباطنه : الزنا مع الخليلة والصدائق والأخدان . وقال عكرمة : ظاهره نكاح ذوات المحارم . والصحيح : أن الآية عامّة فى ذلك كله . وهى كقوله تعالى : ﴿ قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ - الآية . ولهذا قال تعالى " إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون " أى : سواء كان ظاهراً أو خفيًّا فإن الله سيجزيهم عليه . روى ابن أبى حاتم عن النوّاس

---

(١) لعل الحافظ ابن كثير وهم وانتقل نظره فى حكاية القراءتين فى قوله " فصل " . فإن قراءة « فصل » بفتح الفاء والصاد مخففة - قراءة شاذة ، لم تحك إلا عن عطية العوفى - وهو ضعيف - حكاها عنه الطبرى ١٢ : ٧٠ ، وردها ، وكذلك حكاها عنه أبو حيان فى البحر ٤ : ٢١١ . ثم هى ليست بمعنى بين واضح . بل فسرها الطبرى « بمعنى وقد أتاكم حكم الله فيما حرم عليكم » . وأما القراءات المعروفة فى هذه الآية ، فهى ثلاث قراءات : فقرأ نافع وحفص وأبو جعفر ويعقوب " فصل " و " حرم " بفتح أولها بالبناء للفاعل . وقرأها ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بضم أولها بالبناء للمفعول . وقرأها أبو بكر وحمزة والكسائى وخلف ببناء " فصل " للفاعل ، و " حرم " للمفعول - كل ذلك مع تشديد الصاد من " فصل " .

بن سمعان ، قال : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإثم ؟ فقال : الإثم ما حاك فى صدرك وكرهتَ أن يطلع الناس عليه »[١].

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١) ﴾

استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب إلى أن الذبيحة لا تحل إذا لم يُذكر اسم الله عليها ولو كان الذابح مسلماً . وقد اختلف الأئمة رحمهم الله فى هذه المسألة على ثلاثة أقوال : فمنهم من قال : لا تحل هذه الذبيحة بهذه الصفة ، وسواء متروك التسمية عمداً وسهواً . وهو مروى عن ابن عمر ونافع مولاه والشعبى وابن سيرين ، وهو رواية عن مالك ، ورواية عن أحمد بن حنبل نصرها طائفة من أصحابه المتقدمين والمتأخرين . وهو اختيار أبى ثور وداود الظاهرى . واحتجوا لمذهبهم هذا بهذه الآية وبقوله فى آية الصيد : ﴿ فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه ﴾ . ثم قد أكد فى هذه الآية بقوله " وإنه لفسق " . والضمير ، قيل : عائد على الأكل ، وقيل : عائد على الذبح لغير الله . وبالأحاديث الواردة فى الأمر بالتسمية عند الذبيحة والصيد ، كحديثى عدى بن حاتم وأبى ثعلبة : « إذا أرسلتَ كلبك المعلم وذكرتَ اسم الله عليه فكل ما أمسك عليك » . وهما فى الصحيحين[٢]. وحديث رافع بن خَديج : « ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه » . وهو فى الصحيحين أيضاً[٣]. وحديث ابن مسعود : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للجن :

---

(١) هو جزء من حديث رواه مسلم ٢ : ٢٧٧ . وكذلك رواه أحمد فى المسند : ١٧٧٠٨ ، ١٧٧٠٩ .

(٢) أما حديث عدى بن حاتم فهو فى الصحيحين . وقد مضى مطولا ج ٤ ص ٨١ . وأما حديث أبى ثعلبة ، فليس بهذا اللفظ ، وليس فى الصحيحين ، بل رواه أبو داود : ٢٨٥٢ . وقد مضى ج ٤ ص ٨٢ .

(٣) من حديث مضى ج ٤ ص ٧٢ — ٧٣ . ووقع فى فهرس الجزء الرابع ، ص ٢٧٠ عند الإشارة إلى هذا الحديث أنه فى ص ٧٤ ، وهو خطأ ، صوابه : ٧٢ .

لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه » . رواه مسلم . وحديث جندب بن سفيان البجلى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ذبح قبل أن يصلى فليذبح مكانها أخرى ، ومن لم يكن ذبح حتى صلينا فليذبح باسم الله » . أخرجاه . وعن عائشة : « أن ناساً قالوا : يا رسول الله ، إن قوماً يأتوننا باللحم لا ندرى أذكر اسم الله عليه أم لا ؟ قال : سموا عليه اسم الله وكلوا ، قالت : وكانوا حديثى عهدٍ بكفر » . رواه البخارى [1]. ووجه الدلالة : أنهم فهموا أن التسمية لا بد منها ، وخَشُوا أن لا تكون وجدت من أولئك لحداثة إسلامهم ، فأمرهم بالاحتياط بالتسمية عند الأكل ، لتكون كالعوض عن المتروكة عند الذبح إن لم تكن وجدت ، وأمرهم بإجراء أحكام المسلمين على السداد . والله أعلم . والمذهب الثانى فى المسألة : أنه لا يشترط التسمية ، بل هى مستحبة ، فإن تُركتْ عمداً أو نسياناً لم تضرّ . وهذا مذهب الإمام الشافعى وجميع أصحابه ، ورواية عن الإمام أحمد ، نقلها عنه حنبل، وهو رواية عن الإمام مالك ، ونص على ذلك أشهب بن عبد العزيز من أصحابه . وحكى عن ابن عباس وأبى هريرة وعطاء بن أبى رَباح ، والله أعلم . وحمل الشافعى الآية الكريمة " ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق " على ما ذبح لغير الله ، كقوله تعالى : ﴿ أو فسقاً أهل لغير الله به ﴾ . وقال عطاء " ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه " قال : ينهى عن ذبائح كانت تذبحها قريش عن الأوثان وينهى عن ذبائح المجوس . وهذا المسلك الذى طرقه الإمام الشافعى قوىّ . وقد حاول بعض المتأخرين أن يقويه بأن جعل الواو فى قوله " وإنه لفسق" حاليةً ، أى : لا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه فى حال كونه فسقاً ، ولا يكون فسقاً حتى يكون قد أهل به لغير الله ! ثم ادعى أن هذا متعين ، ولا يجوز أن تكون الواو عاطفةً لأنه يلزم منه عطف جملة اسمية خبرية على جملة فعلية طلبية ! وهذا ينتقض عليه بقوله " وإن الشياطين ليوحون إلى

---

(١) مضى ج ٤ ص ٨٣ . وهو فى البخارى بنحوه ٤ : ٢٥٢ ، و ٩ : ٥٤٦ — ٥٤٧ (فتح) .

أوليائهم " فإنها عاطفة لا محالة ، فإن كانت الواو التي ادعى أنها حالية صحيحة على ما قال — امتنع عطف هذه عليها ، فإن عُطفت على الطلبية ورد عليه ما أورد على غيره ، وإن لم تكن الواو حالية بطل ما قال من أصله . والله أعلم .
المذهب الثالث فى المسألة : أنه إن ترك البسملة على الذبيحة نسياناً لم يضرّ ، وإن تركها عمداً لم تحلّ . هذا هو المشهور من مذهب الإمام مالك والإمام أحمد بن حنبل ، وبه يقول أبو حنيفة وأصحابه وإسحق بن راهويه . وهو محكى عن على وابن عباس وسعيد بن المسيب وعطاء وطاوس والحسن البصرى وغيرهم .
ونقل الإمام أبو الحسن المرغينانى فى كتابه الهداية : الإجماعَ قبل الشافعى على تحريم متروك التسمية عمداً ، فلهذا قال أبو يوسف والمشايخ : لو حكم حاكم بجواز بيعه لم ينفذ ، لمخالفة الإجماع ! وهذا الذى قاله غريب جدًّا !!
وقد تقدم نقل الخلاف عمن قبل الشافعى . والله أعلم . قال ابن جرير : واختلف أهل العلم فى هذه الآية ، هل نسخ من حكمها شىء أم لا ؟ فقال بعضهم : لم ينسخ منها شىء وهى محكمة فيما عُنيتْ به ، وعلى هذا قول عامّة أهل العلم .
ورُوى عن الحسن البصرى وعكرمة ، أنهما قالا : قال الله : ﴿ فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين ﴾ ، وقال " ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق " فنسخ واستثنى من ذلك ، فقال : ﴿ وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم ﴾ . ثم قال ابن جرير : والصواب أنه لا تعارض بين حل طعام أهل الكتاب وبين تحريم ما لم يذكر اسم الله عليه .
وهذا الذى قاله صحيح ، ومن أطلق من السلف النسخَ ههنا فإنما أراد التخصيص .
والله سبحانه وتعالى أعلم . وقوله تعالى " وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم " روى ابن أبى حاتم عن أبى إسحق ، قال رجل لابن عمر : إن المختار يزعم أنه يوحى إليه ! قال : صدق ، وتلا هذه الآية " وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم " [1] . وروى عن أبى زُميل ، قال : كنت قاعداً عند ابن عباس ، وحج المختار بن أبى عُبيد ، فجاءه رجل فقال : يا ابن عباس ،

---

(١) مضى هذا دون تخريج ، ص : ٨٧ . وأشرنا هناك إلى هذا الموضع .

زعم أبو إسحق أنه أوحى إليه الليلة !! فقال ابن عباس : صدق ، فنفر ، وقلتُ : يقول ابن عباس صدق !! فقال ابن عباس : هما وحيان ، وحى الله ووحى الشيطان ، فوحى الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، ووحى الشيطان إلى أوليائه ، ثم قرأ " وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم " [١]. وقد تقدم عن عكرمة نحوُ هذا[٢]. وقوله " ليجادلوكم " روى أبو داود عن ابن عباس ، قال : « جاءت اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : نأكل مما قتلنا ولا نأكل مما قتل الله ؟ فأنزل الله " ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه " » . وكذا رواه ابن جرير والبزار[٣]. وهذا فيه نظر من وجوه ثلاثة : أحدها : أن اليهود لا يرون إباحة الميتة حتى يجادلوا . الثاني : أن الآية من الأنعام ، وهى مكية . الثالث : أن هذا الحديث رواه الترمذى بلفظ : « أتى ناسٌ النبيَّ صلى الله عليه وسلم » — فذكره ، وقال : حسن غريب ، ورُوى عن سعيد بن جبير مرسلاً . وروى الطبرانى عن ابن عباس ، قال : « لما نزلت " ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه " أرسلت فارس إلى قريش : أنْ خاصموا محمداً وقولوا له : فما تذبح أنت بيدك بسكين فهو حلال ، وما ذبح الله عز وجل بشمشير من ذهب ، يعنى الميتة — فهو حرام ؟ ! فنزلت هذه الآية " وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم " قال : وإن الشياطين من فارس ، وأولياؤهم قريش »[٤] . وروى أبو دواد عن ابن عباس : « فى قوله " وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم " يقولون : ما ذبح الله فلا تأكلوه . وما ذبحتم أنتم فكلوه ! فأنزل الله " ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه " » . ورواه ابن

---

(١) خبر أبي زميل عن ابن عباس ، رواه الطبرى أيضاً : ١٣٨٣٢ . و « المختار بن أبي عبيد » : متنبئٌ كذاب وقح . قتله مصعب بن الزبير سنة ٦٧ من الهجرة .

(٢) مضى فى ص : ٨٧ .

(٣) الطبرى : ١٣٨٢٥ . وتتمة التخريج فيه ج ١٢ ص ٥٨٥ — ٥٨٦ .

(٤) إسناده عند الطبرانى إسناد صحيح . وكذلك رواه الطبرى : ١٣٨٠٥ ، من هذا الوجه ، وفيه « بشمشار » . وكتب هنا بهامش المخطوطة العتيقة : « فى تفسير ابن جرير : بشمشار من ذهب » وتحتها وعليها علامة أنها حاشية : « والشمشير : السكين ، بالفارسية » .

ماجة وابن أبي حاتم . وإسناده صحيح . ورواه ابن جرير من طرق متعددة عن ابن عباس ، وليس فيه ذكر اليهود . فهذا هو المحفوظ . والله أعلم . وقوله تعالى " وإن أطعتموهم إنكم لمشركون " أى : حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه ، إلى قول غيره ، فقدمتم عليه غيره ، فهذا هو الشرك . كما قال تعالى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ — الآية . وقد روى الترمذى فى تفسيرها عن عدى بن حاتم : « أنه قال : يا رسول الله ما عبدوهم ، فقال : بلى ، إنهم أحلوا لهم الحرام وحرّموا عليهم الحلال . فاتبعوهم ، فذلكم عبادتهم إياهم » .

﴿ أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ، كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢) ﴾ .

هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذى كان ميتاً ، أى : فى الضلالة هالكاً حائراً ، فأحياه الله ، أى : أحيا قلبه بالإيمان وهداه له ، ووفقه لاتباع رسله " وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس " أى : يهتدى كيف يسلك وكيف يتصرف . والنور : هو القرآن ، كما قال ابن عباس . وقال السدى : الإسلام . والكل صحيح " كمن مثله فى الظلمات " أى : الجهالات والأهواء والضلالات المتفرقة " ليس بخارج منها " أى : لا يهتدى إلى منفذ ولا مخلص مما هو فيه . وفى مسند الإمام أحمد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « إن الله خلق خلقه فى ظلمة ، ثم رش عليهم من نوره ، فمن أصابه ذلك النور اهتدى ، ومن أخطأه ضل »[1] . كما قال تعالى : ﴿ الله ولىّ الذين آمنوا يخرجهم

---

(١) هو جزء من حديث طويل ، فى المسند : ٦٦٤٤ ، بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو . وفى لفظه : « ثم ألقى عليهم من نوره يومئذ » . ورواه مرة أخرى : ٦٨٥٤ م بإسناد آخر صحيح ، بنحوه . وليس فى الروايتين ولا فى شىء من المراجع التى أشرنا إليها فى التخريج فى الموضعين كلمة « رش » ! والظاهر أن الحافظ ابن كثير ذكره بالمعنى من حفظه .

من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ أفمن يمشي مكباًّ على وجهه أهدى أم من يمشى سوياًّ على صراط مستقيم ﴾ . وقال تعالى : ﴿ مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع ، هل يستويان مثلا ، أفلا تذكرون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وما يستوى الأعمى والبصير * ولا الظلمات ولا النور * ولا الظل ولا الحرور * وما يستوى الأحياء ولا الأموات ، إن الله يسمع من يشاء ، وما أنت بمسمع من فى القبور * إن أنت إلا نذير ﴾ . والآيات فى هذا كثيرة . ووجه المناسبة فى ضرب المثلين ههنا بالنور والظلمات لما تقدم فى أول السورة : ﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾ . وزعم بعضهم أن المراد بهذ المثل رجلان معيَّنان . والصحيح : أن الآية عامة ، يدخل فيها كل مؤمن وكافر . وقوله تعالى " كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون " أى : حُسِّن لهم ما كانوا فيه من الجهالة والضلالة ، قدراً من الله وحكمة بالغة ، لا إله إلا هو .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَـٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْـكُرُوا فِيهَا ، وَمَا يَمْـكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (١٢٣) وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِىَ رُسُلُ ٱللهِ ، ٱللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَـتَهُ ، سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ ٱللهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْـكُرُونَ (١٢٤) ﴾

يقول تعالى : وكما جعلنا فى قريتك – يا محمد – أكابر من المجرمين ، ورؤساً ودعاةً إلى الكفر والصد عن سبيل الله ، وإلى مخالفتك وعداوتك ، كذلك كانت الرسل من قبلك ، يُبتلوْنَ بذلك ، ثم تكون لهم العاقبة . كما قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدوًّا من المجرمين ، وكفى بربك هادياً ونصيراً ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قريةً أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القولُ فدمرناها تدميراً ﴾ . قيل : معناه : أمرناهم بالطاعات فخالفوا فدمرناهم . وقيل : أمرناهم أمراً قَدَرِيًّا ، كما قال ههنا " ليمكروا فيها " قال ابن عباس " أكابر

مجرميها " قال: سلطنا شرارَهم فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب. وقال مجاهد وقتادة " أكابر مجرميها " عظماؤها . قلت : وهذا كقوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون * وقالوا نحن أكثر أموالا وأولاداً وما نحن بمعذبين ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ . والمراد بالمكر ههنا : دعاؤهم إلى الضلالة بزخرف من المقال والفعال . كما قال تعالى إخباراً عن قوم نوح : ﴿ ومكروا مكراً كُبَّاراً ﴾ . وقال تعالى ﴿ ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول ، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين * قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ، بل كنتم مجرمين * وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً ، وأسرُّوا الندامة لما رأوا العذاب ، وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا ، هل يُجزون إلا ما كانوا يعملون﴾ . وقوله "وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون" أى: وما يعود وبالُ مكرهم ذلك وإضلالُهم من أضلوه إلا على أنفسهم. كما قال تعالى : ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ﴾ . وقال: ﴿ ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ، ألا ساء ما يزرون﴾ . وقوله " وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله " أى : إذا جاءتهم آية وبرهان وحجة قاطعة قالوا : لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله ، أى : حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة ، كما تأتى إلى الرسل . كقوله : ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكةُ أو نرى ربنا ، لقد استكبروا فى أنفسهم وعتَوْا عتُوًّا كبيراً ﴾ . وقوله " الله أعلم حيث يجعل رسالته " أى : هو أعلم حيث يضع رسالته، ومن يصلح لها من خلقه . كما قال تعالى: ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم * أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ — الآية . يعنون : لولا نزل هذا القرآن على رجل عظيم كبير مبجل فى أعينهم، ﴿ من القريتين ﴾ أى:

مكة والطائف . وذلك : لأنهم – قبحهم الله – كانوا يزدرون بالرسول صلوات الله وسلامه عليه بغياً وحسداً ، وعناداً واستكباراً . كما قال تعالى مخبراً عنهم : ﴿ وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزواً ، أهذا الذى يذكر آلهتكم ، وهم بذكر الرحمن هم كافرون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وإذا رأوك أن يتخذونك إلا هزواً ، أهذا الذى بعث اللهُ رسولاً ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ . هذا ، وهم معترفون بفضله وشرفه ونسبه ، وطهارة بيته ومرباه ومنشئه ، حتى إنهم إنما كانوا يسمونه بينهم قبل أن يوحى إليه « الأمينَ » . وقد اعترف بذلك رئيس الكفر أبو سفيان ، حين سأله هرقلُ ملكُ الروم : كيف نسبه فيكم ؟ قال : هو فينا ذو نسب ، قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا – الحديثَ بطوله الذى استدل به ملك الروم – بطهارة صفاته عليه السلام – على صدق نبوته وصحة ما جاء به . وروى الإمام أحمد عن واثلة بن الأسقع ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله اصطفى من ولد إبرهيم إسمعيل ، واصطفى من بنى إسمعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » . انفرد بإخراجه مسلم نحوه [١] . وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بعثتُ من خير قرون بنى آدم قرناً فقرناً ، حتى بُعثتُ من القرن الذى كنتُ فيه » [٢] . وروى الإمام أحمد عن المطلب بن أبى وَدَاعةَ ، قال : قال العباس : « بلغه صلى الله عليه وسلم بعضُ ما يقول الناس ، فصعد المنبر فقال : من أنا ؟ قالوا : أنت رسول الله ، فقال : أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خير خلقه ، وجعلهم فريقين ، فجعلنى فى خير فرقة ، وخلق القبائل فجعلنى فى خير قبيلة ، وجعلهم بيوتاً فجعلنى فى خيرهم بيتاً ، فأنا خيرُكم بيتاً وخيركم نفساً » [٣] . صدق صلوات الله وسلامه عليه .

---

(١) المسند : ١٧٠٥٤ . ومسلم ٢ : ٢٠٣ (بولاق) .
(٢) البخارى ٦ : ٤١٨ (فتح) .
(٣) المسند : ١٧٨٨ . وإسناده صحيح . ورواه الترمذى ٤ : ٢٩٢ – ٢٩٣ .

وفى الحديث أيضاً المروى عن عائشة ، قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال لى جبريل : قلبتُ الأرضَ مشارقها ومغاربها فلم أجد رجلاً أفضل من محمد، وقلبتُ الأرضَ مشارقها ومغاربها فلم أجد بنى أبٍ أفضل من بنى هاشم» . رواه الحاكم والبيهقى [١] . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود ، قال : « إن الله نظر فى قلوب العباد فوجد قلب محمد خير قلوب العباد ، فاصطفاه لنفسه ، فابتعثه برسالته ، ثم نظر فى قلوب العباد بعد قلب محمد ، صلى الله عليه وسلم فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد ، فجعلهم وزراءَ نبيه ، يقاتلون على دينه ، فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ، وما رآه المسلمون سيئاً فهو عندالله سيئ »[٢]. وروى ابن أبى حاتم عن ابن أبى حسين ، قال : أبصر رجلٌ ابنَ عباس وهو داخل من باب المسجد ، فلما نظر إليه راعه ، فقال : من هذا ؟ قالوا : ابن عباس ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال " الله أعلم حيث يجعل رسالته " . وقوله " سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون " هذا وعيد شديد من الله ، وتهديد أكيد ، لمن تكبر عن اتباع رسله والانقياد لهم فيما جاؤا به ، فإنه سيصيبه يوم القيامة بين يدى الله صغار — وهو الذلة الدائمة — كما أنهم استكبروا أعقبهم ذلك ذلاً . كما قال تعالى : ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾ . أى : صاغرين ذليلين حقيرين . وقوله " وعذاب شديد بما كانوا يمكرون " لما كان المكر غالباً إنما يكون خفياً ، وهو التلطف فى التحيل والخديعة ، قوبلوا بالعذاب الشديد ، جزاءً وفاقاً ﴿ ولا يظلم ربك أحداً ﴾ . كما قال تعالى: ﴿ يوم تبلى السرائر ﴾ . أى : تظهر المستترات والمكنونات والضمائر . وجاء فى الصحيحين عن رسول الله صلى

---

(١) إطلاقه النسبة إلى الحاكم يوهم أنه فى المستدرك ، ولم أجده فيه . ونسبه السيوطى فى الجامع الصغير للحاكم فى الكنى وابن عساكر . وليس بين يدى إسناده حتى أعرف درجته . وذكره الهيثمى فى الزوائد ٨ : ٢١٧ ، وقال : « رواه الطبرانى فى الأوسط ، وفيه موسى بن عبيدة الزبدى ، وهو ضعيف » . ونقل المناوى فى شرح الجامع الصغير أنه رواه أحمد فى المناقب والطبرانى والبيهقى وغيرهم ، وقال : « قال ابن حجر فى أماليه : لوائح الصحة ظاهرة على صفحات هذا المتن » ! وما هذا بقول يقبل فى تصحيح حديث ، وما هو من بابة كلام أهل العلم بالحديث .

(٢) المسند : ٣٦٠٠ . وإسناده صحيح .

الله عليه وسلم أنه قال : « ينصب لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة ، فيقال : هذه غدرة فلان بن فلان »[١] . والحكمة فى هذا : أنه لما كان الغدر خفياً لا يطلع عليه الناس ، فيوم القيامة يصير علماً منشوراً على صاحبه بما فعل .

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ، وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ، كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥) ﴾ .

يقول تعالى " فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام " أى : ييسره له وينشطه ويسهله لذلك ، فهذه علامات على الخير . كما قال تعالى : ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ، فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ، أولئك فى ضلال مبين ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم ، وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان، أولئك هم الراشدون﴾ . قال ابن عباس " فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام " — يقول : يوسع قلبه للتوحيد والإيمان به . وكذا قال غير واحد ، وهو ظاهر .

وقوله تعالى " ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيّقاً حرجاً " قرئ بفتح الضاد وتسكين الياء ، والأكثرون " ضَيِّقاً " بتشديد الياء وكسرها ، وهما لغتان ، كَهَيْن وهَيِّن . وقرأ بعضهم « حَرِجاً " بفتح الحاء وكسر الراء ، بمعنى : آثِم ، قاله السدى . وقيل بمعنى القراءة الأخرى " حَرَجاً " بفتح الحاء والراء ، وهو : الذى لا يتسع لشىء من الهدى ولا يخلص إليه شىء ما ينفعه من الإيمان ولا ينفذ فيه . وقد سأل عمر بن الخطاب رجلاً من الأعراب من أهل البادية من مدلج : ما الحرَجة ؟ فقال : هى الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إلى راعية ولا وحشية ولا شىء ، فقال عمر : كذلك قلب المنافق ، لا يصل إليه شىء من الخير . وقال ابن جريج : ضيقاً حرجاً بلا إله إلا الله ، حتى لا يستطيع

---

(١) هو فى المسند : ٤٦٤٨ ، بنحوه من حديث ابن عمر . وانظر البخارى ١٣ : ٦٠ – ٦١ (فتح) . وصحيح مسلم ٢ : ٤٧ .

أن يدخله ، كأنما يصعد فى السماء من شدة ذلك عليه . وقال عطاء الخراسانى " كأنما يصعد فى السماء " ويقول : مثله كمثل الذى لا يستطيع أن يصعد إلى السماء . وقال ابن عباس " كأنما يصعد فى السماء " ويقول : فكما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء، فكذلك لايقدر على أن يدخل التوحيد والإيمان قلبه حتى يدخله الله فى قلبه . وقال الإمام ابن جرير : وهذا مثل ضربه الله لقلب هذا الكافر فى شدة تضييقه إياه عن دخول الإيمان إليه ، يقول : فمثله فى امتناعه عن قبول الإيمان وضيقه عن وصوله إليه ، مثل امتناعه من الصعود إلى السماء وعجزه عنه ، لأنه ليس فى وسعه وطاقته . وقال فى قوله " كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون " يقول : كما يجعل الله صدر من أراد ضلاله ضيقاً حرجاً كذلك يسلط الله الشيطان عليه وعلى أمثاله ممن أبى الإيمان بالله ورسوله ، فيغويه ويصده عن سبيل الله . وقال ابن عباس : الرجس الشيطان . وقال مجاهد : الرجس كل ما لا خير فيه . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الرجس العذاب .

﴿ وَهَـٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً ، قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَـٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ، وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٧) ﴾ . ربع

لما ذكر تعالى طريق الضالين عن سبيله، الصادّين عنها – نبه على شرف ما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق ، فقال " وهذا صراط ربك مستقيماً " منصوب على الحال ، أى : هذا الدين الذى شرعناه لك يا محمد بما أوحينا إليك هذا القرآن هو صراط الله المستقيم . كما تقدم فى حديث الحرث عن على ، فى نعت القرآن : « هو صراط الله المستقيم ، وحبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم » . رواه أحمد والترمذى بطوله . " قد فصلنا الآيات " أى : وضحناها وبيناها وفسرناها " لقوم يذكرون " أى : لمن له فهم ووعى يعقل عن الله ورسوله " لهم دار السلام " وهى الجنة " عند ربهم " أى : يوم القيامة . وإنما وصف الله الجنة ههنا بدار السلام ، لسلامتهم فيما سلكوه من الصراط المستقيم ، المقتفى

أثر الأنبياء وطرائقهم ، فكما سلموا من آفات الاعوجاج أفضوا إلى دار السلام " وهو وليهم " أى : حافظهم وناصرهم ومؤيدهم " بما كانوا يعملون " أى : جزاء على أعمالهم الصالحة تولاهم وأثابهم الجنة بمنه وكرمه .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَٰمَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ ، وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِى أَجَّلْتَ لَنَا ، قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨) ﴾ .

يقول تعالى : واذكر يا محمد فيما تقصه عليهم وتنذرهم به " يوم يحشرهم جميعاً " يعنى الجنَّ وأولياءَهم ، الذين كانوا يعبدونهم فى الدنيا ، ويعوذون بهم ويطيعونهم ويوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً " يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس " أى : ثم يقول : يا معشر الجن . وسياق الكلام يدل على المحذوف . ومعنى قوله " قد استكثرتم من الإنس " أى : من إضلالهم وإغوائهم . كما قال تعالى : ﴿ ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان ، إنه لكم عدو مبين * وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم * ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً ، أفلم تكونوا تعقلون ﴾ . وقال ابن عباس " قد استكثرتم من الإنس " يعنى : أضللتم منهم كثيراً . وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة " وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض " يعنى : أن أولياء الجن من الإنس قالوا مجيبين لله تعالى عن ذلك بهذا . وقال ابن جريج : كان الرجل فى الجاهلية ينزل الأرض فيقول : أعوذ بكبير هذا الوادى ! فذلك استمتاعهم ، فاعتذروا يوم القيامة ، وأما استمتاع الجن بالإنس فإنه كان — فيما ذكر — ما ينال الجن من الإنس من تعظيمهم إياهم فى استعانتهم بهم ، فيقولون : قد سدنا الإنس والجن . " وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا " قال السدى : أى الموت " قال النار مثواكم " أى : مأواكم ومنزلكم أنتم وأولياؤكم " خالدين فيها " أى : ماكثين فيها مكثاً مخلداً " إلا ما شاء الله " قال بعضهم : يرجع معنى هذا الاستثناء إلى البرزخ.

وقال بعضهم : هذا ردّ إلى مدة الدنيا . وقيل غير ذلك من الأقوال ، التى سيأتى تقريرها عند قوله تعالى فى سورة هود: ﴿ خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ، إن ربك فعال لما يريد ﴾ . وقد روى ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس " قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله ، إن ربك حكيم عليم " قال : إن هذه الآيةَ آيةٌ لا ينبغى لأحد أن يحكم على الله فى خلقه ، لا ينزلهم جنةً ولا ناراً .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ الظَّٰلِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩) ﴾ .

قال سعيد عن قتادة فى تفسيرها : إنما يولى الله بين الناس بأعمالهم ، فالمؤمن ولىّ المؤمن أين كان وحيث كان ، والكافر ولى الكافر أينما كان وحيثما كان ، ليس الإيمان بالتمنى ولا بالتحلى . واختار هذا القول ابنُ جرير ، وقال قتادة فى تفسيرها : يولى الله بعض الظالمين بعضاً فى النار ، يتبع بعضهم بعضاً . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله " وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً " قال: ظالمى الجن وظالمى الإنس ، وقرأ : ﴿ ومن يَعْشُ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾ ، قال : ونسلط ظلمة الجن على ظلمة الإنس . ومعنى الآية الكريمة : وكما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التى أغوتهم من الجن ، كذلك نفعل بالظالمين ، نسلط بعضهم على بعض ، ونهلك بعضهم ببعض ، وننتقم من بعضهم ببعض ، جزاءً على ظلمهم وبغيهم .

﴿ يَٰمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ، قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ، وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا ، وَشَهِدُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَٰفِرِينَ (١٣٠) ﴾ .

وهذا أيضاً مما يقرع الله سبحانه وتعالى – به كافرِى الجنّ والإنسِ يوم

القيامة ، حيث يسألهم — وهو أعلم : هل بلغتهم الرسلُ رسالاتِه ؟ وهذا استفهام تقرير "يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم " أى : من جملتكم. والرسل من الإنس فقط ، وليس من الجن رسل ، كما نص على ذلك مجاهد وابن جريج وغير واحد من الأئمة من السلف والخلف . وقال ابن عباس : الرسل من بنى آدم ، ومن الجن نُذُر . وحكى ابن جرير عن الضحكاك بن مزاحم : أنه زعم أن فى الجن رسلاً ، واحتج بهذه الآية الكريمة . وفيه نظر ، لأنها محتملة وليست بصريحة . وهى — والله أعلم — كقوله ﴿ مرج البحرين يلتقيان ﴾ أى : المالح والحلو ﴿ بينهما برزخ لا يبغيان ﴾ إلى أن قال : ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ . ومعلوم : أن اللؤلؤ والمرجان إنما يستخرجان من الملح لا من الحلو . وهذا واضح ، ولله الحمد . وقد نص على هذا الجواب بعينه ابنُ جرير . والدليل على أن الرسل إنما هم من الإنس ، قوله تعالى : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ﴾ إلى قوله ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ . وقال تعالى عن إبرهيم : ﴿ وجعلنا فى ذرّيته النبوّة والكتاب ﴾ . فحصر النبوّة والكتاب بعد إبرهيم فى ذريته ، ولم يقل أحد من الناس أن النبوة كانت فى الجن قبل إبرهيم الخليل ثم انقطعت عنهم ببعثته . وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ﴾ . وقال : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى ﴾ . ومعلوم أن الجن تبع للإنس فى هذا الباب . ولهذا قال تعالى إخباراً عنهم : ﴿ وإذْ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا أنصتوا ، فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين * قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه ، يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم * يا قومنا أجيبوا داعىَ الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم * ومن لا يجب داعىَ الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء ، أولئك فى ضلال مبين ﴾ . وقد جاء فى الحديث الذى رواه الترمذى وغيره : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا عليهم سورة الرحمن ، وفيها قوله تعالى ﴿ سنفرغ لكم أيها الثقلان * فبأى

آلاء ربكما تكذبان) » [١] . وقال تعالى فى هذه الآية الكريمة " يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا ، قالوا شهدنا على أنفسنا " أى : أقررنا أن الرسل قد بلغونا رسالاتك وأنذرونا لقاءك وأن هذا اليوم كائن لا محالة . قال تعالى " وغرتهم الحياة الدنيا " أى : وقد فرطوا فى حياتهم الدنيا ، وهلكوا فيها بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم المعجزات ، لما اغتروا به من زخرف الحياة الدنيا وزينتها وشهواتها "وشهدوا على أنفسهم " أى : يوم القيامة " أنهم كانوا كافرين " أى : فى الدنيا ، بما جاءتهم به الرسل ، صلوات الله وسلامه عليهم .

﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ، وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

يقول تعالى " ذلك أن لم يكن ربك مهلكَ القرى بظلم وأهلها غافلون " أى : إنما أعذرنا إلى الثقلين بإرسال الرسل وإنزال الكتب ، لئلا يعاقب أحداً بظلمه وهو لم تبلغه دعوة ، ولكن أعذرنا إلى الأمم ، وما عذبنا أحداً إلا بعد إرسال الرسل إليهم . كما قال تعالى: ﴿ وإن من قرية إلا خلا فيها نذير﴾ . وقال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ وقال تعالى: ﴿ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير﴾ . والآيات فى هذا كثيرة . قال الإمام أبو جعفر بن جرير : ويحتمل قوله تعالى " بظلم " وجهين : أحدهما : ذلك من أجل أن ربك لم يكن ليهلك القرى بظلم أهلها بالشرك ونحوه وهم

---

(١) الترمذى ٤ : ١٩١ - ١٩٢ ، من حديث جابر ، قال : « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه ، فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها ، فسكتوا ، فقال : لقد قرأتها على الجن ليلة الجن ، فكانوا أحسن مردوداً منكم ، كنت كلما أتيت على قوله (فبأى آلاء ربكما تكذبان) - قالوا : لا بشىء من نعمك ربنا نكذب ، فلك الحمد » . قال الترمذى : « هذا حديث غريب » . ورواه الحاكم ٤ : ٤٧٣ ، وقال : « صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه » . ووافقه الذهبى .

غافلون . يقول : لم يكن يعاجلهم بالعقوبة حتى يبعث إليهم رسولا ينبههم على حجج الله عليهم ، وينذرهم عذابَ الله يوم معادهم ، ولم يكن بالذى يؤاخذهم غفلةً فيقولوا : ما جاءنا من بشير ولا نذير . والوجه الثانى : " ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم " يقول : لم يكن ليهلكهم دون التنبيه والتذكير بالرسل والآيات والعبر ، فيظلمهم بذلك ، والله غير ظلام لعبيده . ثم شرع يرجح الوجه الأول ، ولا شك أنه أقوى . والله أعلم . وقال : وقوله " ولكل درجات مما عملوا " أى : ولكل عامل من طاعة الله أو معصيته منازل ومراتب من عمله ، يبلغه الله إياها ، ويثيبه بها ، إن خيراً فخيراً وإن شرًّا فشرًّا . قلت : ويحتمل أن يعود قوله " ولكل درجات مما عملوا " أى : من كافرى الجن والإنس ، أى : ولكلٍّ درجةٌ فى النار بحسبه . كقوله: ﴿قال لكل ضعف﴾ . وقوله ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾ . ﴿وما ربك بغافل عما يعملون﴾ . قال ابن جرير : أى : وكل ذلك من عملهم يا محمد بعلمٍ من ربك ، يحصيها ويثبتها لهم عنده ، ليجازيهم عليها عند لقائهم إياه ومعادهم إليه .

﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِّنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَٰقِبَةُ الدَّارِ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

يقول تعالى " وربك " يا محمد " الغنىّ " أى : عن جميع خلقه من جميع الوجوه ، وهم الفقراء إليه فى جميع أحوالهم " ذو الرحمة " أى : وهو مع ذلك رحيم بهم . كما قال تعالى: ﴿إن الله بالناس لرؤف رحيم﴾ . " إن يشأ يذهبكم " أى : إذا خالفتم أمره " ويستخلف من بعدكم ما يشاء " أى : قوماً آخرين ،

أى : يعملون بطاعته " كما أنشأكم من ذرّية قوم آخرين " أي : هو قادر على ذلك سهل عليه يسير لديه ، كما أذهب القرن الأول وأتى بالذى بعده ، كذلك هو قادر على إذهاب هؤلاء والإتيان بآخرين . كما قال تعالى : ﴿ إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين ، وكان الله على ذلك قديراً ﴾ . وقال تعالى : ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد * إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ، وما ذلك على الله بعزيز ﴾ . وقال تعالى : ﴿ والله الغنى وأنتم الفقراء ، وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ . وروى ابن إسحق عن أبان بن عثمان ، قال : الذرية : الأصل ، والذرية : النسل . وقوله تعالى " إنما توعدون لآتٍ " أى : أخبرهم يا محمد أن الذى توعدون به من أمر المعاد كائن لا محالة " وما أنتم بمعجزين " أى : لا تعجزون الله ، بل هو قادر على إعادتكم وإن صرتم تراباً ورفاتاً وعظاماً ، هو قادر لا يعجزه شيء . وقوله تعالى " قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل " هذا تهديد ، أى : استمروا على طريقتكم وناحيتكم إن كنتم تظنون أنكم على هدى ، فأنا مستمرّ على طريقتى ومنهجى . كما قال تعالى: ﴿ وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون * وانتظروا إنا منتظرون ﴾ قال ابن عباس " على مكانتكم " أى : ناحيتكم " فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار ، إنه لا يفلح الظالمون " أى : أتكون لى أو لكم . وقد أنجز موعوده لرسوله صلوات الله عليه ، فإنه تعالى مكّن له فى البلاد ، وحكّمه فى نواصى مخالفيه من العباد ، وفتح له مكة ، وأظهره على من كذبه من قومه وعاداه وناوأه ، واستقر أمره على سائر جزيرة العرب ، وكذلك اليمن والبحرين ، وكل ذلك فى حياته . ثم فتحت الأمصار والأقاليم والرساتيق بعد وفاته ، فى أيام خلفائه رضى الله عنهم . كما قال تعالى : ﴿ كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلى ﴾ . وقال تعالى : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد * يوم لاينفع الظالمين معذرتهم ، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾ . وقال تعالى: ﴿ ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ﴾ . وقال تعالى إخباراً عن رسله : ﴿ فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين * ولنسكننكم الأرض من

بعدهم ، ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ﴾ – الآية . وقد فعل الله ذلك بهذه الأمة ، وله الحمد والمنة أولاً وآخراً ، وظاهراً وباطناً .

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَـٰمِ نَصِيباً فَقَالُوا هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَائِنَا ، فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ، وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) ﴾ .

هذا ذمّ وتوبيخ من الله تعالى للمشركين الذين ابتدعوا بدعاً وكفراً وشركاً ، وجعلوا لله جزءاً من خلقه ، وهو خالق كل شيء ، سبحانه وتعالى عما يشركون . ولهذا قال تعالى " وجعلوا لله مما ذرأ " أى : مما خلق وبرأ " من الحرث " أى : الزرع والثمار " والأنعام نصيباً " أى : جزءاً وقسماً " فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا " وقوله " فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم " قال ابن عباس فى تفسير هذه الآية : إن أعداء الله كانوا إذا احترثوا حرثاً أو كانت لهم ثمرة جعلوا لله منه جزءاً وللوثن جزءاً ، فما كان من حرث أو ثمرة أو شيء من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه ، وإن سقط منه شيء فيما سموه للصمد ردّوه إلى ما جعلوه للوثن ، وإن سبقهم الماء الذى جعلوه للوثن فسقى شيئاً جعلوه لله جعلوا ذلك للوثن ، وإن سقط شيء من الحرث والثمرة التى جعلوها لله فاختلط بالذى جعلوه للوثن قالوا : هذا فقير ! ولم يردّوه إلى ما جعلوا لله ، وإن سبقهم الماء الذى جعلوا لله فسقى ما سمى للوثن تركوه للوثن ، وكانوا يحرمون من أموالهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، فيجعلونه للأوثان ، ويزعمون أنهم يحرمونه لله ، فقال الله عز وجل " وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً " الآية . وهكذا قال مجاهد وقتادة والسدى وغير واحد . " ساء ما يحكمون " أى : ساء ما يقسمون ، فإنهم أخطؤا أولاً فى القسمة ، لأن الله تعالى

هو رب كل شيء ومليكه وخالقه ، وله الملك ، وكل شيء له وفي تصريفه وتحت قدرته ومشيئته ، لا إله غيره ، ولا رب سواه . ثم لما قسموا فيما زعموا لم يحفظوا القسمة ، بل جاروا فيها ، كما قال تعالى : ﴿ ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون ﴾ . وقال تعالى: ﴿ وجعلوا له من عباده جزءاً ، إن الإنسان لكفور مبين﴾ . وقال تعالى : ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى * تلك إذاً قسمة ضيزَى﴾ .

﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ، فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧) ﴾ .

يقول تعالى وكما زينت الشياطينُ لهؤلاء أن يجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ، كذلك زينوا لهم قتل أولادهم خشيةَ الإملاق ، ووأد البنات خشية العار . قال ابن عباس : زينوا لهم قتل أولادهم . وقال مجاهد : " شركاؤهم " شياطينهم ، يأمرونهم أن يئدوا أولادهم خيفة العَيْلَة . وقال السدى : أمرتهم الشياطين أن يقتلوا البنات ، وأما " ليردوهم " : فيهلكوهم ، وأما " ليلبسوا عليهم دينهم " : فيخلطوا عليهم دينهم . ونحوَ ذلك قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وقتادة . وهذا كقوله تعالى : ﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداًّ وهو كظيم * يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ، ألا ساء ما يحكمون ﴾ وقال تعالى : ﴿ وإذا الموؤدة سئلتْ * بأى ذنب قتلت ﴾ وقد كانوا أيضاً يقتلون الأولاد من الإملاق ، وهو الفقر ، أو خشية الإملاق أن يحصل لهم فى ثانى الحال . وقد نهاهم عن قتل أولادهم لذلك . وإنما كان هذا كله من شرع الشيطان وتزيينه لهم ذلك . قال الله تعالى " ولو شاء الله ما فعلوه " أى : كل هذا واقع بمشيئته تعالى وإرادته واختياره لذلك كوناً ، وله الحكمة التامة فى ذلك ، فلا يسأل عما يفعل وهم يسئلون .

﴿ وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ ، لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَّشَاءُ

بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَـٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَـٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ، سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨) ﴾ .

قال ابن عباس : الحِجْر الحرام ، ما حرموا من الوصيلة وتحريم ما حرموا . وكذلك قال مجاهد وقتادة وغيرهما . وقال السدى " لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم " يقولون : حرام أن يطعم إلا من شئنا . وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى ﴿ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً ، قل آلله أذن لكم ، أم على الله تفترون ﴾ . وكقوله تعالى : ﴿ ما جعل الله من بحيرة ولاسائبة ولا وصيلة ولا حام ، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون ﴾ . وقال مجاهد : كان من إبلهم طائفة لا يذكرون اسم الله عليها ولا فى شىء من شأنها ، لا إن ركبوا ، ولا إن حلبوا ، ولا إن حملوا ، ولا إن نُتِجوا ، ولا إن عملوا شيئاً . " افتراء عليه " أى : على الله ، وكذباً منهم فى إسنادهم ذلك إلى دين الله وشرعته ، فإنه لم يأذن لهم فى ذلك ولا رضيه منهم ، و " سيجزيهم بما كانوا يفترون " أى : عليه ، ويسندون إليه .

﴿ وَقَالُوا مَا فِى بُطُونِ هَـٰذِهِ ٱلْأَنْعَـٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ، وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ، سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ، إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩) ﴾ .

قال ابن عباس وقالوا " ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا " قال : اللبن ، كانوا يحرمونه على إناثهم ويشربه ذكرانهم ، وكانت الشاة إذا ولدت ذكراً ذبحوه وكان للرجال دون النساء ، وإن كانت أنثى تُركت فلم تذبح ، وإن كانت ميتةً فهم فيه شركاء ، فنهى الله عن ذلك . وقال مجاهد وقتادة فى قوله " سيجزيهم وصفهم " أى : قولهم الكذب فى ذلك . يعنى كقوله تعالى : ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ، إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ﴾ — الآية .

" إنه حكيم " أى : فى أفعاله وأقواله وشرعه " عليم " بأعمال عباده من خير وشر ، وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء .

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ، قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٤٠) ﴾ .

يقول تعالى : قد خسر الذين صنعوا هذه الأفاعيل فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا ، فخسروا أولادهم بقتلهم ، وضيقوا عليهم فى أموالهم ، فحرموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم ، وأما فى الآخرة ، فيصيرون إلى شرّ المنازل بكذبهم على الله وافترائهم . كما قال تعالى : ﴿ قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾ . وروى ابن مردويه عن ابن عباس ، قال : إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام " قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين " » وهكذا رواه البخارى منفرداً (١) .

﴿ وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ، كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ، وَلَا تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١) وَمِنَ الْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ، كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَـٰنِ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٤٢) ﴾ .

يقول تعالى بياناً لأنه الخالق لكل شىء من الزروع والثمار والأنعام ، التى تصرف فيها هؤلاء المشركون بآرائهم الفاسدة ، وقسموها وجزّؤوها ، فجعلوا منها حراماً وحلالاً ، فقال " وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات "

(١) يعنى دون صحيح مسلم . وهو فى البخارى ٦ : ٤٠١ (فتح) .

قال ابن عباس " معروشات " ما عرش من الكرم " وغير معروشات " ما لم يعرش من الكرم . وكذا قال السدى . وقال ابن جريج " متشابهاً وغير متشابه " قال : متشابهاً فى المنظر وغير متشابه فى المطعم . وقال محمد بن كعب "كلوا من ثمره إذا أثمر" قال : من رطبه وعنبه . وقوله تعالى " وآتوا حقه يوم حصاده " قال ابن جرير : قال بعضهم : هى الزكاة المفروضة . وروى عن أنس بن مالك قال " وآتوا حقه يوم حصاده " قال : الزكاة المفروضة [1] . وقال ابن عباس : يعنى الزكاة المفروضة ، يوم يكال ويعلم كيله ، وكذا قال سعيد بن المسيب .وقد روى الإمام أحمد وأبو داود عن جابر بن عبد الله : «أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر من كل جادٍّ عشرة أوسق من التمر بِقِنْوٍ يعلّق فى المسجد للمساكين » . وإسناده جيد قوى [2] . وقال طاوس وأبو الشعثاء وقتادة والحسن والضحاك وابن جريج : هى الزكاة . وقال الحسن البصرى : هى الصدقة من الحب والثمار. وقال آخرون : هو حق آخر سوى الزكاة . وقال مجاهد : عند الزرع يعطى القبضة ، وعند الصِّرام يعطى القبضة ، ويتركهم فيتبعون آثار الصِّرام . وقال سعيد بن جبير : كان هذا قبل الزكاة ، للمساكين القبضة والضغث لعلف دابته . وقال آخرون : هذا شيء كان واجباً ثم نسخه الله بالعُشْر أو نصف العشر. حكاه ابن جرير عن ابن عباس ومحمد بن الحنفية وإبرهيم النخعى وغيرهم . واختاره ابن جرير . قلت : وفى تسمية هذا نسخاً نظر ، لأنه قد كان شيئاً واجباً فى الأصل ، ثم إنه فُصل بيانُه وبُيِّن مقدارُ المخرج وكميته . قالوا : وكان هذا فى السنة الثانية من الهجرة . فالله أعلم . وقد ذم الله سبحانه الذين يصرمون ولا يتصدقون ، كما ذكر عن أصحاب الجنة فى سورة

---

(١) الطبرى : ١٣٩٦٣ ، وإسناده صحيح . يزيد بن درهم أبو العلاء العجمى — راويه عن أنس : تابعى ثقة ، ترجمه البخارى فى الكبير ٤ / ٢ / ٣٣٠ فلم يذكر فيه جرحاً . وترجمه ابن أبى حاتم ٤ / ٢ / ٢٦٠ وروى عن عبد الصمد بن عبد الوارث أنه قال : « وكان ثقة » . ثم روى عن يحيى بن معين أنه قال : « ليس بشىء » . وتلميذه عبد الصمد أعرف به من ابن معين .

(٢) المسند : ١٤٩٢٤ . وأبو داود : ١٦٦٢ . وقوله « من جاد عشرة أوسق » : الجاد ، بالدال المهملة المشددة — بمعنى المجدود ، أى : نخلا يجد منه هذا القدر . وهو من « الجداد » بفتح الجيم وتخفيف الدال ، وهو قطع ثمر النخل .

ن : ﴿إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون * فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون * فأصبحت كالصريم﴾ أى : كالليل المدلهم سوداء محترقة ﴿فتنادوا مصبحين * أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين * فانطلقوا وهم يتخافتون * أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين * وغدوا على حرد﴾ أى : قوة وجلد وهمة ﴿قادرين * فلما رأوها قالوا إنا لضالون بل نحن محرومون * قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون * قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين * فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون * قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين * عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون * كذلك العذاب ، ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾ . وقوله " ولا تسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين " قيل معناه : لا تسرفوا فى الإعطاء فتعطوا فوق المعروف . وقال عطاء: نُهوا عن السَّرَفِ فى كل شىء . وقال السدى : لا تعطوا أموالكم فتقعدوا فقراء . وقال سعيد بن المسيب ومحمد بن كعب : لا تمنعوا الصدقة فتَعْصُوا . ثم اختار ابن جرير قول عطاء : أنه نهى عن الإسراف فى كل شىء . ولا شك أنه صحيح ، لكن الظاهر – والله أعلم – من سياق الآية ، حيث قال تعالى " كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ، ولا تسرفوا " أن يكون عائداً على الأكل . أى : لا تسرفوا فى الأكل ، لما فيه من مضرة العقل والبدن . كما قال تعالى : ﴿كلوا واشربوا ولا تسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين﴾ . وفى صحيح البخارى تعليقاً : « كلوا واشربوا والبسوا فى غير إسراف ولا مَخِيلة »[1]. وهذا من هذا. والله أعلم . وقوله " ومن الأنعام حمولةً وفرشاً " أى : وأنشأ لكم من الأنعام ما هو حمولة وما هو فرش . قيل : المراد بالحمولة ما يحمل عليه من الإبل ، والفرش الصغار منها . كما قال عبد الله ، فى قوله " حمولة " ما حمل عليه من الإبل " وفرشاً " الصغار من الإبل . رواه الحاكم ، وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وقال ابن عباس الحمولة هى الكبار ، والفرش

---

(١) البخارى ١٠ : ٢١٥ (فتح) . ورواه أحمد فى المسند : ٦٦٩٥ ، من حديث عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، وسيذكره المؤلف الحافظ مخرجاً ، عند الآية : ٣١ من سورة الأعراف . و « المخيلة » – بفتح الميم : الخيلاء .

الصغار من الإبل . وكذا قال مجاهد . وقال ابن عباس : أما الحمولة فالإبل والخيل البغال والحمير وكل شيء يحمل عليه ، وأما الفرش فالغنم . واختاره ابن جرير ، وقال : وأحسبه إنما سمى فرشاً لدنوه من الأرض . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الحمولة ما تركبون ، والفرش ما تأكلون وتحلبون ، شاة لا تَحمل تأكلون لحمها وتتخذون من صوفها لحافاً وفرشاً ، وهذا الذى قاله عبد الرحمن — فى تفسير هذه الآية الكريمة — حسن . يشهد له قوله تعالى : ﴿ أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون * وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وإن لكم فى الأنعام لعبرة ، نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ﴾ ، إلى أن قال ﴿ ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين ﴾ . وقال تعالى : ﴿ الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون * ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم ، وعليها وعلى الفلك تحملون * ويريكم آياته ، فأىَّ آيات الله تنكرون ﴾ . وقوله " كلوا مما رزقكم الله " أى : من الثمار والزروع والأنعام ، فكلها خلقها الله وجعلها رزقاً لكم " ولا تتبعوا خطوات الشيطان " أى : طريقه وأوامره ، كما اتبعها المشركون الذين حرموا ما رزقهم الله ، أى : من الثمار والزروع ، افتراءً على الله " إنه " أى : إن الشيطان — أيها الناس " لكم عدوٌّ مبين " أى : مبين ظاهر العداوة . كما قال تعالى : ﴿ إن الشيطان لكم عدوٌّ فاتخذوه عدوًّا ، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ . وقال تعالى : ﴿ يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما ﴾ — الآية . وقال تعالى : ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدوٌّ ، بئس للظالمين بدلاً ﴾ . والآيات فى هذا كثيرة فى القرآن .

﴿ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَاجٍ ، مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ، قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ ، نَبِّئُونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ

ٱثْنَيْنِ ، قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ، أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٤٤) ﴾ .

وهذا بيان لجهل العرب قبل الإسلام ، فيما كانوا حرموا من الأنعام ، وجعلوها أجزاء وأنواعاً : بحيرةً وسائبةً ووصيلةً وحاماً ، وغيرَ ذلك من الأنواع التى ابتدعوها فى الأنعام والزروع والثمار . فبين تعالى أنه أنشأ جنات معروشات وغير معروشات ، وأنه أنشأ من الأنعام حمولةً وفرشاً . ثم بين أصناف الأنعام إلى غنم ، وهو بياض وهو الضأن ، وسواد وهو المَعْزُ ذكرُه وأنثاه ، وإلى إبل ذكورها وإناثها ، وبقر كذلك ، وأنه تعالى لم يحرم شيئاً من ذلك ، ولا شيئاً من أولادها ، بل كلها مخلوقة لبنى آدم أكلاً وركوباً وحمولةً وحلباً وغير ذلك من وجوه المنافع . كما قال : ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾ — الآية . وقوله تعالى " أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين " رد عليهم فى قولهم ﴿ ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ﴾ — الآية . وقوله " نبئونى بعلم إن كنتم صادقين " أى : أخبرونى عن يقينٍ : كيف حرم الله عليكم ما زعمتم تحريمه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك ؟ وقوله " أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا " تهكم بهم فيما ابتدعوه وافتروه على الله من تحريم ما حرموه من ذلك " فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم " أى لا أحدَ أضلّ منه " إن الله لا يهدى القوم الظالمين " . وأول من دخل فى هذه الآية عمرو بن لُحَىّ بن قَمَعَة ، لأنه أول من سَيَّب السوائب ووصل الوصيلة وحمى الحام ، كما ثبت ذلك فى الصحيح [1] .

(١) انظر ما مضى ، ج ٤ ص ٢٤٤ — ٢٤٨ .

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ، فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤٥) ﴾ .

يقول تعالى آمراً عبدَه ورسوله محمداً صلوات الله وسلامه عليه " قل " لهؤلاء الذين حرموا ما رزقهم الله افتراءً على الله : " لا أجد فيما أوحى إلىّ محرماً على طاعمٍ يطعمه " أى : آكلٍ يأكله . قيل معناه : لا أجد شيئاً مما حرمتم حراماً سوى هذه . وقيل معناه : لا أجد من الحيوانات شيئاً حراماً سوى هذه . فعلى هذا يكون ما ورد من التحريمات بعد هذا فى سورة المائدة وفى الأحاديث الواردة — رافعاً لمفهوم هذه الآية . ومن الناس من يسمى هذا نسخاً ، والأكثرون من المتأخرين لا يسمونه نسخاً ، لأنه من باب رفع مباح الأصل . والله أعلم . وقال ابن عباس " أو دماً مسفوحاً " يعنى : المُهَرَاق . وقال عكرمة فى قوله " أو دماً مسفوحاً " — : لولا هذه الآية لتتبع الناس ما فى العروق ، كما تتبعه اليهود . وقال قتادة : حرم من الدماء ما كان مسفوحاً ، فأما اللحم خالطه الدم فلا بأس به . وروى ابن جرير عن عائشة : أنها كانت لا ترى بلحوم السباع بأساً ، والحمرة والدم يكونان على القِدْر ، وقرأتْ هذه الآية . صحيح غريب [١] . وروى الحميدى عن عمرو بن دينار : « قال : قلت لجابر بن عبد الله : إنهم يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن لحوم الحمر الأهلية زمن خيبر ؟ فقال : قد كان يقول ذلك الحكم بن عمرو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن أبى ذلك البَحْرُ ، يعنى ابن عباس ، وقرأ " قل لا أجد فيما أوحى إلىّ محرماً على طاعم يطعمه " الآية » . رواه البخارى ، وأخرجه أبوداود ، ورواه الحاكم ، مع أنه فى صحيح البخارى كما رأيت [٢] . وروى ابن مردويه والحاكم عن ابن عباس ، قال : « كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ، ويتركون أشياءَ تقذُّراً ، فبعث الله نبيه ، وأنزل كتابه ، وأحلّ حلاله ، وحرّم حرامه ،

---

(١) الطبرى : ١٤٠٩٠ .

(٢) البخارى ٩ : ٥٦٤ — ٥٦٥ ، مختصراً قليلا . ولكن فيه « جابر بن زيد » ، بدل « جابر

فما أحل فهو حلال ، وما حرَّم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو ، وقرأ هذه الآية " قل لا أجد فيما أوحى إلىّ محرماً على طاعم يطعمه " إلى آخر الآية » .
وهذا لفظ ابن مردويه ، ورواه أبو داود ، وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه [١] . وروى الإمام أحمد عن ابن عباس ، قال : « ماتت شاةٌ لسودة بنت زَمْعة ، فقالت : يا رسول الله ، ماتتْ فلانة — تعنى الشاة — قال : فلولا أخذتم مَسْكها؟ قالت : نأخذ مَسْك شاة قد ماتت؟ فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما قال الله " قل لا أجد فيما أوحى إلىّ محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير " وإنكم لا تَطْعمونه أنْ تدبغوه فتنتفعوا به ، فأرسلتْ فسلختْ مسكها ، فاتخذت منه قربةً حتى تخرقت عندها » . [٢] . ورواه البخارى والنسائى عن ابن عباس عن سودة بنت زمعة ، بذلك أو نحوه . وقال سعيد بن منصور : حدثنا عبد العزيز بن محمد ، عن عيسى بن نُمَيْلة الفزارى عن أبيه ، قال : « كنت عند ابن عمر ، فسأله رجل عن أكل القنفذ ؟ فقرأ عليه " قل لا أجد فيما أوحى إلىّ محرماً على طاعم يطعمه " — الآية ، فقال شيخ عنده : سمعت أبا هريرة يقول : ذُكر عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال : خبيث من الخبائث ، فقال ابن عمر : إن كان النبى صلى الله عليه وسلم قاله فهو كما قال » . ورواه أبو داود [٣] . وقوله تعالى " فمن اضطر غير باغ ولا عاد " أى : فمن اضطر إلى أكل شىء مما حرم الله فى هذه الآية الكريمة ، وهو غير متلبس ببغى ولا عدوان " فإن ربك غفور رحيم " أى :

بن عبد الله » . وجابر بن زيد : هو أبو الشعثاء التابعى . ورواية الحاكم فى المستدرك ٢ : ٣١٧ كرواية الحميدى التى ذكرها الحافظ ابن كثير هنا . وأما رواية أبى داود : ٣٨٠٨ ففى إسنادها راو مبهم ، وفيها اختلاف عن هاتين الروايتين . والظاهر أنها خطأ من أحد الرواة .

(١) الحاكم ٤ : ١١٥ ، ووافقه الذهبى على تصحيحه . وهو فى أبى داود : ٣٨٠٠ . ورواه أيضاً ابن حزم فى الإحكام ٨ : ٢٨ (بتحقيقنا) . واختصره قليلا من آخره ، فلم يذكر الآية .

(٢) المسند : ٣٠٢٧ .

(٣) أبو داود : ٣٧٩٩ ، من طريق سعيد بن منصور .

غفور له رحيم به . وقد تقدم تفسير هذه الآية فى سورة البقرة بما فيه كفاية [١] .
والمقصود من سياق هذه الآية الكريمة الردّ على المشركين الذين ابتدعوا ما ابتدعوه من تحريم المحرمات على أنفسهم بآرائهم الفاسدة ، من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك . فأمر الله رسوله أن يخبرهم أنه لا يجد فيما أوحاه الله إليه أن ذلك محرم ، وإنما حرم ما ذكر فى هذه الآية من الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، وما عدا ذلك فلم يحرم ، وإنما هو عفو مسكوت عنه ، فكيف تزعمون أنتم أنه حرام ؟ ومن أين حرمتموه ولم يحرمه الله ؟!
وعلى هذا فلا ينفى تحريمَ أشياء أخر فيما بعد هذا ، كما جاء النهى عن لحوم الحمر الأهلية ولحوم السباع وكل ذى مخلب من الطير ، على المشهور من مذاهب العلماء .

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ، وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ، ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ ، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦) ﴾ .

قال ابن جرير : يقول تعالى : وحرمنا على اليهود كل ذى ظفر ، وهو البهائم والطير ما لم يكن مشقوقَ الأصابع ، كالإبل والنعام والأوز والبط . قال ابن عباس : هو البعير والنعامة . وكذا قال مجاهد . وقوله " ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما " قال السدى : يعنى الثَّرْبَ وشحم الكليتين [٢] . وكانت اليهود تقول : إنه حرمه إسرائيل فنحن نحرمه . وكذا قال ابن زيد . وقال قتادة : الثرب وكل شحم كان كذلك ليس فى عظم . وقوله " أو الحوايا " قال ابن جرير « الحوايا » جمع ، واحدها « حاوياء » و « حاوية » و « حوية » وهو ما تحوى من البطن فاجتمع واستدار ، وهى بنَاتُ اللبَنِ ، وهى المباعر ، وتسمى المرابض ، وفيها الأمعاء . قال : ومعنى الكلام : ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما ،

---

(١) مضى ج ٢ ص ٨ .
(٢) « الثرب » – بفتح الثاء المثلثة وسكون الراء : شحم رقيق يغشى الكرش والأمعاء .

إلا ما حملت ظهورهما وما حملت الحوايا. وقوله تعالى " أو ما اختلط بعظم " يعنى : إلا ما اختلط من الشحوم بعظم فقد أحللناه لهم . وقال ابن جريج : شحم الألية اختلط بالعصعص ، فهو حلال ، وكل شىء فى القوائم والجنب والرأس والعين وما اختلط بعظم فهو حلال . ونحوه قال السدى . وقوله تعالى " ذلك جزيناهم ببغيهم " أى : هذا التضييق إنما فعلناه بهم وألزمناهم به مجازاةً على بغيهم ومخالفتهم أوامرنا . كما قال تعالى : ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيباتٍ أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً ﴾ . وقوله " وإنا لصادقون" أى : وإنا لعادلون فيما جزيناهم به . وقال ابن جرير : وإنا لصادقون فيما أخبرناك به يا محمد من تحريمنا ذلك عليهم ، لا كما زعموا من أنّ إسرائيل هو الذى حرمه على نفسه . والله أعلم . وقال عبد الله بن عباس : « بلغ عمرَ بن الخطاب أن سَمُرَةَ باع خمراً، فقال: قاتل الله سمرة، ألم يعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لعن الله اليهود ، حرمت عليهم الشحوم فجَمَلُوها فباعوها » . أخرجاه . وعن جابر بن عبد الله قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عام الفتح : إن الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام ، فقيل: يا رسول الله ، أرأيتَ شحوم الميتة، فإنها يُدهن بها الجلود ، وتُطلى بها السفن ، ويَستصبح بها الناس ؟ فقال : لا ، هو حرام ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك: قاتل الله اليهود، إن الله لما حرم عليهم شحومها جَمَلُوه ثم باعوه وأكلوا ثمنه » . رواه الجماعة . وعن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قاتل الله اليهود ، حرمت عليهم الشحومُ فباعوها وأكلوا ثمنها » . رواه البخارى ومسلم ، وروى ابن مردويه عن ابن عباس : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قاعداً خلف المقام ، فرفع بصره إلى السماء ، فقال : لعن الله اليهود — ثلاثاً — إن الله حرم عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا ثمنها ، وإن الله لم يحرم على قوم أكل شىء إلا حرم عليهم ثمنه » [١] . وروى الإمام أحمد

---

(١) رواه البخارى فى التاريخ الكبير — مختصراً — من الوجه الذى رواه ابن مردويه ١/٢/ ١٤٧ ، وإسنادها صحيح .

عن ابن عباس ، قال : «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعداً فى المسجد مستقبلاً الحجر ، فنظر إلى السماء فضحك ، [ثم] قال : لعن الله اليهود ، حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا أثمانها ، وإن الله إذا حرم على قوم أكل شيء حرم عليهم ثمنه » . ورواه أبو داود [١] .

﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ ، وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾

يقول تعالى : فإن كذبك يا محمد مخالفوك من المشركين واليهود ومن شابههم " فقل ربكم ذو رحمة واسعة " وهذا ترغيب لهم فى ابتغاء رحمة الله الواسعة باتباع رسوله " ولا يردّ بأسه عن القوم المجرمين " ترهيب لهم فى مخالفتهم الرسول خاتم النبيين . وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب فى القرآن . كما قال تعالى فى آخر هذه السورة : ﴿ إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾ . وقال : ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ، وإن ربك لشديد العقاب ﴾ . وقال تعالى : ﴿ نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم * وأن عذابى هو العذاب الأليم ﴾ . وقال تعالى : ﴿ غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ﴾ . وقال تعالى : ﴿ إن بطش ربك لشديد * إنه هو يبدئ ويعيد * وهو الغفور الودود ﴾ ، والآيات فى هذا كثيرة جدًّا .

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ ، كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ، قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ، إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَٰلِغَةُ ، فَلَوْ شَاءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ، فَإِنْ شَهِدُوا

---

(١) المسند : ٢٢٢١ . وإسناده صحيح .

فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١٥٠) ﴾ .

هذه مناظرة ذكرها الله تعالى وشبهة تشبث بها المشركون فى شركهم وتحريم ما حرموا ، فإن الله مطلع على ما هم فيه من الشرك والتحريم لما حرموه ، وهو قادر على تغييره ، بأن يلهمنا الإيمان ويحول بيننا وبين الكفر ، فلم يغيره ، فدل على أنه بمشيئته وإرادته ورضاه منا بذلك ! ولهذا قالوا " لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء " كما فى قوله : ﴿ وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ، ما لهم بذلك من علم ﴾ . وكذا الآية التى فى النحل مثل هذه سواء . قال تعالى " كذلك كذب الذين من قبلهم " أى : بهذه الشبهة ضل من ضل قبل هؤلاء . وهى حجة داحضة باطلة ، لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه ودمر عليهم وأدال عليهم رسله الكرام وأذاق المشركين من أليم الانتقام " قل هل عندكم من علم " أى : بأن الله تعالى راض عنكم فيما أنتم فيه " فتخرجوه لنا " أى : فتظهروه لنا وتبينوه وتبرزوه " إن تتبعون إلا الظن " أى : الوهم والخيال . والمراد بالظن ههنا : الاعتقاد الفاسد " وإن أنتم إلا تخرصون " أى : تكذبون على الله فيما ادعيتموه . وقوله تعالى " قل فلله الحجة البالغة ، فلو شاء لهداكم أجمعين " يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم " قل " لهم يا محمد " فلله الحجة البالغة " أى : له الحكمة التامة والحجة البالغة فى هداية من هدى وإضلال من ضل " فلو شاء لهداكم أجمعين " وكل ذلك بقدرته ومشيئته واختياره ، وهو مع ذلك يرضى عن المؤمنين ويبغض الكافرين . كما قال تعالى : ﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ولو شاء ربك لآمن مَنْ فى الأرض ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين * إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم ، وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ . قال الضحاك : لاحجة لأحد عصى الله ، ولكن لله الحجة البالغة على عباده . وقوله تعالى " قل هلم شهداءكم " أى :

آحضروا شهداءكم " الذين يشهدون أن الله حرم هذا " أى : هذا الذى حرمتموه وكذبتم وافتريتم على الله فيه " فإن شهدوا فلا تشهد معهم " أى : لأنهم إنما يشهدون والحالة هذه كذباً وزوراً " ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون " أى يشركون به ويجعلون له عديلاً .

ربع

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ، أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ، وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَقٍ ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ، وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) ﴾ .

عن ابن مسعود قال : « من أراد أن يقرأ صحيفة رسول الله صلى الله عليه وسلم التى عليها خاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات " قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم " – إلى قوله – " لعلكم تتقون " » (١) . وروى الحاكم عن ابن عباس قال : « إن فى الأنعام آيات محكمات هنّ أم الكتاب ، ثم قرأ " قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم " – الآيات » . قال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٢) . وروى الحاكم أيضاً عن عبادة بن الصامت ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أيكم يبايعنى على ثلاث ؟ ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم " قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم " حتى فرغ من الآيات ، فمن وفى فأجره على الله ، ومن انتقص منهنّ شيئاً فأدركه الله به فى الدنيا كانت عقوبته ، ومن أخّر إلى الآخرة فأمره إلى الله ، إن شاء عذبه ، وإن شاء عفا عنه » . ثم قال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٣) .وأماتفسيرها : فيقول تعالى لنبيه ورسوله محمد

---

(١) لم يخرجه الحافظ ابن كثير . وذكره السيوطى ٣ : ٥٤ . بلفظ : « من سره أن ينظر إلى وصية محمد » – إلى آخره . ونسبه للترمذى وحسنه وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبى الشيخ وابن مردويه والبيهقى فى شعب الإيمان .

(٢) المستدرك ٢ : ٣١٧ . ووافقه الذهبى على تصحيحه .

(٣) الحاكم ٢ : ٣١٨ . ووافقه الذهبى على تصحيحه . وزاد السيوطى ٣ : ٥٤ نسبته

صلى الله عليه وسلم: قل يا محمد لهؤلاء المشركين ، الذين عبدوا غير الله ، وحرموا ما رزقهم الله ، وقتلوا أولادهم ، وكل ذلك ما فعلوه بآرائهم وتسويل الشياطين لهم – " قل " لهم " تعالوا " أى: هلموا وأقبلوا " ،أتل ما حرم ربكم عليكم " أى : أقص عليكم وأخبركم بما حرم ربكم عليكم حقًّا ، لا تخرصاً ولا ظنًّا ، بل وحياً منه وأمراً من عنده " ألا تشركوا به شيئاً " ، وكأن فى الكلام محذوفاً دل عليه السياق ، وتقديره: ووصّاكم " ألا تشركوا به شيئاً " . ولهذا قال فى آخر الآية " ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون " وتقول العرب : أمرتك أن لا تقوم . وفى الصحيحين من حديث أبى ذر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتانى جبريل فبشرنى أنه من مات لا يشرك بالله شيئاً من أمتك دخل الجنة ، قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق ، قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق ، قلت: وإن زنى وإن سرق وإن شرب الخمر ؟ قال : وإن زنى وإن سرق وإن شرب الخمر » . وفى بعض الروايات : أن قائل ذلك إنما هو أبو ذر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه عليه الصلاة والسلام قال فى الثالثة : « وإن رَغِمَ أنفُ أبى ذر ، فكان أبو ذر يقول بعد تمام الحديث : وإن رغم أنف أبى ذر »[1] . وفى بعض المسانيد والسنن عن أبى ذر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى : يا ابن آدم ، إنك ما دعوتنى ورجوتنى فإنى أغفر لك على ما كان منك ولا أبالى ، ولو أتيتنى بقُرَاب الأرض خطيئةً أتيتك بقُرَابها مغفرة ، ما لم تشرك بى شيئاً ، وإن أخطأتَ حتى تبلغ خطاياك عَنَانَ السماء ثم استغفرتنى غفرتُ لك »[2] . ولهذا شاهد فى القرآن ، قال الله تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ . وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود : « من

لعبد بن حميد وابن أبى حاتم وأبى الشيخ وابن مردويه .

(١) الحديث مضى ج ٣ ص ١٩٤ ، من رواية المسند ، بنحوه .

(٢) رواه أحمد فى المسند ٥ : ١٥٤ (حلبى) ، والدارمى ٢ : ٣٢٢ – كلاهما بنحوه من حديث أبى ذر . ورواه الترمذى – بنحوه – من حديث أنس ٢ : ٢٧٠ .

مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة » . والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جداً .
وقوله تعالى " وبالوالدين إحساناً " أى : وأوصاكم وأمركم بالوالدين إحساناً ، أى : أن تحسنوا إليهم . كما قال تعالى : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ﴾ . وقرأ بعضهم : « ووصَّى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً » . أى : أحسنوا إليهم . والله تعالى كثيراً ما يقرن بين طاعته وبر الوالدين ، كما قال : ﴿ أن اشكر لى ولوالديك إلىّ المصير * وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، وصاحبهما فى الدنيا معروفاً ، واتبع سبيل من أناب إلىّ ، ثم إلىّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾ . فأمر بالإحسان إليهما وإن كانا مشركين ، بحسبهما . وقال تعالى : ﴿ وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً ﴾ — الآية . والآيات فى هذا كثيرة . وفى الصحيحين عن ابن مسعود ، قال : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : أىّ العمل أفضل ؟ قال : الصلاة على وقتها ، قلت : ثم أىّ ؟ قال : بر الوالدين ، قلت : ثم أىّ : قال : الجهاد فى سبيل الله ، قال ابن مسعود : حدثنى بهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو استزدته لزادنى » . وقوله " ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ، نحن نرزقكم وإياهم " لما وصَّى تعالى ببرّ الآباء والأجداد ، عطف على ذلك الإحسانَ إلى الأبناء والأحفاد ، فقال تعالى " ولا تقتلوا أولادكم من إملاق" وذلك : أنهم كانوا يقتلون أولادهم ، كما سولت لهم الشياطين ذلك ، فكانوا يَئِدُون البناتِ خشيةَ العار ، وربما قتلوا بعضَ الذكور خيفة الافتقار . ولهذا جاء فى الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود : « أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أىّ الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نِدًّا وهو خلَقَك ، قلت : ثم أىّ ؟ قال : أن تقتل ولدك خشيةَ أن يَطْعَمَ معك ، قلت : ثم أىّ ؟ قال : أن تُزانِىَ حليلةَ جارك ، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرّم الله إلا بالحق ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلقَ أثاماً ﴾ » . وقوله " من إملاق " قال ابن عباس وقتادة والسدى : هو الفقر ، أى : ولا تقتلوهم من فقركم

الحاصل . وقال فى سورة سبحان : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشيةَ إملاق ﴾ . أى : خيفة حصول فقرٍ فى الآجل . ولهذا قال هناك : ﴿ نحن نرزقهم وإياكم ﴾ . فبدأ برزقهم للاهتمام بهم ، أى : لا تخافوا من فقركم بسببهم ، فرزقهم على الله . وأما فى هذه الآية فلما كان الفقر حاصلا قال " نحن نرزقكم وإياهم " لأنه الأهم ههنا . والله أعلم . وقوله " ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن " كقوله تعالى : ﴿ قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثمَ والبغىَ بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ . وقد تقدم تفسيرها فى قوله ﴿ وذروا ظاهر الإثم وباطنه ﴾ [١] . وفى الصحيحين عن ابن مسعود ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا أحدَ أغْيَرُ من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحشَ ما ظهر منها وما بطن » . وعن المغيرة ، قال : « قال سعد بن عُبَادة : لو رأيتُ مع امرأتى رجلا لضربته بالسيف غير مُصْفِح ، فبلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أتعجبون من غيرة سعد ؟ فوالله لأنا أغْيَرُ من سعد ، والله أغيرُ منى ، من أجل ذلك حرَّم الفواحشَ ما ظهر منها وما بطن » أخرجاه [٢] . وقوله تعالى " ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق " وهذا مما نص تبارك وتعالى على النهى عنه تأكيداً ، وإلا فهو داخل فى النهى عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن . فقد جاء فى الصحيحين عن ابن مسعود ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله — إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزانى ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » . وفى لفظ لمسلم : « والذى لا إله غيره لا يحل دم رجل مسلم » . وروى أبو داود والنسائى عن عائشة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث خصال : زان محصن يرجم ، ورجل قتل متعمداً فيقتل ،

---

(١) مضى فى ص : ٩٠ — ٩١ من هذا الجزء .

(٢) من حديث فى البخارى ٩ : ٢٧٩ — ٢٨٠ ، و ١٢ : ١٥٤ — ١٥٥ ، و ١٣ : ٣٣٧ — ٣٣٨ (فتح) . ومسلم ١ : ٤٣٨ — ٤٣٩ . ورواه أحمد فى المسند ٤ : ٢٤٨ (حلبى) .

ورجل يخرج من الإسلام حارب الله ورسوله فيقتل أو يصلب أو ينفى من الأرض » . وهذا لفظ النسائى . وعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، أنه قال وهو محصور : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : رجل كفر بعد إسلامه ، أو زنى بعد إحصانه ، أو قتل نفساً بغير نفس ، فوالله ما زنيت فى جاهلية ولا إسلام ، ولا تمنيت أن لى بدينى بدلا منه بعد إذ هدانى الله ، ولا قتلت نفساً ، فبم تقتلوننى ؟ ! » . رواه الإمام أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجة . وقال الترمذى : هذا حديث حسن[1]. وقد جاء النهى والزجر والوعيد فى قتل المعاهَد ، وهو المستأمن من أهل الحرب ، فروى البخارى عن عبد الله بن عمر ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « من قتل معاهداً لم يَرَحْ رائحة الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً». وعن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « من قتل معاهداً له ذمة الله وذمة رسوله فقد أخفر بذمة الله، فلا يَرَحْ رائحة الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفاً » . رواه ابن ماجة والترمذى ، وقال : حسن صحيح . وقوله " ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون " أى : هذا مما وصاكم به لعلكم تعقلون عن الله أمره ونهيه .

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ، لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ، وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) ﴾

عن ابن عباس ، قال : « لما أنزل الله " ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن " و ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً ﴾ — الآية — : فانطلق من

---

(١) المسند: ٤٦٨ ، بنحوه . ورواه أيضاً مطولا ومختصراً : ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٥٢ ، ٥٠٩ .

كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه ، فجعل يفضل الشيء فيحبس له حتى يأكله ويفسد ، فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله ﴿ ويسئلونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير ، وإن تخالطوهم فإخوانكم﴾ ، قال : فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم » . رواه أبو داود (١) . وقوله " حتى يبلغ أشده " قال الشعبي ومالك وغير واحد من السلف : يعني : حتى يحتلم . وقوله " وأوفوا الكيل والميزان بالقسط " يأمر تعالى بإقامة العدل في الأخذ والإعطاء ، كما توعد على تركه في قوله تعالى : ﴿ ويل للمطففين * الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون * وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون * ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون * ليوم عظيم * يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾ . وقد أهلك الله أمة من الأمم كانوا يبخسون المكيال والميزان . وقوله تعالى " لا نكلف نفساً إلا وسعها " أي : من اجتهد في أداء الحق وأخذه ، فإن أخطأ بعد استفراغ وسعه وبذل جهده فلا حرج عليه . وقوله " وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى " كما قال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ، ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ﴾ . وكذا التي تشبهها في سورة المائدة . يأمر تعالى بالعدل في الفعال والمقال على القريب والبعيد . والله تعالى يأمر بالعدل لكل أحد في كل وقت في كل حال . " وبعهد الله أوفوا " قال ابن جرير : يقول : وبوصية الله التي أوصاكم بها فأوفوا ، وإيفاء ذلك أن تطيعوه فيما أمركم ونهاكم ، وتعملوا بكتابه وسنة رسوله ، وذلك هو الوفاء بعهد الله " ذلكم وصاكم به " يقول تعالى : هذا أوصاكم به وأمركم به وأكد عليكم فيه " لعلكم تذكرون " أي : تتعظون وتنتهون مما كنتم فيه قبل هذا . وقرأ بعضهم بتشديد الذال ، وآخرون بتخفيفها .

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) ﴾

---

(١) مضى تخريجه ج ٢ ص ٩١ .

قال ابن عباس فى قوله " ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله " وفى قوله : ﴿ أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ — ونحو هذا فى القرآن ، قال : أمر الله المؤمنين بالجماعة ، ونهاهم عن الاختلاف والتفرقة ، وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات فى دين الله . ونحو هذا قال مجاهد وغير واحد . وروى الإمام أحمد بن حنبل عن عبد الله — هو ابن مسعود — قال : « خط رسول الله صلى الله عليه وسلم خطًّا بيده ، ثم قال : هذا سبيل الله مستقيماً ، وخط عن يمينه وشماله ، ثم قال : هذه السبل ، ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ، ثم قرأ "وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ، ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله" » . ورواه الحاكم ، وقال : صحيح ولم يخرجاه . ورواه ابن جرير . ورواه الحاكم من طريق آخر ، وقال : صحيح ولم يخرجاه . ورواه النسائى وابن مردويه . فقد صححه الحاكم — كما رأيت — من الطريقين [1] . وقد رُوى من حديث النواس بن سمعان نحوه : روى الإمام أحمد عن النوّاس بن سمعان ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « ضرب الله مثلا صراطاً مستقيماً وعن جَنْبَتَىِ الصراط سوران ِ ، فيهما أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى باب الصراط داع ٍ يقول : يا أيها الناس ، ادخلوا الصراط المستقيم جميعاً ولا تعرجوا ، وداع ٍ يدعو من جوف الصراط ، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب ، قال : ويحك ، لا تفتحه ، فإنك إن تَفْتَحْه تَلِجْه ، فالصراط الإسلام ، والسوران ِ حدود الله ، والأبواب المفتحة محارم الله ، وذلك الداعى على رأس الصراط كتاب الله ، والداعى من فوقُ واعظ الله فى قلب كل مسلم » . ورواه الترمذى والنسائى . وقال الترمذى : حسن غريب [2] . وقوله " فاتبعوه ولا تتبعوا السبل " إنما وَحَّد سبيله لأن الحق واحد ، ولهذا جمع السبل لتفرقها وتشعبها . كما قال تعالى : ﴿ الله ولىّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين

---

(١) المسند : ٤٤٣٧ . ورواه أيضاً : ٤١٤٢ . والحاكم ٢ : ٣١٨ . ورواه أيضاً ابن حبان فى صحيحه ، رقم : ٥ (بتحقيقنا) . وهو فى مجمع الزوائد ٧ : ٢٢ . وقال : « رواه أحمد والبزار ، وفيه عاصم بن بهدلة ، وهو ثقة ، وفيه ضعف » .

(٢) المسند : ١٧٧١١ . وقد مضى ج ١ ص ٨١ .

كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ . وروى ابن أبي حاتم عن عُبادة بن الصامت ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أيكم يبايعنى على هؤلاء الآيات الثلاث ؟ ثم تلا ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ – حتى فرغ من ثلاث آيات ، ثم قال : ومن وفى بهن آجرَهُ الله، ومن انتقص منهن شيئاً فأدركه الله فى الدنيا كانت عقوبتَه ، ومن أخَّره إلى الآخرة كان أمره إلى الله، إن شاء أخذه وإن شاء عفا عنه »[1] .

﴿ ثُمَّ ءاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ تَمَاماً عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ .

قال ابن جرير : " ثم آتينا موسى الكتاب " تقديره : ثم قل يا محمد مخبراً عنا بأنا آتينا موسى الكتاب ، بدلالة قوله تعالى : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ . قلت : وفى هذا نظر ، و « ثم » ههنا إنما هى لعطف الخبر بعد الخبر ، لا للترتيب ههنا ، كما قال الشاعر :

قل لمن سادَ ثم سادَ أبوه ثم من قبل ذاك قد سادَ جدُّه

وههنا لما أخبر الله تعالى عن القرآن بقوله : ﴿ وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ﴾ – عطف بمدح التوراة ورسولها فقال " ثم آتينا موسى الكتاب " . وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين ذكر القرآن والتوراة ، كقوله تعالى : ﴿ ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة ، وهذا كتاب مصدق لساناً عربيًّا ﴾ . وقوله أول هذه السورة : ﴿ قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً ﴾ – الآية ، وبعدها : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك ﴾ – الآية . وقال تعالى مخبراً عن المشركين : ﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى ﴾ ، قال الله تعالى : ﴿ أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبلُ ، قالوا

---

(١) مضى من رواية الحاكم .

سحران تظاهرا ، وقالوا إنا بكل كافرون﴾ . وقال تعالى مخبراً عن الجن أنهم قالوا: ﴿ يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم ﴾ . وقوله تعالى " تماماً على الذى أحسن" أى : آتيناه الكتاب الذى أنزلناه إليه تماماً كاملاً جامعاً لما يحتاج إليه فى شريعته. كما قال تعالى : ﴿ وكتبنا له فى الألواح من كل شىء) ــ الآية . وقوله " على الذى أحسن " أى : جزاءً على إحسانه فى العمل وقيامه بأوامرنا وطاعتنا ، كقوله : ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ . وقوله : ﴿ وإذ ابتلى إبرهيم ربه بكلمات فأتمهن ، قال إنى جاعلك للناس إماماً﴾ . وقوله: ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾. وقال الربيع بن أنس " ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذى أحسن " يقول : أحسن فيما أعطاه الله. وقال قتادة : من أحسن فى الدنيا تم له ذلك فى الآخرة . واختار ابن جرير أن تقدير الكلام : ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على إحسانه . فكأنه جعل « الذى » مصدريةً ، كما قيل فى قوله تعالى : ﴿ وخضتم كالذى خاضوا ﴾ ــ أى : كخوضهم . وقال آخرون: « الذى» ههنا بمعنى : الذين . قال ابن جرير : وذكر عبد الله بن مسعود أنه كان يقرؤها : تماماً على الذين أحسنوا ، وقال مجاهد "تماماً على الذى أحسن " قال : على المؤمنين والمحسنين . وكذا قال أبو عبيدة . وقال البغوى : والمحسنون الأنبياء والمؤمنون ، يعنى أظهرنا فضله عليهم . قلت : كما قال تعالى : ﴿ قال يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى﴾ ، ولا يلزم اصطفاؤه على محمد خاتم الأنبياء والخليل عليهما السلام ، لأدلة أخرَ ، قال ابن جرير : وروى أبو عمرو بن العلاء عن يحيى بن يعمر : أنه كان يقرؤها " تماماً على الذى أحسنُ " رفعاً ، بتأويل : على الذى هو أحسن . قال : وهذه قراءة لا أستجيز القراءة بها ، وإن كان لها فى العربية وجه صحيح ، وقيل : معناه : تماماً على إحسان الله زيادة على ما أحسن إليه . حكاه ابن جرير والبغوى . ولا منافاة بينه وبين القول الأول ، وبه جمع ابن جرير كما بيناه . ولله الحمد . وقوله " وتفصيلا لكل شىء وهدى ورحمة " فيه مدح لكتابه الذى أنزله الله عليه " لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون * وهذا كتاب

أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون " فيه الدعوة إلى اتباع القرآن ، ووصفه بالبركة لمن اتبعه وعمل به فى الدنيا والآخرة .

﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ، سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (١٥٧) ﴾.

قال ابن جرير : معناه : وهذا كتاب أنزلناه لئلا تقولوا : " إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا " يعنى : لينقطع عذركم . كما قال تعالى : ﴿ ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين ﴾ وقوله " على طائفتين من قبلنا " قال ابن عباس : هم اليهود والنصارى . وكذا قال مجاهد وقتادة وغير واحد . وقوله " وإن كنا عن دراستهم لغافلين " أى : وما كنا نفهم ما يقولون ، لأنهم ليسوا بلساننا ، ونحن فى شغل وغفلة مع ذلك عما هم فيه . وقوله " أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم " أى : وقطعاً لتعللكم أن تقولوا لو أنا أنزل علينا ما أنزل عليهم لكنا أهدى منهم فيما أوتوه ، كقوله تعالى : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً ﴾ — الآية . وهكذا قال ههنا " فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة " يقول : فقد جاءكم من الله على لسان محمد صلى الله عليه وسلم النبى العربى قرآن عظيم ، فيه بيان للحلال والحرام ، وهدى لما فى القلوب ، ورحمة من الله لعباده الذين يتبعونه ويقتفون ما فيه . وقوله " فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها " أى : لم ينتفع بما جاء به الرسول ، ولا اتبع ما أرسل به ، ولا ترك غيره ،

بل صدف عن اتباع آيات الله ، أى ؛ صرف الناس وصدهم عن ذلك . قاله السدى . وعن ابن عباس ومجاهد وقتادة " وصدف عنها " — : أعرض عنها . وقول السدى ههنا فيه قوة ، لأنه قال " فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها " كما تقدم فى أول السورة : ﴿ وهم ينهون عنه وينأون عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم ﴾ . وقال تعالى : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب ﴾ . وقال فى هذه الآية الكريمة " سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون " . وقد يكون المراد كما قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة " فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها " — أى : لا آمن بها ولا عمل بها . كقوله تعالى : ﴿ فلا صدق ولا صلى * ولكن كذب وتولى ﴾ . ونحو ذلك من الآيات الدالة على اشتمال الكافر على التكذيب بقلبه وترك العمل بجوارحه . ولكن كلام السدى أقوى وأظهر . والله أعلم .

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ، يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ، قُلِ انتَظِرُوٓا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٥٨) ﴾ .

يقول تعالى متوعداً للكافرين به والمخالفين لرسله والمكذبين آياته والصادّين عن سبيله — : " هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك " وذلك كائن يوم القيامة " أو يأتى بعض آيات ربك " وذلك قبل يوم القيامة ، كائنٌ من أمارات الساعة وأشراطها . كما روى البخارى عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا رآها الناس آمن مَنْ عليها ، فذلك حين " لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل " » .وأخرجه بقية الجماعة فى كتبهم إلا الترمذى . وروى ابن جرير عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث إذا خرجن

" لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً " — : طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، ودابة الأرض » . ورواه أحمد ، وعنده : « والدخان » . ورواه مسلم [١] . وروى ابن جرير عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت آمن الناسُ كلهم ، وذلك حين " لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل " الآية »[٢] . وروى ابن جرير عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها قبل منه » . لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة [٣]. وعن أبى ذرّ جندب بن جنادة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتدرى أين تذهب الشمس إذا غربت ؟ قلت : لا أدرى ! قال : إنها تنتهى دون العرش فتخر ساجدة ثم تقوم ، حتى يقال لها : ارجعى ، فيوشك يا أبا ذر أن يقال لها : ارجعى من حيث جئتِ ، وذلك حين " لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل " » . رواه الشيخان وغيرهما. وروى الإمام أحمد عن حذيفة بن أسيد [أبى سَرِيحة] الغفارى ، قال : « أشرف علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم من غرفة ، ونحن نتذاكر الساعة ، فقال : لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج عيسى ابن مريم ، والدجال ، وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قعر عَدَن ، تسوق — أو تَحْشُر — الناسَ ، تبيت معهم حيث باتوا ، وتَقِيلُ معهم حيث قالوا » . ورواه مسلم وأهل السنن الأربعة . وقال الترمذى : حسن صحيح [٤]. وعن صَفْوان بن عَسَّال ،

---

(١) الطبرى : ١٤٢٤٧ . والمسند : ٩٧٥١ .

(٢) الطبرى : ١٤٢١٩ .

(٣) الطبرى : ١٤٢٢٠ . ورواه أحمد فى المسند : ٧٦٩٧ . وقد بينت فى تخريجه فى المسند أنه رواه مسلم فى صحيحه ٢ : ٣١٢ . فلا ينبغى أن يوصف بأنه لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة .

(٤) المسند : ١٦٢١٣ . ومسلم ٢ : ٣٦٦ — ٣٦٧ . وقد مضى ج ٤ ص ٤٢ .

قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله فتح باباً قِبَلَ المغرب ، عرضه سبعون عاماً ، للتوبة ، لا يغلق حتى تطلع الشمس منه » . رواه الترمذى وصححه ، والنسائى وابن ماجة — من حديث طويل . وروى الإمام أحمد عن أبى زُرْعة بن عمرو بن جرير ، قال : « جلس ثلاثة نفر من المسلمين إلى مروان بالمدينة ، فسمعوه وهو يحدث عن الآيات : أن أولها خروج الدجال ، قال : فانصرف النفرُ إلى عبد الله بن عمرو ، فحدثوه بالذى سمعوه من مروان فى الآيات ، فقال : لم يقل مروان شيئاً ! قد حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن أول الآيات خروجاً طلوعُ الشمس من مغربها ، وخروج الدابة ضحى ، فأيتهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثْرها ، ثم قال عبد الله — وكان يقرأ الكتب — : وأظن أولاها خروجاً طلوع الشمس من مغربها ، وذلك أنها كلما غربت أتت تحت العرش وسجدت ، واستأذنت فى الرجوع فأذن لها فى الرجوع ، حتى إذا بدا لله أن تطلع من مغربها فعلتْ كما كانت تعمل ، أتتْ تحت العرش فسجدت واستأذنت فى الرجوع ، فلم يُرَدّ عليها شىء ، ثم تستأذنُ فى الرجوع ، فلا يردُّ عليها شىء ، حتى إذا ذهب من الليل ما شاء الله أن يذهب ، وعرفتْ أنه إذا أذن لها فى الرجوع لم تدرك المشرق ، قالت : رب ، ما أبعد المشرق ، من لى بالناس ؟ حتى إذا صار الأفق كأنه طوق ، استأذنتْ فى الرجوع ، فيقال لها : من مكانِكِ فاطلعى ، فطلعت على الناس من مغربها . ثم تلا عبد الله هذه الآية " لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً " » . وأخرجه مسلم وأبو داود وابن ماجة [1] .

وروى الإمام أحمد عن ابن السعدى « أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا تنقطع الهجرةُ ما دام العدوُّ يُقاتَل ، فقال معاوية وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمرو بن العاص : إن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إنّ

(١) المسند : ٦٨٨١ . ورواه الطبرى أيضاً مطولا : ١٤٢١٤ ، ١٤٢١٥ . وقد تساهل الحافظ ابن كثير فى نسبته لمسلم وأبى داود وابن ماجة ، فإنهم لم يخرجوه بهذه السياقة ، إنما رووا قطعة منه مختصرة . ولذلك ذكره الهيثمى فى الزوائد ٨ : ٨ — ٩ عن هذه الرواية . وأصاب فى ذلك . ورواه الحاكم ٤ : ٥٠٠ — ٥٠١ ، ٥٤٧ — ٥٤٨ . وتفصيل التخريج فى المسند والطبرى .

الهجرة خصلتان : إحداهما تهجر السيئات ، والأخرى تهاجر إلى الله ورسوله ، ولا تنقطع ما تُقُبُلَتِ التوبةُ ، ولا تزال التوبة مقبولةً حتى تطلع الشمس من المغرب ، فإذا طلعت طُبع على كل قلب بما فيه، وكُفِيَ الناسُ العمل » . هذا الحديث حسن الإسناد ، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة (١) .

فقوله " لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل " أى : إذا أنشأ الكافر إيماناً يومئذ لا يقبل منه ، فأما من كان مؤمناً قبل ذلك ، فإن كان مخلصاً فى عمله فهو بخير عظيم ، وإن كان مخلطاً فأحدث توبة يومئذ لم تقبل منه توبته ، كما دلت عليه الأحاديث المتقدمة . وعليه يحمل قوله تعالى " أو كسبت فى إيمانها خيراً " أى : ولا يقبل منها كسب عمل صالح إذا لم يكن عاملا به قبل ذلك . وقوله " قل انتظروا إنا منتظرون " تهديد شديد للكافرين ، ووعيد أكيد لمن سوّف بإيمانه وتوبته إلى وقت لا ينفعه ذلك . وإنما كان هذا الحكم عند طلوع الشمس من مغربها لاقتراب وقت القيامة وظهور أشراطها . كما قال : ﴿ فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة ، فقد جاء أشراطها ، فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم ﴾ . وقال تعالى : ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين * فلم يكن ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ، سنة الله التى قد خَلَتْ فى عباده، وخسر هنالك الكافرون ﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ، إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩) ﴾ .

قال مجاهد وقتادة والضحاك والسدى : نزلت هذه الآية فى اليهود والنصارى . وقال ابن عباس فى قوله " إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً " — : وذلك أن اليهود والنصارى اختلفوا قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم فتفرقوا ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم أُنزل " إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً لست

---

(١) المسند : ١٦٧٢ . ورواه الطبرى : ١٤٢٢٢ ، مختصراً .

منهم فى شىء " — الآية . والظاهر : أن الآية عامة فى كل من فارق دين الله وكان مخالفاً له ، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق ، فمن اختلف فيه " وكانوا شيعاً " أى : فرقاً ، كأهل الملل والنحل ، وهى الأهواء والضلالات — فالله قد برّأ رسولَه مما هم فيه . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبرهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ . وفى الحديث : « نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ، ديننا واحد » . فهذا هو الصراط المستقيم ، وهو ما جاءت به الرسل : من عبادة الله وحده لا شريك له ، والتمسك بشريعة الرسول المتأخر . وما خالف ذلك فضلالات وجهالات ، وآراء وأهواء ، والرسل بُرَءَاءُ منها . كما قال " لست منهم فى شىء " وقوله " إنما أمرهم إلى الله، ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون " كقوله : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة ، إن الله على كل شىء شهيد ﴾ .

ثم بين كيفية فصله يوم القيامة ، فى حكمه وعدله ، فقال :

﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦٠) ﴾ .

وهذه الآية الكريمة مفصلة لما أجمل فى الآية الأخرى ، وهى قوله : ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها ﴾ . وقد وردت الأحاديث مطابقة لهذه الآية . كما روى الإمام أحمد عن ابن عباس ، : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى : إن ربكم عز وجل رحيم ، من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنةٌ ، فإن عملها كتبت له عشراً ، إلى سبعمائة ، إلى أضعاف كثيرة ، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له واحدةٌ أو يمحوها الله عز وجل ، ولا يهلك على الله إلا هالك » . ورواه البخارى ومسلم

والنسائى[1] . وروى أحمد أيضاً عن أبى ذر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله عز وجل: من عمل حسنة فله عشر أمثالها وأزيد ، ومن عمل سيئة فجزاؤها مثلها أو أغفر ، ومن عمل قُرَاب الأرض خطيئة ثم لقينى لا يشرك بى شيئاً جعلت له مثلها مغفرة ، ومن اقترب إلىّ شبراً اقتربت إليه ذراعاً، ومن اقترب إلىّ ذراعاً اقتربت إليه باعاً، ومن أتانى يمشى أتيته هرولة » . ورواه مسلم وابن ماجة . وروى الحافظ أبو يعلى الموصلى عن أنس بن مالك ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشراً ، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم يكتب عليه شىء ، فإن عملها كتبت عليه سيئة واحدة »[2] . واعلم أن تارك السيئة الذى لا يعملها على ثلاثة أقسام : تارةً يتركها لله ، فهذا تكتب له حسنة على كفه عنها لله تعالى ، وهذا عمل ونية ، ولهذا جاء أنه يكتب له حسنة ، كما جاء فى بعض ألفاظ الصحيح : « فإنما تركها من جرَّائى » . أى : من أجلى . وتارة يتركها نسياناً وذهولا عنها ، فهذا لا له ولا عليه ، لأنه لم ينو خيراً ولا فعل شرًّا . وتارة يتركها عجزاً وكسلا عنها ، بعد السعى فى أسبابها والتلبس بما يقرب منها ، فهذا بمنزلة فاعلها . كما جاء الحديث فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار ، قالوا : يا رسول الله ، هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال : إنه كان حريصاً على قتل صاحبه »[3] .وروى الإمام أحمد عن خُرَيم بن فاتك الأسدى ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الناس أربعة ، والأعمال ستة ، فالناس موسع له فى الدنيا والآخرة ، وموسع له فى الدنيا مقتور عليه فى الآخرة ، ومقتور عليه فى

---

(١) المسند : ٢٥١٩؛ ورواه قبل ذلك مختصراً : ٢٠٠١ .

(٢) إسناده صحيح . وذكره الهيثمى فى الزوائد ١٠ : ١٤٥ ، وقال : « رواه أبو يعلى ، ورجاله رجال الصحيح » .

(٣) البخارى ١ : ٨١ ، و ١٢ : ١٧٣ (فتح) . ومسلم ٢ : ٣٦٢ – كلاهما من حديث أبى بكرة . وقد مضى بنحوه ج ٤ ص ١٢٥ من رواية أخرى للشيخين أيضاً عن أبى بكرة ، بلفظ : « إذا تواجه المسلمان » .

الدنيا موسع له فى الآخرة ، وشقى فى الدنيا والآخرة ، والأعمال موجبتان ، ومثل بمثل ، وعشرة أضعاف ، وسبعمائة ضعف ، فالموجبتان : من مات مسلماً مؤمناً لا يشرك بالله شيئاً وجبت له الجنة ، ومن مات كافراً وجبت له النار ، ومن هم بحسنة فلم يعملها ، فعلم الله أنه قد أشعرها قلبه وحرص عليها كتبت له حسنة ، ومن هم بسيئة لم تكتب عليه ، ومن عملها كتبت واحدة ولم تضاعف عليه ، ومن عمل حسنة كانت له بعشر أمثالها ، ومن أنفق نفقة فى سبيل الله عز وجل كانت له بسبعمائة ضعف » ورواه الترمذى والنسائى ببعضه »[1] .

وروى ابن أبى حاتم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « يحضر الجمعة ثلاثةُ نفر : رجل حضرها بلغو ، فهو حظه منها ، ورجل حضرها بدعاء ، فهو رجل دعا الله فإن شاء أعطاه وإن شاء منعه ، ورجل حضرها بإنصات وسكوت ، ولم يتخط رقبة مسلم ، ولم يؤذ أحداً ، فهى كفارة له إلى الجمعة التى تليها وزيادة ثلاثة أيام ، وذلك لأن الله يقول " من جاء بالحسنة فله عشر « أمثالها " [2] . وعن أبى ذر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من صام ثلاثة أيام من كل شهر فقد صام الدهر كله ». رواه الإمام أحمد – وهذا لفظه – والنسائى وابن ماجة والترمذى ، وزاد : « فأنزل الله تصديق ذلك فى كتابه " من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها " اليومُ بعشرة أيام » . ثم قال : هذا حديث حسن . والأحاديث والآثار فى هذا كثيرة جدًّا ، وفيما ذكر كفاية ، إن شاء الله وبه الثقة .

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ .

---

(١) المسند ٤ : ٣٤٥ (حلى) . وهو حديث صحيح .

(٢) إسناده صحيح . ورواه أيضاً أحمد فى المسند : ٧٠٠٢ . ورواه قبل ذلك مختصراً : ٦٧٠١ ، وفصلنا تخريجه هناك .

يقول تعالى آمراً لنبيه صلى الله عليه وسلم سيد المرسلين ، أن يخبر بما أنعم به عليه من الهداية إلى صراطه المستقيم ، الذى لا اعوجاج فيه ولا انحراف " ديناً قيماً " أى : قائماً ثابتاً " ملة إبرهيم حنيفاً وما كان من المشركين " كقوله : ﴿ ومن يرغب عن ملة إبرهيم إلا من سَفِهَ نفسَه﴾ . وقوله : ﴿ وجاهدوا فى الله حق جهاده ، هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ، ملةَ أبيكم إبرهيم ﴾ . وقوله : ﴿ إن إبرهيم كان أمةً قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين * شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم * وآتيناه فى الدنيا حسنة ، وإنه فى الآخرة لمن الصالحين * ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبرهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾ . وليس يلزم من كونه عليه السلام أُمر باتباع ملة إبرهيم الحنيفية أن يكون إبرهيم أكملَ منه فيها ، لأنه عليه السلام قام بها قياماً عظيماً ، وأكملتْ له إكمالا تامًّا لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال . ولهذا كان خاتم الأنبياء ، وسيدَ ولد آدم على الإطلاق ، وصاحبَ المقام المحمود الذى يرغب إليه الخلق كلهم ، حتى إبرهيم الخليل عليه السلام . وقد روى ابن مردويه عن ابن أبزى ، عن أبيه ، قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أصبح قال : أصبحنا على ملة الإسلام ، وكلمة الإخلاص ، ودين نبينا محمد ، وملة أبينا إبرهيم حنيفاً وما كان من المشركين » [1] . وروى الإمام أحمد عن ابن عباس ، أنه قال : « قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أىُّ الأديان أحبُّ إلى الله تعالى ؟ قال : الحنيفية السمحة » [2] . وروى أحمد عن عائشة ، قالت : « وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذقنى على منكبه ، لأنظر إلى زَفن الحبشة ، حتى كنت التى مللتُ فانصرفتُ عنه » ، قال عروة : إن عائشة قالت : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ : لتعلمَ يهودُ أن فى ديننا فسحة ، إنى أرسلت بحنيفية سمحة » [3] . أصل الحديث مخرج فى الصحيحين ، والزيادة لها شواهد

---

(١) إسناده صحيح .

(٢) المسند : ٢١٠٧ . وإسناده صحيح .

(٣) المسند ٦ : ١١٦ (حلبى) . وإسناده صحيح . وقد مضت الإشارة إليه مختصراً ج ٢ ص ٢١٤ .

من طرق عدة ، وقد استقصيتُ طرقها فى شرح البخارى . ولله الحمد والمنة ،
وقوله تعالى " قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين " يأمره تعالى أن
يخبر المشركين — الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير اسمه — أنه مخالف لهم فى
ذلك ، فإن صلاته لله ، ونسكه على اسمه وحده لا شريك له . وهذا كقوله تعالى
﴿ فصل لربك وانحر ﴾ . أى : أخلص له صلاتك وذبيحتك ، فإن المشركين
كانوا يعبدون الأصنام ويذبحون لها ، فأمره تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه ،
والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى . وقوله "وأنا أول المسلمين"
قال قتادة : أى من هذه الأمة . وهو كما قال ، فإن جميع الأنبياء قبله كلهم
كانت دعوتهم إلى الإسلام ، وأصله : عبادة الله وحده لا شريك له . كما قال :
﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ .
وقد أخبر تعالى عن نوح أنه قال لقومه : ﴿ فإن توليتم فما سألتكم من أجر ،
إن أجرى إلا على الله ، وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ومن
يرغب عن ملة إبرهيم إلا من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى
الآخرة لمن الصالحين * إذ قال له ربه أسلم ، قال أسلمت لرب العالمين *
ووصى بها إبرهيم بنيه ويعقوب ، يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا
وأنتم مسلمون ﴾ . وقال يوسف عليه السلام : ﴿ رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى
من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض ، أنت وليى فى الدنيا والآخرة ،
توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين ﴾ . وقال موسى : ﴿ يا قوم إن كنتم آمنتم بالله
فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين * فقالوا على الله توكلنا ، ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم
الظالمين * ونجنا برحمتك من القوم الكافرين ﴾ . وقال تعالى : ﴿ إنا أنزلنا التوراة
فيها هدى ونور ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار ﴾ —
الآية . وقال تعالى : ﴿ وإذْ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى ، قالوا آمنا
واشهد بأننا مسلمون ﴾ . فأخبر تعالى أنه بعث رسله بالإسلام ، ولكنهم متفاوتون
فيه بحسب شرائعهم الخاصة التى ينسخ بعضها بعضاً ، إلى أن نسخت بشريعة
محمد صلى الله عليه وسلم ، التى لا تنسخ أبدَ الآبدين ، ولا تزال قائمة منصورة ،

وأعلامها منشورة ، إلى قيام الساعة . ولهذا قال عليه السلام : « نحن معاشر الأنبياء أولاد علاّت ، ديننا واحد » [١] . فإن أولاد العلات : هم الإخوة من أب واحد وأمهات شتّى . فالدين واحد ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، وإن تنوعت الشرائع التى هى بمنزلة الأمهات ، كما أن إخوة الأخياف عكس هذا : بنو الأم الواحدة من آباء شتّى ، والإخوة الأعيان : الأشقاء من أب واحد وأم واحدة . والله أعلم . وقد روى الإمام أحمد عن على : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا كبر استفتح ، ثم قال : وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ، إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا من المسلمين ، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت ، أنت ربى وأنا عبدك ، ظلمت نفسى واعترفت بذنبى ، فاغفر لى ذنوبى جميعاً ، لا يغفر الذنوب إلا أنت ، واهدنى لأحسن الأخلاق ، لا يهدى لأحسنها إلا أنت ، واصرف عنى سيئها ، لا يصرف سيئها إلا أنت ، تباركتَ وتعاليتَ ، أستغفرك وأتوب إليك » . ثم ذكر تمامَ الحديث فيما يقوله فى الركوع والسجود والتشهد . وقد رواه مسلم فى صحيحه [٢].

﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ، وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤) ﴾ .

يقول تعالى " قل " يا محمد لهؤلاء المشركين بالله فى إخلاص العبادة له والتوكل عليه — " أغير الله أبغى ربًّا " أى : أطلب ربًّا سواه ، يربينى ويحفظنى ويكلؤنى ويدبر أمرى . أى : لا أتوكل إلا عليه ، ولا أنيب إلا إليه ،

---

(١) مضى مراراً ، آخرها ج ٤ ص ١٦٩ .

(٢) المسند : ٧٢٩ . وصحيح مسلم ١ : ٢١٥ . والمحلى لابن حزم ٤ : ٩٥ — ٩٦ (بتحقيقنا) .

لأنه رب كل شيء ومليكه ، وله الخلق والأمر . فهذه الآية فيها الأمرُ بإخلاص التوكل ، كما تضمنت التي قبلها إخلاصَ العبادة له لا شريك له . وهذا المعنى يقرن بالآخر كثيراً في القرآن . كقوله تعالى مرشداً لعباده أن يقولوا له : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين﴾ . وقوله : ﴿ فاعبده وتوكل عليه﴾ . وقوله : ﴿ قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا ﴾ . وقوله : ﴿ رب المشرق والمغرب ، لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا ﴾ . وأشباه ذلك من الآيات . وقوله " ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى " إخبارٌ عن الواقع يوم القيامة في جزاء الله تعالى وحكمه وعدله : أن النفوس إنما تُجازَى بأعمالها : إنْ خيراً فخيرٌ ، وإن شراً فشرٌ ، وأنه لا يحمل من خطيئة أحد على أحد . وهذا من عدله تعالى . كما قال : ﴿ وإنْ تَدْعُ مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى﴾ . وقوله : ﴿ فلا يخاف ظلماً ولا هضماً﴾ . قال العلماء بالتفسير : أي فلا يظلم بأن يُحمل عليه سيئاتُ غيره ، ولا يُهضم بأن يُنقص من حسناته . وقال تعالى : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين﴾ . معناه : كل نفس مرتهنة بعملها السيئ ، إلا أصحاب اليمين ، فإنه قد تعود بركاتُ أعمالهم الصالحة على ذراريهم وقراباتهم . كما قال في سورة الطور : ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذرياتُهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتِهم ، وما ألتناهم من عملهم من شيء ﴾ [1] . أي : ألحقنا بهم ذرياتهم في المنزلة الرفيعة في الجنة ، وإن لم يكونوا قد شاركوهم في الأعمال ، بل في أصل الإيمان . ﴿ وما ألتناهم ﴾ أي : أنقصنا أولئك السادة الرفعاء من أعمالهم شيئاً حتى ساويناهم وهؤلاء الذين هم أنقص منهم في المنزلة ، بل رفعهم تعالى إلى منازل الآباء ببركة أعمالهم ، بفضله ومَنّه . ثم قال : ﴿كل امرئ بما كسب رهين ﴾ . أي : من شرٍ . وقوله " ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون" أي : اعملوا على مكانتكم ، إنا عاملون على ما نحن عليه ، فستعرضون ونُعرض

---

(١) (ذرياتهم) في الموضعين في هذه الآية من سورة الطور – بالجمع – هي قراءة ابن عامر وأبي عمرو ، من السبعة . وبها كتب الحافظ المؤلف في هذا الموضع ، كما ثبت في المخطوطتين . وقراءة حفص وغيره (ذريتهم) في الموضعين ، بالإفراد .

عليه ، وينبئنا وإياكم بأعمالنا وأعمالكم ، وما كنا نختلف فيه فى الدار الدنيا . كما قال : ﴿ قُل لا تُسألون عما أجرمنا ، ولا نُسأل عما تعملون * قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق ، وهو الفتاح العليم ﴾ .

﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَـٰكُمْ ، إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٦٥) ﴾ .

يقول تعالى " وهو الذى جعلكم خلائف الأرض " أى جعلكم تعمرون الأرض جيلاً بعد جيل ، وقرناً بعد قرن ، وخلفاً بعد سلف . قاله ابن زيد وغيره . كما قال : ﴿ ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون ﴾ . وكقوله : ﴿ ويجعلكم خلفاء الأرض ﴾ . وقوله : ﴿ إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ . وقوله : ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوّكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون ﴾ . وقوله " ورفع بعضكم فوقَ بعض درجاتٍ " أى : فاوت بينكم فى الأرزاق والأخلاق ، والمحاسن والمساوى ، والمناظر والأشكال والألوان ، وله الحكمة فى ذلك . كقوله : ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ﴾ . وقوله ﴿ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ، وللآخرة أكبرُ درجاتٍ وأكبر تفضيلا ﴾ . وقوله " ليبلوكم فيما آتاكم " أى : ليختبركم فى الذى أنعم به عليكم وامتحنكم به ، ليختبر الغنى فى غناه ويسأله عن شكره ، والفقيرَ فى فقره ويسأله عن صبره . وقد روى مسلم عن أبى سعيد الخدرى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الدنيا حلوة خَضِرَة ، وإن الله مستخلفكم فيها فناظرٌ ماذا تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء » (١) . وقوله " إن ربك سريع العقاب " ترهيب وترغيب ، أن حسابه وعقابه سريع فيمن عصاه وخالف رسله " وإنه لغفور رحيم " لمن والاه واتبع رسله فيما جاؤا به من خبر وطلب .

---

(١) صحيح مسلم ٢ : ٣٢١ . والذى فيه : « فينظر كيف تعملون » .

وكثيراً ما يقرن الله تعالى فى القرآن بين هاتين الصفتين . كما قال : ﴿ نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم * وأن عذابى هو العذاب الأليم ﴾ وقوله : ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم * وإن ربك لشديد العقاب ﴾ . وغير ذلك من الآيات المشتملة على الترغيب والترهيب ، فتارةً يدعو عباده إليه بالرغبة وصفة الجنة والترغيب فيما لديه ، وتارةً يدعوهم إليه بالرهبة وذكر النار وأنكالها وعذابها ، والقيامة وأهوالها ، وتارةً بهذا وهذا ، لينجع فى كلٍّ بحسبه . جعلنا الله ممن أطاعه فيما أمر ، وترك ما عنه نهى وزجر ، وصدقه فيما أخبر ، إنه قريب مجيب سميع الدعاء ، جواد كريم وهاب ، وقد روى الإمام أحمد عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بالجنة أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من الجنة أحد ، خلق الله مائةَ رحمة ، فوضع واحدةً بين خلقه يتراحمون بها ، وعند الله تسعةٌ وتسعون [رحمة] » . ورواه الترمذى وقال : حسن . ورواه مسلم [١] .

آخر تفسير سورة الأنعام . والحمد لله والمنة [٢] .

* * *

(١) المسند : ١٠٢٨٥ . ومسلم ٢ : ٣٢٥ ، ولكن ليس عنده قوله : « خلق الله مائة رحمة . . . » . ولكنه ثابت عنده بمعناه ، ص ٣٢٤ - من وجه آخر من حديث أبى هريرة .

(٢) هنا بهامش المخطوطة العتيقة ما نصه : « آخر الجزء الثانى من تفسير سورة الأنعام ، من خط المؤلف ، عفا الله عنه » .

وبهامشها أيضاً : « بلغ مقابلة بالأصل » .

تفسير سورة الأعراف

وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ، قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ .

قد تقدم الكلام فى أول سورة البقرة على ما يتعلق بالحروف وبسطه واختلاف الناس فيه . " كتاب أنزل إليك " أى : هذا كتاب أنزل إليك ، أى : من ربك " فلا يكن فى صدرك حرج منه " قال مجاهد وقتادة والسدى : شك منه . وقيل : لا تتحرجْ به فى إبلاغه والإنذار به و ﴿ اصْبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ﴾ . ولهذا قال " لتنذر به " أى : أنزلناه إليك لتنذر به الكافرين " وذكرى للمؤمنين " . ثم قال تعالى مخاطباً للعالَم " اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم " . أى : اقتفوا آثار النبى الأمى الذى جاءكم بكتاب أنزل إليكم من رب كل شىء ومليكه " ولا تتبعوا من دونه أولياء " أى : لا تخرجوا عما جاءكم به الرسول إلى غيره ، فتكونوا قد عدلتم عن حكم الله إلى حكم غيره " قليلا ماتذكرون " كقوله : ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ . وقوله : ﴿ وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ﴾ . وقوله : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ .

﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾ ﴾

يقول تعالى " وكم من قرية أهلكناها " أى : بمخالفة رسلنا وتكذيبهم ، فأعقبهم ذلك خزىَ الدنيا موصولاً بذل الآخرة . كما قال تعالى : ﴿ ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة ، فهى خاوية على عروشها ، وبئر معطلة وقصر مشيد ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها ، فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا ، وكنا نحن الوارثين ﴾ . وقوله " فجاءها بأسنا " أى : فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه ونقمته " بياتاً " أى : ليلا " أو هم قائلون " من القيلولة ، وهى الاستراحة وسط النهار . وكلا الوقتين وقت غفلة ولهو . كما قال : ﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون * أوَأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ﴾ . وقال : ﴿ أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون * أو يأخذهم فى تقلبهم ، فما هم بمعجزين * أو يأخذهم على تخوف ، فإن ربكم لرؤف رحيم ﴾ . وقوله " فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين " أى : فما كان قولهم عند مجىء العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم ، وأنهم حقيقون بهذا . كما قال تعالى : ﴿ وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين * فلما أحسّوا بأسنا إذا هم منها يركضون * لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون * قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين * فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين ﴾ . قال ابن جرير : فى هذه الآية الدلالة الواضحة على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم روى عن أبى سنان ، عن عبد الملك بن ميسرة الزرّاد ، قال :

« قال عبد الله بن مسعود : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما هلك قوم حتى يُعْذِرُوا من أنفسهم ، قال : قلت لعبد الملك : كيف يكون ذاك ؟ قال : فقرأ هذه الآية " فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين " »[1] .

وقوله " فلنسئلن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين " كقوله تعالى : ﴿ ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ﴾ . وقوله : ﴿ يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم ، قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب ﴾ . فالربّ تبارك وتعالى يوم القيامة يسأل الأمم عما أجابوا رسله فيما أرسَل به ، ويسأل الرسل أيضاً عن بلاغ رسالاته . ولهذا قال ابن عباس فى تفسير هذه الآية " فلنسئلن الذين أرسل إليهم ولنسئلن المرسلين " قال : عما بلغوا . وروى ابن مردويه عن ابن عمر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلكم راعٍ ، وكلكم مسؤول عن رعيته ، فالإمام يُسأل عن الرجل ، والرجل يُسأل عن أهله ، والمرأة تُسأل عن بيت زوجها ، والعبد يسأل عن مال سيده ، ثم قرأ " فلنسئلن الذين أرسل إليهم ولنسئلن المرسلين " » . وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين بدون هذه الزيادة . وقال ابن عباس فى قوله " فلنقصنّ عليهم بعلم وما كنا غائبين " يوضع الكتاب يوم القيامة ، فيتكلم بما كانوا يعملون ، يعنى : أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا ، من قليل وكثير ، وجليل وحقير ، لأنه تعالى شهيدٌ على كل شىء ، لا يغيب عنه شىء ، ولا يغفل عنه شىء ، بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾ .

﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ، فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَـٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

---

(١) الطبرى : ١٤٣٢٣ . وذكر السيوطى ٣ : ٦٧ رواية ابن أبى حاتم بنحوه ، وقد جزم الطبرى هنا بصحته ! وما نراه صحيحاً ، فإن عبد الملك بن ميسرة الزراد يروى عن صغار الصحابة . ولا نراه أدرك ابن مسعود . عبد الملك مات بعد سنة ١١٠ ، وابن مسعود مات سنة ٣٢ أو ٣٣ .

يقول تعالى "والوزن" أى : للأعمال يوم القيامة "يومئذ الحق" أى : لا يظلم تعالى أحداً . كما قال تعالى : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ . وقال تعالى : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ . وقال تعالى : ﴿ فأما من ثقلت موازينه * فهو فى عيشة راضية * وأما من خفت موازينه * فأمه هاوية * وما أدراك ماهيه * نار حامية ﴾ . وقال تعالى : ﴿ فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون * فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون ﴾ . فصل : والذى يوضع فى الميزان يوم القيامة ، قيل : الأعمال وإن كانت أعراضاً ، إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساماً . قال البغوى : يروى نحو هذا عن ابن عباس . كما جاء فى الصحيح من أن « البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فِرْقان من طيرٍ صوافَّ » [(١)] . وكذلك فى الصحيح قصةُ القرآن ، وأنه : « يأتى صاحبه فى صورة شابٍّ شاحب اللون ، فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا القرآنُ الذى أسهرتُ ليلك وأظمأتُ نهارك » [(٢)] . وفى حديث البراء ، فى قصة سؤال القبر : « فيأتى المؤمنَ شابٌّ حسن اللون طيب الريح ، فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا عملك الصالح » . وذكر عكسه فى شأن الكافر والمنافق . وقيل : يوزن كتاب الأعمال ، كما جاء فى حديث البطاقة ، فى الرجل الذى يؤتى به ويُوضع له فى كفة تسعة وتسعون سجلا ، كل سجل مَدُّ البصر ، ثم يؤتى بتلك البطاقة فيها « لا إله إلا الله » فيقول : « يا رب ، وما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول الله تعالى : إنك لا تُظلم ، فتوضع تلك البطاقة فى كفة الميزان ، قال رسول الله صلى الله عليه

---

(١) هو جزء من حديث رواه أحمد ومسلم ، من حديث أبى أمامة الباهلى ، وقد مضى ج ١ ص ٩٠ . ومضى نحوه أيضاً من حديث بريدة ، عند أحمد ، ج ١ ص ٨٩ — ٩٠ .

(٢) ليس فى واحد من الصحيحين ، بل رواه — بنحوه — أحمد فى المسند ٥ : ٣٥٢ (حلبى) ، وابن ماجة : ٣٧٨١ ، كلاهما من حديث بريدة . وقال البوصيرى فى زوائده : « إسناده صحيح ، رجاله ثقات » . ومعناه ثابت ضمن حديث بريدة الماضى ج ١ ص ٨٩ — ٩٠ .

وسلم : فطاشت السجلات وثقلت البطاقة » . رواه الترمذى بنحو من هذا وصححه . وقيل : يوزن صاحب العمل ، كما فى الحديث : « يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين فلا يزن عند الله جناح بعوضة ، ثم قرأ: ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ ». وفى مناقب عبد الله بن مسعود ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أتعجبون من دقة ساقيه ! والذى نفسى بيده لهما فى الميزان أثقلُ من أُحُدٍ » . وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحاً ، فتارة توزن الأعمال ، وتارة توزن محالُّها ، وتارة يوزن فاعلُها . والله أعلم .

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

يقول تعالى ممتنًّا على عبيده فيما مكَّن لهم : من جَعْل الأرض قراراً ، وجَعَل فيها رواسى وأنهاراً ، وجعل لهم فيها منازل وبيوتاً ، وأباح لهم منافعها ، وسخر لهم السحاب لإخراج أرزاقهم منها ، وجعل لهم فيها معايش ، أى : مكاسب وأسباباً يتجرون فيها ، ويتسببون أنواع الأسباب ، وأكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلك . كما قال : ﴿ وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ . وقد قرأ الجميع "معايش" بلا همز ، إلا عبد الرحمن بن هرمز الأعرج فإنه همزها . والصواب الذى عليه الأكثرون بلا همز ، لأن " معايش " جمع معيشة ، من « عاش يعيش عيشاً ومعيشة » . أصلها « مَعْيِشَة » ، فاستثقلت الكسرة على الياء فنقلت إلى العين ، فصارت « مَعِيشَة » فلما جُمعت رجعت الحركة إلى الياء لزوال الاستثقال ، فقيل « معايش» ووزنه « مَفَاعِل» ، لأن الياء أصلية فى الكلمة ، بخلاف مدائن وصحائف وبصائر ، جمع مدينة وصحيفة وبصيرة ، من « مدن » و « صحف » و « أبصر » فإن الياء فيها زائدة ، ولهذا تجمع على « فعائل » ، وتُهمز لذلك . والله أعلم .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ

فَسَجَدُوا إلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّٰجِدِينَ (١١) ﴾

ينبه تعال بنى آدم فى هذا المقام على شرف أبيهم آدم ، ويبين لهم عدوّهم إبليس ، وما هو منطوٍ عليه من الحسد لهم ولأبيهم آدم ، ليحذروه ولا يتبعوا طرائقه — فقال تعالى " ولقد خلقناكم ثم صوّرناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم" وهذا كقوله تعالى : ﴿ وإذا قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من صلصال من حمإٍ مسنون * فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ﴾ . وذلك : أنه تعالى لما خلق آدم عليه السلام بيده من طين لازب ، وصوّره بشراً سويًّا ، ونفخ فيه من روحه ، أمر الملائكة بالسجود له ، تعظيمًا لشأن الربّ تعالى وجلاله ، فسمعوا كلهم وأطاعوا ، إلا إبليس لم يكن من الساجدين . وقد تقدم الكلام على إبليس فى أول سورة البقرة [١] . وهذا الذى قررناه هو اختيار ابن جرير : أن المراد بذلك كله آدم عليه السلام . وعن ابن عباس " ولقد خلقناكم ثم صوّرناكم " قال : خُلقوا فى أصلاب الرجال ، وصُوِّروا فى أرحام النساء . رواه الحاكم ، وقال : صحيح على شرطهما ولم يخرجاه . ونقل ابن جرير عن بعض السلف أيضاً : أن المراد بخلقناكم ثم صوّرناكم الذرية . وقال الربيع بن أنس والسدى وقتادة والضحاك فى هذه الآية ، أى : خلقنا آدم ثم صورنا الذرية . وهذا فيه نظر ، لأنه قال بعده " ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم " فدل على أن المراد بذلك آدم . وإنما قيل ذلك بالجمع لأنه أبو البشر ، كما يقول تعالى لبنى إسرائيل الذين كانوا فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم : ﴿ وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى) . والمراد آباؤهم الذين كانوا فى زمن موسى ، ولكن لما كان ذلك منةً على الآباء — الذين هم أصلٌ — صار كأنه واقع على الأبناء . وهذا بخلاف قوله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ — الآية ، فإن المرا منه آدم المخلوق من سلالة من طين ، وذريته مخلوقون من نطفة . وصح هذا لأن المراد من ﴿ خلقنا الإنسان ﴾ الجنس ، لا معيناً . والله أعلم .

---

(١) ج ١ ص ١٣٣ — ١٣٤ .

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ، قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ، خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢) ﴾

قال بعض النحاة فى توجيه قوله تعالى " ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك " — : « لا » هنا زائدة . وقال بعضهم زيدت لتأكيد الجحد ، كقول الشاعر * ما إنْ رأيتُ ولا سمعتُ بمثله * فأدخل « إنْ » وهى للنفى على « ما » النافية ، لتأكيد النفى . قالوا وكذلك ههنا " ما منعك أن لا تسجد " مع تقدم قوله ﴿ لم يكن من الساجدين ﴾ . حكاهما ابن جرير وردهما . واختار أن " منعك" مضمَّن معنى فعل آخر ، تقديره : ما أحرجك وألزمك واضطرك أن لا تسجد إذ أمرتك ، ونحو هذا . وهذا القول قوى حسن . والله أعلم . وقول إبليس لعنه الله " أنا خير منه " — من العذر الذى هو أكبر من الذنب ! كأنه امتنع من الطاعة لأنه لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول ! يعنى لعنه الله : وأنا خير منه فكيف تأمرنى بالسجود له ؟ ثم بين أنه خير منه بأنه خلق من نار ، والنار أشرف مما خلقته منه وهو الطين ! فنظر اللعين إلى أصل العنصر ، ولم ينظر إلى التشريف العظيم ، وهو : أن الله تعالى خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه ، وقاس قياساً فاسداً فى مقابلة نَصٍّ قوله تعالى: ﴿ فقعوا له ساجدين ﴾ . فشذَّ من بين الملائكة بترك السجود فلهذا أُبْلِسَ من الرحمة — أى أُويس من الرحمة — فأخطأ قبحه الله فى قياسه — ودعواه أن النار أشرف من الطين أيضاً ، فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم والأناة والتثبت ، والطين محل النبات والنموّ والزيادة والإصلاح ، والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة . ولهذا خانَ إبليسَ عنصرُه ، ونفع آدمَ عنصرُه فى الرجوع والإنابة والاستكانة ، والانقياد والاستسلام لأمر الله ، والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة . وفى صحيح مسلم عن عائشة ، قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خُلقت الملائكة من نور ، وخُلق إبليس من مارج من نار ، وخُلق آدم مما وُصِفَ لكم » [1]. وروى ابن جرير عن الحسن ، فى قوله

(١) صحيح مسلم ٢ : ٣٩١ — ٣٩٢ .

" خلقتنى من نار وخلقته من طين " قال : قاس إبليس ، وهو أول من قاس . إسناده صحيح. وروى عن ابن سيرين ، قال : أول من قاس إبليس ، وما عُبدت الشمسُ والقمر إلا بالمقاييس . وإسناده صحيح أيضاً .

﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا ، فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

يقول تعالى مخاطباً لإبليس بأمر قَدَرى كونى " فاهبط منها " أى : بسبب عصيانك لأمرى وخروجك عن طاعتى " فما يكون لك أن تتكبر فيها " قال كثير من المفسرين : الضمير عائد إلى الجنة . ويحتمل أن يكون عائداً على المنزلة التى هو فيها فى الملكوت الأعلى " فاخرج إنك من الصاغرين " أى : الذليلين الحقيرين ، معاملةً له بنقيض قصده ، ومكافأةً لمراده بضده . فعند ذلك استدرك اللعين وسأل النظرة إلى يوم الدين ، فقال " أنظرنى إلى يوم يبعثون * قال إنك من المنظرين " أجابه تعالى إلى ما سأل ، لما له فى ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التى لا تخالَف ولا تُمانَع ، ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب .

﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَنْ شَمَآئِلِهِمْ ، وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه لما أنظر إبليس إلى يوم يبعثون ، واستوثق إبليس بذلك أخذ فى المعاندة والتمرد ، فقال ، " فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم " أى : كما أغويتنى . قال ابن عباس : كما أضللتنى . وقال غيره : كما أهلكتنى – لأقعدن لعبادك الذين تخلقهم من ذرية هذا الذى أبعدتنى بسببه على صراطك المستقيم . أى : طريق الحق وسبيل النجاة ، فلأضلنهم عنها لئلا يعبدوك ولا يوحدوك بسبب

إضلالك إياى . وقال بعض النحاة : الباء هنا قسمية ، كأنه يقول : فبإغوائك إياى لأقعدن لهم صراطك المستقيم . قال مجاهد "صراطك المستقيم" يعنى : الحق . وقال عون بن عبد الله : يعنى طريق مكة. قال ابن جرير : والصحيح أن الصراط المستقيم أعم من ذلك . قلت : لما روى الإمام أحمد عن سَبْرة بن أبى فاكه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الشيطان قعد لابن آدم بأطْرُقِه ، فقعد له بطريق الإسلام ، فقال : أتسلم وتَذَرُ دينك ودين آبائك ؟ قال : فعصاه وأسلم ، قال : وقعد له بطريق الهجرة ، فقال : أتهاجر وتَدَعُ أرضك وسماءك ، وإنما مثل المهاجر كالفرس فى الطِّوَل ؟ فعصاه وهاجر ، ثم قعد له بطريق الجهاد وهو جهد النفس والمال ، فقال : تقاتل فتقتل ، فتُنكح المرأة ويُقسم المال ؟ قال : فعصاه وجاهد . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فمن فعل ذلك منهم فمات كان حقًّا على الله أن يدخله الجنة ، وإن قُتل كان حقًّا على الله أن يدخله الجنة ، وإن غرق كان حقًّا على الله أن يدخله الجنة ، أو وقصته دابة كان حقًّا على الله أن يدخله الجنة » (١) . وقوله " ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم " — الآية . قال ابن عباس " ثم لآتينهم من بين أيديهم " أشككهم فى آخرتهم " ومن خلفهم " أرغبهم فى دنياهم " وعن أيمانهم " أشبه عليهم أمر دينهم " وعن شمائلهم " أشهِّى لهم المعاصى . وقال قتادة : أتاهم من بين أيديهم فأخبرهم أنه لا بعث ولا جنة ولا نار ، ومن خلفهم من أمر الدنيا فزينها لهم ودعاهم إليها ، وعن أيمانهم من قبل حسناتهم بَطَّأهم عنها ، وعن شمائلهم زين لهم السيئات والمعاصى ودعاهم إليها وأمرهم بها ، آتاك يا ابن آدم من كل وجه ، غير أنه لم يأتك من فوقك ، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله . وقال مجاهد : من بين أيديهم وعن أيمانهم ، من حيث يبصرون ، ومن خلفهم وعن

---

(١) المسند ١٦٠٢٤ ، وكذلك رواه البخارى فى التاريخ الكبير ٢/٢/١٨٨ — ١٨٩ . وأشار إليه الحافظ فى الإصابة ٣ : ٦٤ ، ونسبه للنسائى « بإسناد حسن ، إلا أن فيه اختلافاً » . وذكره الطبرى فى التفسير : ١٤٣٦٤ بدون إسناد .

و « الأطرق » : جمع طريق ، مثل « يمين وأيمن » .

شمائلهم حيث لا يبصرون . واختار ابن جرير أن المراد جميع طرق الخير والشر ، فالخير يصدهم عنه والشر يحسنه لهم . وقال ابن عباس " ولا تجد أكثرهم شاكرين " قال : موحدين . وقول إبليس هذا إنما هو ظن منه وتوهم ، وقد وافق فى هذا الواقع . كما قال تعالى : ﴿ ولقد صدَّق عليهم إبليس ظنَّه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين * وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك ، وربك على كل شىء حفيظ ﴾ . ولهذا ورد فى الحديث الاستعاذة من تسلط الشيطان على الإنسان من جهاته كلها . كما روى البزار عن ابن عباس ، قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى ، اللهم استر عَوْرَاتى ، وآمِنْ رَوْعَاتى ، واحفظنى من بين يدىَّ ومن خلفى ، وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى ، وأعوذ بك اللهم أن أُغْتَال من تحتى » . تفرد به البزار ، وحسَّنه . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر ، قال : « لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يَدَعُ هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يمسى : اللهم إنى أسألك العافية فى الدنيا والآخرة ، اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى ، اللهم استر عَوْرَاتى وآمِنْ رَوْعاتى ، اللهم احفظنى من بين يدىَّ ومن خلفى ، وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى ، وأعوذ بعظمتك أن أُغتال من تحتى » . قال وكيع « من تحتى » يعنى الخسف . ورواه أبو داود والنسائى وابن ماجة وابن حبان والحاكم ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد [١] .

﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءوماً مَّدْحُوراً ، لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ⑱ ﴾

أكد تعالى عليه اللعنةَ والطردَ والإبعادَ والنفى عن محل الملأ الأعلى ، بقوله

---

(١) المسند : ٤٧٨٥ . وذكره الحافظ ابن كثير فى التاريخ أيضاً ١ : ٦٨ ، وخرجه كهذا التخريج .

" اخرج منها مذؤما مدحوراً " قال ابن جرير : أما المذؤم فهو المعيب ، والذأم – غير مشدّد – : العيب ، يقال « ذأمه يذأمه ذأماً فهو مذؤم » ويتركون الهمز فيقولون « ذمْتُه أذيمه ذَيْماً وذاماً » ، والذام والذيم : أبلغ فى العيب من الذم. قال : والمدحور المقصى ، وهو المبعد المطرود . وقال ابن عباس " اخرج منها مذؤماً مدحوراً " – : صغيراً مقيتاً . وقوله تعالى " لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين " كقوله تعالى : ﴿ قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً * واستفززْ من استطعتَ منهم بصوتك وأجلبْ عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غروراً * إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ، وكفى بربك وكيلا ﴾ .

﴿ وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ، وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا ، وَقَالَ مَا نَهَـٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ (٢١) ﴾

يذكر تعالى أنه أباح لآدم عليه السلام ولزوجته حوّاءَ الجنةَ أن يأكلا منها من جميع ثمارها ، إلا شجرة واحدة . وقد تقدم الكلام على ذلك فى سورة البقرة. فعند ذلك حسدهما الشيطان وسعى فى المكر والخديعة والوسوسة ليُسْلبا ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن " وقال " كذباً وافتراءً : ما نهاكما ربكما عن أكل هذه الشجرة إلا لئلا تكونا ملكين خالدين ههنا ، ولو أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلك " إلا أن تكونا ملكين" كقوله : ﴿ قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾ أى : لئلا تكونا ملكين . كقوله . ﴿ يبين الله لكم أن تضلوا ﴾ . أى : لئلا تضلوا . ﴿ وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ﴾ . أى : لئلا تميد بكم . وكان ابن عباس ويحيى بن أبى كثير يقرآن " إلا أن تكونا ملِكين " بكسر اللام . وقرأه الجمهور بفتحها " وقاسمهما " أى : حلف لهما

بالله " إنى لكما لمن الناصحين " فإنى من قبلكما ههنا وأعلم بهذا المكان . وهذا من باب « المفاعلة » والمراد أحد الطرفين . أى : حلف لهما بالله على ذلك حتى خدعهما ، وقد يخدع المؤمن بالله . وكان بعض أهل العلم يقول : من خادعنا بالله خُدِعْنا .

﴿ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ، فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ، وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) ﴾

قال مجاهد : جعلا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، قال : كهيئة الثوب . وقال الضحاك بن مزاحم فى قوله " ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين " هى الكلمات التى تلقاها آدم من ربه .

﴿ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥) ﴾

قيل : المراد بالخطاب بـ " اهبطوا " آدم وحواء وإبليس والحية . ومنهم من لم يذكر الحية . والله أعلم . والعمدة فى العداوة آدم وإبليس . ولهذا قال تعالى فى سورة طه قال ﴿ اهبطا منها جميعاً ﴾ — الآية . وحواء تبع لآدم ، والحية — إن كان ذكرها صحيحاً — فهى تبع لإبليس . وقد ذكر المفسرون الأماكن التى هبط فيها كل منهم ، ويرجع حاصل تلك الأخبار إلى الإسرائيليات ، والله أعلم بصحتها . ولو كان فى تعيين تلك البقاع فائدة تعود على المكلفين فى أمر دينهم أو دنياهم لذكرها الله تعالى فى كتابه أو رسوله صلى الله عليه وسلم .

وقوله " ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين " أى : قرار وأعمار مضروبة

إلى آجال معلومة ، قد جرى بها القلم وأحصاها القدر وسطرت فى الكتاب الأوَّل . وقوله " قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون " كقوله تعالى : ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ . يخبر تعالى أنه جعل الأرض داراً لبنى آدم مدةَ الحياة الدنيا ، فيها محياهم وفيها مماتهم وقبورهم ، ومنها نشورهم ليوم المَعَادِ ، الذى يجمع الله فيه الأولين والآخرين ، ويجازى كلا بعمله .

﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشاً ، وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ، ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) ﴾

يمتن تعالى على عباده بما جعل لهم من اللباس والرياش . فاللباس – المذكور ههنا – : لستر العورات ، وهى السوآت ، والرياش والريش : ما يتجمل به ظاهراً ، فالأول من الضروريات ، والريش من التكملات والزيادات . قال ابن جرير : الرياش فى كلام العرب الأثاث وما ظهر من الثياب . وقال ابن عباس – وحكاه البخارى عنه – : الريش المال . وكذا قال مجاهد وعروة بن الزبير وغيرهم . وعن ابن عباس : الرياش اللباس والعيش والنعيم . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الرياش الجمال . وروى الإمام أحمد عن أبى العلاء الشامى ، قال : " لبس أبو أمامة ثوباً جديداً ، فلما بلغ ترقوته قال : الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى وأتجمل به فى حياتى ، ثم قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من استجد ثوباً فلبسه فقال حين يبلغ ترقوته : الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى وأتجمل به فى حياتى ، ثم عمد إلى الثوب الخَلَق فتصدق به ، كان فى ذمة الله وفى جوار الله وفى كنف الله حيًّا وميتاً » . رواه الترمذى وابن ماجة . وأبو العلاء الشامى : لا يعرف إلا بهذا الحديث ، ولكن لم يَجْرَحْه أحد . والله أعلم [١] . وعن أبى مَطَر : « أنه رأى

(١) المسند ، رقم : ٣٠٥ .

عليًّا أتى غلاماً حدثاً فاشترى منه قميصاً بثلاثة دراهم ، ولبسه ما بين الرسغين إلى الكعبين ، يقول ولبسه : الحمد لله الذى رزقنى من الرياش ما أتجمل به فى الناس وأوارى به عورتى ، فقيل : هذا شىء ترويه عن نفسك أو عن النبى صلى الله عليه وسلم ؟ قال : هذا شىء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول عند الكسوة : الحمد لله الذى رزقنى من الرياش ما أتجمل به فى الناس وأوارى به عورتى » . رواه الإمام أحمد [1] . وقوله تعالى " ولباس التقوى ذلك خير " قرأ بعضهم " ولباسَ التقوى" بالنصب . وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء ، و " ذلك خير " خبره . واختلف المفسرون فى معناه : فقال عكرمة : يقال هو ما يلبسه المتقون يوم القيامة . رواه ابن أبى حاتم . وقال قتادة وابن جريج : ولباس التقوى الإيمان . وقال ابن عباس : العمل الصالح . وعن ابن عباس : هو السمت الحسن فى الوجه . وعن عروة بن الزبير : لباس التقوى خشية الله . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ولباس التقوى : يتقى الله فيوارى عورته ، فذاك لباس التقوى . وكلها متقاربة .

﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ، إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ، إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

يقول تعالى محذراً بنى آدم من إبليس وقبيله ، مبيناً لهم عداوته القديمة لأبى البشر آدم عليه السلام ، فى سعيه فى إخراجه من الجنة التى هى دار النعيم ، إلى دار التعب والعناء ، والتسبب فى هتك عورته بعد ما كانت مستورةً عنه . وما هذا إلا عن عداوة أكيدة . وهذا كقوله تعالى : ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدوّ ، بئس للظالمين بدلاً ﴾ .

---

(١) المسند : ١٣٥٤ .

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَٰحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ، قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَاءِ ، أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ، وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ، كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ، إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

قال مجاهد : كان المشركون يطوفون بالبيت عُراة ، يقولون : نطوف كما ولدتنا أمهاتنا ، فتضع المرأة على قبُلُها النِّسْعَةَ أو الشيء[1]، وتقول :

اليومَ يَبْدُو كُلُّه أو بعضُهُ وما بَدَا منه فلا أُحِلُّهُ

فأنزل الله تعالى " وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا " — الآية . قلت : كانت العرب ما عدا قريش لا يطوفون بالبيت فى ثيابهم التى لبسوها ، يتأولون فى ذلك أنهم لا يطوفون فى ثياب عَصَوُا الله فيها ، وكانت قريش — وهم الحُمْسُ — يطوفون فى ثيابهم ، ومن أعاره أحمسىّ ثوباً طاف فيه ، ومن معه ثوب جديد طاف فيه ، ثم يلقيه فلا يتملكه أحد ، فمن لم يجد ثوباً جديداً ولا أعاره أحمسى ثوباً طاف عرياناً ، وربما كانت امرأةٌ فتطوف عريانة ، فتجعل على فرجها شيئاً يستره بعض الشيء ، وتقول :

اليومَ يبدُو كله أو بعضُهُ وما بدَا منه فلا أحلهُ

وأكثرُ ما كان النساء يطفن عراةً بالليل ، وكان هذا شيئاً قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم واتبعوا فيه آباءهم ، ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله وشرع ، فأنكر الله تعالى عليهم ذلك ، فقال " وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا

(١) « النسعة » — بكسر النون وسكون السين : القطعة من « النسع » ، وهو سير يضفر على هيئة أعنة النعال .

عليها آباءنا والله أمرنا بها " فقال تعالى ردًّا عليهم " قل " أى : قل يا محمد لمن ادعى ذلك " إن الله لا يأمر بالفحشاء " أى : هذا الذى تصنعونه فاحشةٌ منكرة ، والله لا يأمر بمثل ذلك " أتقولون على الله ما لا تعلمون" أى : أتُسْنِدون إلى الله من الأقوال ما لا تعلمون صحته . وقوله " قل أمر ربى بالقسط " أى : بالعدل والاستقامة " وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين " أى : أمركم بالاستقامة فى عبادته فى محالها ، وهى متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات فيما أخبروا به عن الله ، وجاؤا به من الشرائع ، وبالإخلاص له فى عبادته ، فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين : أن يكون صواباً موافقاً للشريعة ، وأن يكون خالصاً من الشرك . وقوله تعالى " كما بدأكم تعودون ، * فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة " اختلف فى معنى قوله تعالى " كما بدأكم تعودون " — : فقال مجاهد : يحييكم بعد موتكم . وقال الحسن البصرى : كما بدأكم فى الدنيا كذلك تعودون يوم القيامة أحياءً . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كما بدأكم أولا كذلك يعيدكم آخراً . واختار هذا القول ابنُ جرير ، وأيده بما رواه عن ابن عباس ، قال : « قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة ، فقال : يا أيها الناس إنكم تُحشرون إلى الله حفاةً عُرَاة غُرْلاً : ﴿ كما بدأنا أوّل خلق نعيده ، وعداً علينا ، إنا كنا فاعلين ﴾ » . وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين [١]. وعن مجاهد " كما بدأكم تعودون " قال : يبعث المسلم مسلماً والكافر كافراً . وقال ابن عباس : قوله " كما بدأكم تعودون * فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة " قال : إن الله تعالى بدأ خلق ابن آدم مؤمناً وكافراً ، كما قال : ﴿ هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾ ، ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم ، مؤمناً وكافراً . قلت : ويتأيد هذا القول بحديث ابن مسعود فى صحيح البخارى : « فوالذى لا إله غيره ، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل

---

(١) الطبرى : ١٤٥٠٢ ، ورواه أحمد فى المسند – مطولا ومختصراً – : ١٩٥٠ ، ٢٠٢٧ ، ٢٠٩٦ ، ٢٢٨١ ، ٢٢٨٢ ، والبخارى ٨ : ٣٣٢ ، و ١١ : ٣٣١ (فتح) .

و « الغرل » – بضم الغين المعجمة وسكون الراء : جمع « أغرل » ، وهو الأقلف الذى لم يختن .

الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة » . وروى البغوى عن سهل بن سعد ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن العبد ليعمل فيما يَرَى الناسُ بعمل أهل الجنة، وإنه من أهل النار ، وإنه ليعمل فيما يرى الناس بعمل أهل النار ، وهو من أهل الجنة ، وإنما الأعمال بالخواتيم » . هذا قطعة من حديث رواه البخارى. وروى ابن جرير عن جابر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « تبعث كل نفس على ما كانت عليه » . رواه مسلم وابن ماجة ، ولفظه : « يبعث كل عبد على ما مات عليه » . وعن ابن عباس مثله . قلت : ولا بد من الجمع بين هذا القول — إن كان هو المرادَ من الآية — وبين قوله تعالى ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرت الله التى فطر الناس عليها ﴾ ، وما جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » . وفى صحيح مسلم عن عياض بن حِمَار ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى : إنى خلقت عبادى حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم » — الحديث [1] . ووجه الجمع على هذا : أنه تعالى خلقهم ليكون منهم مؤمن وكافر فى ثانى الحال ، وإن كان قد فطر الخلق كلهم على معرفته وتوحيده والعلم بأنه لا إله غيره ، كما أخذ عليهم الميثاق بذلك وجعله فى غرائزهم وفطرهم ، ومع هذا قدَّر أن منهم شقيًّا ومنهم سعيداً ﴿ هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾ . وفى الحديث : «كل الناس يغدو ، فبائعٌ نفسَه فَمُعْتِقُها أو مُوبِقُها »[2] وقَدَرُ الله نافذ فى بريته ، فإنه هو ﴿الذى قدر فهدى﴾ و﴿الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى﴾ . وفى الصحيحين : « فأما من كان منكم من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة ، وأما من كان

---

(١) مضى كاملا ج ٤ ص ١١٥ .

(٢) من حديث رواه مسلم ١ : ٨٠ ، من حديث أبى مالك الأشعرى .

من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة » [١] . ولهذا قال تعالى " فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة " ثم علل ذلك فقال " إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون " . قال ابن جرير : وهذا من أبين الدلالة على خطأ من زعم أن الله لا يعذب أحداً على معصية ركبها أو ضلالة اعتقدها إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها فيركبها عناداً منه لربه فيها ، لأن ذلك لو كان كذلك لم يكن بين فريق الضلالة الذى ضل وهو يحسب أنه مهتد وفريق الهدى فرق ، وقد فرق الله تعالى بين أسمائهما وأحكامهما فى هذه الآية.

ربع ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ، وَكُلُوا وَٱشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوٓا ، إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

هذه الآية الكريمة ردّ على المشركين فيما كانوا يعتمدونه من الطواف بالبيت عراة كما رواه مسلم والنسائى وابن جرير ، واللفظ له ، عن ابن عباس ، قال : « كانوا يطوفون بالبيت عراةً ، الرجال والنساء ، الرجال بالنهار ، والنساء بالليل ، وكانت المرأة تقول :

اليومَ يبدو بعضُه أو كلُّه وما بَدَا منه فلا أُحِلُّهُ

فقال الله تعالى " خذوا زينتكم عند كل مسجد " » . وقال ابن عباس : الزينة اللباس ، وهو ما يوارى السوأة وما سوى ذلك من جيد البزّ والمتاع ، فأمروا أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد . وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغير واحد من أئمة السلف فى تفسيرها : أنها نزلت فى طواف المشركين بالبيت عراة . ولهذه الآية وما ورد فى معناها من السنة يُستحب التجملُ عند الصلاة ، ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد ، والطِّيب ، لأنه من الزينة ، والسواك ، لأنه من تمام ذلك . ومن أفضل اللباس البياض كما روى الإمام أحمد عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الْبَسُوا من ثيابكم البياض ، فإنها

---

(١) انظر البخارى – بنحوه – من حديث على ، ج ٣ ص ١٧٩ (فتح) .

من خير ثيابكم ، وكفنوا فيها موتاكم ، وإن خير أكحالكم الإثْـمِـد، فإنه يجلو البصر ويُنبت الشعر » . هذا حديث جيد الإسناد رجاله على شرط مسلم ، ورواه أبو داود والترمذى وابن ماجة ، وقال الترمذى : حسن صحيح [1] . والإمام أحمد أيضاً وأهل السنن ، بإسناد جيد، عن سمرة بن جندب ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عليكم بثياب البياض فالبسوها ، فإنها أطهر وأطيب ، وكفنوا فيها موتاكم » ، وقوله تعالى " وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين " قال بعض السلف : جَمع الله الطبَّ كله فى نصف آية " وكلوا واشربوا ولا تسرفوا " . وقال البخارى : قال ابن عباس : كل ما شئتَ ، والبس ما شئتَ ، ما أخطأتك خَصْلتان : سَرَف ومَخيلة . وروى ابن جرير عن ابن عباس ، قال : « أحل الله الأكل والشرب ما لم يكن سرفاً أو مخيلة » . إسناده صحيح . وروى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا ، من غير مَخِيلة ولا سرف ، فإن الله يحب أن يَرَى نعمتَه على عبده » . ورواه النسائى وابن ماجة بنحوه [2] . وروى الإمام أحمد عن المقدام بن معدى كرب الكندى ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًّا من بَطْنٍ ، حَسْبُ ابنِ آدم أُكلات يُقِمْنَ صُلْبه ، فإن كان فاعلا لا محالة ، فثُلُثٌ طعامٌ ، وثُلُثٌ، شَرَابٌ، وثلثٌ لِنَفَسِه » . ورواه النسائى والترمذى ، وقال الترمذى : حسن ، وفى نسخة : حسن صحيح [3] . وقال السدى : كان الذين يطوفون بالبيت عراة يحرمون عليهم الوَدَك ما أقاموا فى الموسم ، فقال الله تعالى لهم " كلوا واشربوا ولا تسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين " يقول : لا تسرفوا فى التحريم . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم " ولا تسرفوا " يقول : لا تأكلوا حراماً ، ذلك الإسرافُ . وقال ابن جرير : وقوله " إنه لا يحب المسرفين " يقول الله تعالى :

---

(١) المسند : ٢٠٤٧ .

(٢) المسند : ٦٧٠٨ . وقد مضى بعضه وتخريجه ج ٣ ص ١٧٤ .

(٣) المسند : ١٧٢٥٢ .

إن الله لا يحب المعتدين حَدَّه فى حلال أو حرام، الغالين فيما أحَلَّ بإحلال الحرام أو بتحريم الحلال، ولكنه يحب أن يُحَلَّل ما أحَلَّ، ويحرِّم ما حرم، وذلك العدلُ الذى أمر به.

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ، قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ، كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) ﴾

يقول تعالى رادًّا على من حرم شيئاً من المآكل أو المشارب أو الملابس من تلقاء نفسه من غير شرع من الله -: " قل " يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يحرمون ما يحرمون بآرائهم الفاسدة وابتداعهم " من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا " أى: هى مخلوقة لمن آمن بالله وعبده فى الحياة الدنيا - وإن شركهم فيها الكفار حسًّا فى الدنيا - فهى لهم خاصة يوم القيامة، لا يشركهم فيها أحد من الكفار، فإن الجنة محرمة على الكافرين.

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣) ﴾

روى الإمام أحمد عن عبد الله، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لا أحد أغْيَرُ من الله، فلذلك حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحدَ أحبُّ إليه المدح من الله ». أخرجاه فى الصحيحين [١]. وتقدم الكلام فى سورة الأنعام على ما يتعلق بالفواحش ما ظهر منها وما بطن [٢]. وقوله " والإثم والبغى

---

(١) مضى أطول من هذا ج ٤ ص ٤٧ - مخرجاً.

(٢) الآية ١٥١ الأنعام.

بغير الحق " قال السدى : أما الإثم فالمعصية ، والبغى أن تبغى على الناس بغير الحق . وقال مجاهد : الإثم المعاصى كلها ، وأخبر أن الباغى بغيه كائن على نفسه . وحاصل ما فسر به الإثم : أنه الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه ، والبغى : هو التعدى إلى الناس . فحرم الله هذا وهذا . وقوله تعالى " وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون " أى : تجعلوا له شريكاً فى عبادته وأن تقولوا عليه من الافتراء والكذب — من دعوى أن له ولداً ونحو ذلك — ما لا علم لكم به . كما قال تعالى : ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به ﴾ .

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ، فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَابَنِى ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِى فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

يقول تعالى " ولكل أمة " أى : قرن وجيل " أجل ، فإذا جاء أجلهم " أى : ميقاتهم المقدر لهم " لا يستأخرون ساعة " أى : عن ذلك " ولا يستقدمون " . ثم أنذر تعالى بنى آدم أنه سيبعث إليهم رسلا يقصون عليهم آياته وبشر وحذر ، فقال " فمن اتقى وأصلح " أى : ترك المحرمات وفعل الطاعات " فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها " أى كذبت بها قلوبهم واستكبروا عن العمل بها " أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون " أى : ماكثون فيها مكثاً مخلداً .

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ، أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِّنَ الْكِتَابِ ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ، وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

يقول تعالى " فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته " أى : لا أحد أظلم ممن افترى الكذب على الله ، أو كذّب بآيات الله المنزلة " أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب " اختلف المفسرون فى معناه : ابن عباس : يقول : نصيبهم من الأعمال ، من عمل خيراً جُزى به ، ومن عمل شرًّا جُزى به . وقال مجاهد: ما وُعدوا به من خير وشرّ. وكذا قال قتادة والضحاك وغير واحد . واختاره ابن جرير وقال محمد بن كعب القرظى : عمله ورزقه وعمره . وكذا قال الربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم . وهذا القول قوىّ فى المعنى ، والسياق يدل عليه ، وهو قوله " حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم " . ويصير المعنى فى هذه الآية كما فى قوله : ﴿ إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾ ،وقوله : ﴿ ومن كفر فلا يحزنك كفره ، إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا، إن الله عليم بذات الصدور * نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾ . وقوله تعالى " حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله " يخبر تعالى : أن الملائكة إذا توفت المشركين بنزعهم عند الموت وقبض أرواحهم إلى النار ، يقولون لهم : أين الذين كنتم تشركون بهم فى الحياة ، وتدعونهم وتعبدونهم من دون الله ، ادعوهم يخلصونكم مما أنتم فيه " قالوا ضلوا عنا " أى: ذهبوا عنّا ، فلا نرجو نفعهم ولا خيرهم " وشهدوا على أنفسهم " أى أقرّوا واعترفوا على أنفسهم " أنهم كانوا كافرين" .

﴿ قَالَ ٱدْخُلُوا فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ، كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ، حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ، قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عما يقوله لهؤلاء المشركين به ، المفترين عليه ، المكذبين بآياته — : " ادخلوا فى أمم " أى : من أشكالكم وعلى صفاتكم " قد خلت من قبلكم " أى : من الأمم السالفة الكافرة " من الجن والإنس فى النار " يحتمل أن يكون بدلا من قوله " فى أمم " ويحتمل أن يكون " فى أمم " أى : مع أمم . وقوله " كلما دخلت أمة لعنت أختها " كما قال الخليل عليه السلام : ﴿ ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب * وقال الذين اتَّبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤوا منَّا ، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾ . وقوله " حتى إذا اداركوا فيها جميعاً " أى : اجتمعوا فيها كلهم " قالت أخراهم لأولاهم " أى : أخراهم دخولا ، وهم الأتباع ، لأولاهم ، وهم المتَّبَعُون ، لأنهم أشدّ جُرْماً من أتباعهم ، فدخلوا قبلهم ، فتشكوهم الأتباع إلى الله يوم القيامة ، لأنهم هم الذين أضلوهم عن سواء السبيل ، فيقولون " ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار " أى : أضْعِفْ عليهم العقوبة . كما قال تعالى : ﴿ يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا * وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا * ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً ﴾ وقوله " قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون " أى : قد فعلنا ذلك ، وجازينا كلا بحسبه . كما قال : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ﴾ . وقال ﴿ ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ، ألا ساء ما يزرون ﴾ " وقالت أولاهم لأخراهم " أى : قال المتبوعون للأتباع " فما كان لكم علينا من فضل " قال السدى : فقد ضللتم كما ضللنا " فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون " وهذا الحال كما أخبر تعالى عنهم فى حال محشرهم فى قوله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول ، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنَّا مؤمنين * قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى

بعد إذ جاءكم ، بل كنتم مجرمين * وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً ، وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ، وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا ، هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِئَايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِى سَمِّ الْخِيَاطِ ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾

قوله " لا تفتح لهم أبواب السماء" قيل : المراد لا يرفع لهم منها عمل صالح ولا دعاء . قاله مجاهد وسعيد بن جبير ، وروى عن ابن عباس . وقيل : المراد لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء . روى عن ابن عباس ، وقاله السدى وغير واحد . ويؤيده ما روى ابن جرير عن البراء : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر قبض روح الفاجر وأنه يُصعد بها إلى السماء ، فيصعدون بها ، فلا تمر على ملإ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الخبيثة ، فيقولون: فلان ، بأقبح أسمائه التى كان يدعى بها فى الدنيا ، حتى ينتهوا بها إلى السماء ، فيستفتحون بابها له فلا يُفتح له ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط " »[1] . هكذا رواه . وهو قطعة من حديث طويل رواه أبو داود والنسائى وابن ماجة . وقد رواه الإمام أحمد بطوله عن البراء بن عازب ، قال: « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة رجل من الأنصار ، فانتهيا إلى القبر ولمّا يُلْحَدْ ، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجلسنا حوله كأن على رءوسنا الطير ، وفى يده عود ينكت به فى الأرض ، فرفع رأسه فقال : استعيذوا بالله من عذاب القبر — مرتين أو ثلاثاً — ثم قال :

(١) الطبرى : ١٤٦١٤ .

إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال إلى الآخرة ، نزل إليه ملائكةٌ من السماء بيضُ الوجوه ، كأن وجوههم الشمسُ ، معهم كفن من أكفان الجنة، وحَنُوطٌ من حَنُوط الجنة ، حتى يجلسوا منه مَدّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول : أيتها النفس المطمئنة ، اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان ، قال : فتخرج تسيل كما تسيل القطرة مِنْ فِي السقاء ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يَدَعوها فى يده طرفةَ عين حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الكفن وفى ذلك الحنوط ، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وُجدتْ على وجه الأرض، فيصعدون بها ، فلا يمرون — يعنى — بها على ملإ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الطيبة ؟ فيقولون : فلان بن فلان ، بأحسن أسمائه التى كانوا يسمونه بها فى الدنيا ، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا ، فيستفتحون له ، فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مُقَرَّبوها إلى السماء التى تليها ، حتى يُنْتَهى به إلى السماء السابعة ، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدى فى عليين ، وأعيدوه إلى الأرض ، فإنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال : فتعاد روحه ، فيأتيه ملكان فيجلسانه ، فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربى الله ، فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : دينى الإسلام، فيقولان له : ما هذا الرجل الذى بُعث فيكم ؟ فيقول: هو رسول الله ، فيقولان له : وما عملك ؟ فيقول: قرأت كتابَ الله فآمنتُ به وصدقتُ، فينادى منادٍ من السماء: أنْ صَدَقَ عبدى، فأفرِشُوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، فيأتيه من رَوْحها وطيبها، ويُفسح له فى قبره مدَّ البصر ، قال : ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح، فيقول: أبشر بالذى يَسُرُّك، هذا يومُك الذى كنت توعَد ، فيقول له : من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير ، فيقول: أنا عملك الصالح ، فيقول : ربِّ أقِمِ الساعة، ربِّ أقم الساعةَ حتى أرجعَ إلى أهلى ومالى ، قال : وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة ، نزل إليه من السماء ملائكةٌ سود الوجوه معهم المُسُوح ، فيجلسون منه مدَّ البصر ، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه ، فيقول :

أيتها النفس الخبيثة ، اخرجى إلى سخط من الله وغضب ، قال : فتفرق فى جسده ، فينتزعها كما ينتزع السَّفُّود من الصوف المبلول ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يَدَعوها فى يده طرفةَ عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح ، ويخرج منها كأنتن ريح جيفةٍ وُجدتْ على وجه الأرض ، فيصعدون بها ، فلا يمرون بها على ملإ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون : فلان بن فلان ، بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا ، حتى ينتهى به إلى السماء الدنيا ، فيستفتح فلا يفتح له ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط " فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتابه فى سِجِّين ، فى الأرض السفلى ، فتطرح روحه طرحاً ، ثم قرأ : ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خرَّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾ ، فتعاد روحه فى جسده ، و يأتيه ملكان فيجلسانه ، فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : هَاهْ هَاهْ لا أدرى ! فيقولان ! ما دينك ؟ فيقول : هاه هاه لا أدرى ، فيقولان : ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول : هاه هاه لا أدرى ، فينادى منادٍ من السماء : أن كذب ، فأفْرِشُوه من النار ، وافتحوا له باباً إلى النار ، فيأتيه من حرها وسَمُومها ، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتنُ الريح ، فيقول : أبشر بالذى يسوءُك ، هذا يومك الذى كنت تُوعَد ، فيقول : من أنت؟ فوجهك الوجه يجىء بالشرّ ، فيقول : أنا عملك الخبيث ، فيقول : ربِّ لا تُقِمِ الساعة ». وروى الإمام أحمد عن البراء بن عازب ، قال : « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنازة » — فذكر نحوه — وفيه : « حتى إذا خرج روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك فى السماء ، وفتحت له أبواب السماء ، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله عز وجل أن يُعْرَج بروحه من قِبَلِهم » — وفى آخره — « ثم يقيض له أعمى أصم أبكم ، فى يده مِرْزَبَّة لو ضرب بها جبل كان تراباً ، فيضربه ضربة فيصير تراباً ، ثم يعيده الله عز وجل كما كان ، فيضربه ضربة أخرى ، فيصيح صيحة يسمعها كل شىء إلا الثقلين ، قال البراء : ثم يفتح له باب من النار ،

ويمهد له من فرش النار » [١] . وفى الحديث الذى رواه الإمام أحمد والنسائى وابن ماجة وابن جرير – واللفظ له – عن أبى هريرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الميت تحضره الملائكة ، فإذا كان الرجل الصالح قالوا : اخرجى أيتها النفس المطمئنة كانت فى الجسد الطيب ، اخرجى حميدةً ، وأبشرى برَوْح ورَيحْان وربٍّ غيرِ غضبان ، فيقولون ذلك حتى يعرج بها إلى السماء ، فيستفتح لها ، فيقال : من هذا ؟ فيقولان : فلان ، فيقال : مرحباً بالنفس الطيبة التى كانت فى الجسد الطيب ، ادخلى حميدةً ، وأبشرى بروح وريحان ورب غير غضبان ، فيقال لها ذلك حتى يُنْتهى بها إلى السماء التى فيها الله عز وجل ، وإذا كان الرجل السَّوْء قالوا : اخرجى أيتها النفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث ، اخرجى ذميمةً ، وأبشرى بحميم وغسَّاق وآخر من شكله أزواج ، فيقولون ذلك حتى تخرج ، ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها ، فيقال : من هذا ؟ فيقولون : فلان ، فيقولون : لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث ، ارجعى ذميمةً ، فإنه لم يُفتح لكِ أبواب السماء ، فترسل بين السماء والأرض فتصير إلى القبر » [٢] . وقد قال ابن جريج فى قوله " لا تفتح لهم أبواب السماء " – : لا تفتح لأعمالهم ولا لأرواحهم . وهذا فيه جمع بين القولين . والله أعلم . وقوله " ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط " هكذا قرأه الجمهور [٣] . وفسروه بأنه البعير . قال ابن مسعود : هو الجمل ابنُ الناقة ، وفى رواية : زوجُ الناقة . وقال الحسن البصرى : حتى يدخل البعير فى خرق الإبرة . وكذا قال

(١) الرواية الأولى فى المسند ٤ : ٢٨٧ – ٢٨٨ . والثانية فيه ٤ : ٢٩٥ – ٢٩٦ (حلبى) وهو فى أبى داود : ٤٧٥٣ ، ٤٧٥٤ ، ورواه الحاكم ١ : ٣٧ – ٣٩ بأسانيد ، وصححه على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى . وأطال الحافظ ابن القيم القول فى تصحيحه والرد على من أعله – فى تهذيب السنن : ٤٥٨٦ (ج ٧ ص ١٣٩ – ١٤٦) . ونقله قاضى القضاة ابن أبى العز فى شرح الطحاوية ، ص ٣٣١ – ٣٣٣ ، ونسبه أيضاً لابن أبى عوانة وابن حبان .

(٢) مضى فى هذا الجزء مخرجاً ، ص ٣٠ – ٣١ .

(٣) فى المطبوعة « هكذا رواه الجمهور » . وفى المخطوطتين « هكذا فسره الجمهور » . وكلاهما غير جيد ، فكتبناها « قرأه » لأنه أضبط فى المعنى وأجود .

أبو العالية والضحاك ، وكذا رُوى عن ابن عباس . وقال مجاهد وعكرمة عن ابن عباس : أنه كان يقرؤها « يلج الجُمَّلُ فى سم الخياط » بضم الجيم وتشديد الميم ، يعنى الحبل الغليظ فى خرق الإبرة . وهذا اختيار سعيد بن جبير . وفى رواية أنه قرأ « حتى يلج الجُمَّل » يعنى ؛ قلوس السفن ، وهى الحبال الغلاظ . وقوله " لهم من جهنم مهاد " قال محمد بن كعب القرظى : الفرش " ومن فوقهم غواش " قال : اللحف . وكذا قال الضحاك بن مزاحم والسدى " وكذلك نجزى الظالمين " .

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَنَّةِ ، هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَٰرُ ، وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَا أَنْ هَدَىٰنَا اللَّهُ ، لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ، وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) ﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر حال السعداء ، فقال " والذين آمنوا وعملوا الصالحات " أى : آمنتْ قلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم . ضد أولئك الذين كفروا بآيات الله واستكبروا عنها . وينبه تعالى على أن الإيمان والعمل به سهل ، لأنه تعالى قال : " لا نكلف نفساً إلا وسعها ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون * ونزعنا ما فى صدورهم من غل " أى : من حسد وبغضاء . كما جاء فى الصحيح للبخارى عن أبى سعيد الخدرى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا خلص المؤمنون من النار حُبسوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فاقتُص لهم مظالمُ كانت بينهم فى الدنيا ، حتى إذا هُذّبوا ونُقّوا أُذِنَ لهم فى دخول الجنة ، فوالذى نفسى بيده ، إن أحدهم بمنزله فى الجنة أدلُّ منه بمسكنه كان فى الدنيا » . وقال قتادة : قال علىّ : إنى لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم " ونزعنا ما فى صدورهم من غل " رواه ابن جرير . وروى عبد الرزاق عن على ، قال : « فينا — والله — أهلَ بدر نزلت " ونزعنا ما

فى صدورهم من غل " » . وروى النسائى وابن مردويه — واللفظ له — عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل أهل الجنة يرى مقعده من النار ، فيقول : لولا أن الله هدانى ، فيكون له شكراً ، وكل أهل النار يرى مقعده من الجنة ، فيقول : لو أن الله هدانى ، فيكون له حسرة » [١] .
ولهذا لما أُورثوا مقاعدَ أهل النار من الجنة "نودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون " أى : بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة ، فدخلتم الجنة ، وتبوأتم منازلكم بحسب أعمالكم . وإنما وجب الحمل على هذا لما ثبت فى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « واعلموا أن أحدكم لن يدخله عملُه الجنةَ ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل » [٢] .

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّمْ مَاوَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَٰفِرُونَ (٤٥) ﴾

يخبر تعالى بما يخاطِب به أهلُ الجنة أهلَ النار إذا استقروا فى منازلهم — وذلك على وجه التقريع والتوبيخ — : " أنْ قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا " « أنْ » ههنا مفسِّرة للقول المحذوف ، و « قد » للتحقيق . أى : قالوا لهم : قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا ؟ قالوا : نعم . كما أخبر تعالى فى سورة الصافات عن الذى كان له قرينٌ من الكفار ﴿ فاطلع فرآه فى

---

(١) ورواه أحمد فى المسند : ١٠٦٦٠ . وذكره الهيثمى فى الزوائد ١٠ : ٣٩٩ ، ثم رواية أخرى له ، ثم قال : « رواه كله أحمد ، ورجال الرواية الأولى (يريد هذه الرواية) رجال الصحيح » .

(٢) هو بمعناه ثابت من حديث أبى هريرة . انظر المسند : ٧٢٠٢ ، ٧٤٧٣ ، ٧٥٧٧ . والبخارى ١٠ : ١٠٩ — ١١٠ ، و ١١ : ٢٦٢ — ٢٥٥ .

سواء الجحيم * قال تالله إنْ كِدْتَ لتُردين * ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين * أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين﴾ . أى : ينكر عليه مقالته التى يقولها فى الدنيا ، ويقرِّعه بما صار إليه من العذاب والنكال . وكذلك تقرِّعهم الملائكة ، يقولون لهم : ﴿هذه النار التى كنتم بها تكذبون * أفسحرٌ هذا أم أنتم لا تبصرون * اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا ، سواء عليكم ، إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ . وكذلك قرع رسول الله صلى الله عليه وسلم قتلى القَلِيب يومَ بدر ، فنادى : « يا أبا جهل بن هشام ، ويا عتبة بن ربيعة ، ويا شيبة بن ربيعة – وسمى رؤسهم – هل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا ؟ فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقًّا ، قال عمر : يا رسول الله ، تخاطب قوماً قد جَيَّفُوا ؟ فقال : والذى نفسى بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا ». وقوله " فأذن مؤذن بينهم " أى : أعلَم مُعْلِمٌ ونادى منادٍ " أنْ لعنةُ الله على الظالمين " أى : مستقرة عليهم . ثم وصفهم بقوله " الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً " أى : يصدّون الناس عن اتباع سبيل الله وشرعه وما جاءت به الأنبياء ، ويبغون أن تكون السبيلُ معوجَّةً غيرَ مستقيمة حتى لا يتبعها أحد " وهم بالآخرة كافرون " أى : وهم بلقاء الله فى الدار الآخرة كافرون ، أى : جاحدون مكذبون بذلك ، لا يصدقونه ولا يؤمنون به ، فلهذا لا يبالون بما يأتون من منكر من القول والعمل ، لأنهم لا يخافون حساباً عليه ولا عقاباً ، فهم شرُّ الناس أعمالاً وأقوالاً .

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ، وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ، وَنَادَوْا أَصْحَٰبَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ، لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَٰبِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ (٤٧)﴾

لما ذكر تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار ، نبه أن بين الجنة والنار حجاباً ، وهو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنة . قال ابن جرير :

وهو السور الذى قال الله تعالى : ﴿ فضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب﴾ . وهو الأعراف الذى قال الله تعالى " وعلى الأعراف رجال " . ثم روى بإسناده عن السدى أنه قال فى قوله تعالى " وبينهما حجاب " وهو السور ، وهو الأعراف . وقال مجاهد : الأعراف حجاب بين الجنة والنار ، سور له باب . قال ابن جرير : والأعراف جمع عُرْف ، وكل مرتفع من الأرض عند العرب يسمى عُرفاً ، وإنما قيل لعرف الديك عرفاً لارتفاعه . وعن ابن عباس : الأعراف : تل بين الجنة والنار ، حبس عليه ناس من أهل الذنوب بين الجنة والنار . وفى رواية عنه : هو سور بين الجنة والنار . وكذا قال الضحاك وغير واحد من علماء التفسير . واختلفت عبارات المفسرين فى أصحاب الأعراف ، من هم ؟ وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد ، وهو : أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم . نص عليه حذيفة وابن عباس وابن مسعود وغير واحد من السلف والخلف رحمهم الله . وقد جاء فى حديث مرفوع رواه ابن مردويه عن جابر بن عبد الله ، قال : « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن استوت حسناته وسيئاته ؟ فقال : أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون » . وهذا حديث غريب من هذا الوجه . ورواه من وجه آخر عن محمد بن المنكدر ، عن رجل من مزينة ، قال : « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن استوت حسناته وسيئاته وعن أصحاب الأعراف ؟ فقال : إنهم قوم خرجوا عصاة بغير إذن آبائهم فقتلوا فى سبيل الله » . وعن يحيى بن عبد الرحمن المدنى ، عن أبيه ، قال : « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصحاب الأعراف ؟ فقال : هم ناس قتلوا فى سبيل الله بمعصية آبائهم ، فمنعهم من دخول الجنة معصيةُ آبائهم ، ومنعهم من النار قتلهم فى سبيل الله » . رواه ابن مردويه وابن جرير وابن أبى حاتم ، وكذا رواه ابن ماجة مرفوعاً من حديث أبى سعيد الخدرى وابن عباس . والله أعلم بصحة هذه الأخبار المرفوعة ، وقصاراها أن تكون موقوفةً ، وفيه دلالة على ما ذكر . وروى ابن جرير عن حذيفة : أنه سئل عن أصحاب الأعراف ؟ قال : فقال : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، فقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة ،

وخلفت بهم حسناتهم عن النار ، قال : فوقفوا هنالك على السور حتى يقضى الله فيهم . وقوله تعالى " يعرفون كلا بسيماهم " قال ابن عباس : يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه ، وأهل النار بسواد الوجوه . وقال ابن عباس : أنزلهم الله بتلك المنزلة ليعرفوا من فى الجنة والنار ، وليعرفوا أهل النار بسواد وجوهٍ ، ويتعوذوا بالله أن يجعلهم مع القوم الظالمين ، وهم فى ذلك يحيون أهل الجنة بالسلام، لم يدخلوها وهم يطمعون أن يدخلوها ، وهم داخلوها إن شاء الله . وكذا قال مجاهد والضحاك وغيرهم . وعن الحسن أنه تلا هذه الآية " لم يدخلوها وهم يطمعون " قال : والله ما جعل ذلك الطمع فى قلوبهم إلا لكرامة يريدها بهم. وقال قتادة: قد أنبأكم الله بمكانهم من الطمع . وقوله " وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين " قال ابن عباس : إن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار عرفوهم ، قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله " وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار " فرأوا وجوههم مسودة وأعينهم مزرقة " قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين " .

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

يقول تعالى إخباراً عن تقريع أهل الأعراف لرجال من صناديد المشركين وقادتهم ، يعرفونهم فى النار بسيماهم " ما أغنى عنكم جمعكم " أى : كثرتكم " وما كنتم تستكبرون " أى : لا ينفعكم كثرتكم ولا جموعكم من عذاب الله ، بل صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب والنكال " أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة " قال ابن عباس : يعنى أصحاب الأعراف " ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون " . وروى ابن جرير عن ابن عباس " قالوا ما أغنى عنكم جمعكم " ـ الآية ، قال : فلما قالوا لهم الذى قضى الله أن يقولوا ، يعنى أصحاب

الأعراف لأهل الجنة وأهل النار ، قال الله لأهل التكبر والأموال " أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ، ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون " .

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَٰبُ النَّارِ أَصْحَٰبَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ، قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَٰفِرِينَ (٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا ، فَالْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ (٥١) ﴾ .

يخبر تعالى عن ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم ، وأنهم لا يجابون إلى ذلك . قال السدى " ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله " يعنى : الطعام . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يستطعمونهم ويستسقونهم ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم " إن الله حرمهما على الكافرين " يعنى : طعامَ الجنة وشرابها . ثم وصف تعالى الكافرين بما كانوا يعتمدونه فى الدنيا ، باتخاذهم الدين لهواً ولعباً ، واغترارهم بالدنيا وزينتها وزخرفها عما أمروا به من العمل للآخرة . وقوله" فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا " أى : نعاملهم معاملةَ من نسيهم ، لأنه تعالى لا يشذّ عن علمه شىء ولا ينساه ، كما قال تعالى : ﴿ فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى ﴾ . وإنما قال تعالى هذا من باب المقابلة ، كما قال : ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾ . وقال : ﴿ كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ﴾ . وقال ابن عباس : نسيهم الله من الخير ولم ينسهم من الشر . وقال ابن عباس : نتركهم كما تركوا لقاء يومهم هذا . وقال مجاهد : نتركهم فى النار . وقال السدى : نتركهم من الرحمة كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا . وفى الصحيح : « أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : ألم أزوجك ؟ ألم أكرمك ؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذَرْك ترْأس وترْبَع ؟ فيقول : بلى ، فيقول : أظننتَ أنك ملاقىّ ؟ فيقول : لا ، فيقول الله تعالى :

فاليوم أنساك كما نسيتنى (١) .

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ، يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ، قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن إعذاره إلى المشركين بإرسال الرسل إليهم بالكتاب الذى جاء به الرسول ، وأنه كتاب مفصل مبين . كما قال تعالى : ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ . وقوله " فصلناه على علم " أى : على علم منا بما فصلناه به . كما قال تعالى : ﴿ أنزل بعلمه ﴾ . قال ابن جرير : وهذه الآية مردودة على قوله ﴿ كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين ﴾ . " ولقد جئناهم بكتاب " — الآية . وهذا الذى قاله فيه نظر ، فإنه قد طال الفصل ولا دليل على ذلك . وإنما لما أخبر بما صاروا إليه من الخسارة فى الدار الآخرة ، ذكر أنه قد أزاح عللهم فى الدنيا بإرسال الرسل وإنزال الكتب كقوله : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ . ولهذا قال " هل ينظرون إلا تأويله " أى : ما وَعَد من العذاب والنكال والجنة والنار . قاله مجاهد وغير واحد . وقال الربيع : لا يزال يجىء من تأويله أمر حتى يتم يوم الحساب ، حتى يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، فيتم تأويله يومئذ . " يوم يأتى تأويله " أى : يوم القيامة . قاله ابن عباس " يقول الذين نسوه من قبل " أى : تركوا العمل به وتناسوه فى الدار الدنيا " قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا " أى : فى خلاصنا مما صرنا إليه مما نحن فيه " أو نرد " أى : إلى الدار الدنيا " فنعمل غير

(١) مضى ج ١ ص ١٤٤ – ١٤٥ مختصراً هكذا . وهو جزء من حديث طويل فى المسند : ١٠٣٨٣ . وصحيح مسلم ٢ : ٣٨٦ ، من حديث أبى هريرة .

الذى كنا نعمل " كما قال تعالى : (ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين * بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ، وإنهم لكاذبون﴾ . كما قال ههنا "قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون " أى : خسروا أنفسهم بدخولهم النار وخلودهم فيها " وضل عنهم ما كانوا يفترون " أى : ذهب عنهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله ، فلا ينصرونهم ولا يشفعون فيهم ولا ينقذونهم مما هم فيه .

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤) ﴾ .

يخبر تعالى أنه خالق هذا العالم ، سمواته وأرضه وما بين ذلك فى سته أيام ، كما أخبر بذلك فى غير ما آية من القرآن . والستة أيام هى : الأحد والإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة ، وفيه اجتمع الخلق كله ، وفيه خلق آدم عليه السلام . واختلفوا فى هذه الأيام هل كل يوم منها كهذه الأيام ؟ كما هو المتبادر إلى الأذهان ؟ أو كل يوم كألف سنة ؟ كما نص على ذلك مجاهد والإمام أحمد بن حنبل ، ويروى ذلك من رواية الضحاك عن ابن عباس . فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق ، لأنه اليوم السابع ، ومنه سمى السبت ، وهو القطع. فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن أبى هريرة قال: « أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدى فقال : خلق الله التربة يوم السبت ، وخلق الجبال فيها يوم الأحد ، وخلق الشجر فيها يوم الإثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدوابّ يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة ، آخر الخلق فى آخر ساعة من ساعات الجمعة ، فيما بين العصر إلى الليل » – فقد رواه مسلم والنسائى وفيه استيعاب الأيام السبعة. والله تعالى قد قال " فى ستة أيام " ولهذا تكلم البخارى وغير واحد من الحفاظ فى هذا الحديث ،

وجعلوه من رواية أبي هريرة عن كعب الأحبار ، ليس مرفوعاً . والله أعلم [١] .
وأما قوله تعالى " ثم استوى على العرش " فللناس فى هذا المقام مقالات كثيرة جداً ، ليس هذا موضع بسطها . وإنما نسلك فى هذا المقام مذهب السلف الصالح : مالك والأوزاعى والثورى والليث بن سعد والشافعى وأحمد وإسحق بن راهويه ، وغيرهم من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً ، وهو إمرارها كما جاءتْ ، من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل . والظاهرُ المتبادر إلى أذهان المشبهين منفى عن الله ، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه ، و ﴿ ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير ﴾ . بل الأمر كما قال الأئمة ، منهم نعيم بن حماد الخزاعى شيخ البخارى ، قال : من شبه الله بخلقه كفر ، ومن جَحَد ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه ، فمن أثبت لله تعالى ما وردتْ به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة ، على الوجه الذى يليق بجلال الله ، ونفى عن الله تعالى النقائص — فقد سلك سبيل الهدى. وقوله تعالى " يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً " أى : يذهب ظلام هذا بضياء هذا ، وضياء هذا بظلام هذا ، وكل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً ، أى : سريعاً لا يتأخر عنه ، بل إذا ذهب هذا جاء هذا ، وإذا جاء هذا ذهب هذا . كما قال : ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون * والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم * والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم * لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون ﴾ . فقوله ﴿ ولا الليل سابق النهار ﴾ — أى : لا يفوته بوقت يتأخر عنه ، بل هو فى أثره ، لا واسطة بينهما . ولهذا قال " يطلبه حثيثاً ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره " منهم من نَصَب ، ومنهم من رَفَع ، وكلاهما قريب المعنى . أى : الجميع تحت قهره وتسخيره ومشيئته . ولهذا قال

---

(١) المسند : ٨٣٢٣ . والتعليل بأنه مما أخذ أبو هريرة عن كعب الأحبار — ليس بجيد ولا مستقيم مع السياق ، لقوله فى أوله « أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدى » . وإنما الخطأ من بعض الرواة . وقد مضى الحديث والكلام عليه ج ١ ص ١٢٨ .

منبهاً " ألا له الخلق والأمر " أى : له الملك والتصرف " تبارك الله رب العالمين " كما قال : ﴿ تبارك الذى جعل فى السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً ﴾ .

﴿ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلَا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ، إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٥٦) ﴾

أرشد تبارك وتعالى عباده إلى دعائه الذى هو صلاحهم فى دنياهم وأخراهم ، فقال " ادعوا ربكم تضرعاً وخفية " قيل معناه : تذللا واستكانة . كما قال ﴿ واذكر ربك فى نفسك ودون الجهر من القول بالغدوّ والآصال ، ولا تكن من الغافلين ﴾ . وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى ، قال : « رفع الناس أصواتهم بالدعاء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيها الناس ، اربَعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً ، إن الذى تدعون سميع قريب » . الحديث . وقال ابن عباس فى قوله " تضرعاً وخفية " قال : السرّ . وقال ابن جرير : تضرعاً تذللا واستكانة لطاعته ، وخفية ، يقول : بخشوع قلوبكم وصحة اليقين بوحدانيته وربوبيته فيما بينكم وبينه ، لا جهاراً مراءاةً . وقال الحسن . إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به الناس ، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس ، وإن كان الرجل ليصلى الصلاة الطويلة فى بيته وعنده الزوار وما يشعرون به ، ولقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدرون أن يعملوه فى السر فيكون علانية أبداً ، لقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء وما يُسمع لهم صوت، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم ، وذلك أن الله تعالى يقول " ادعوا ربكم تضرعاً وخفية " وذلك أن الله ذكر عبداً صالحاً رضى فعله فقال : ﴿ إذ نادى ربه نداءً خفيًّا ﴾ . وقال ابن جريج : يكره رفع الصوت والنداء والصياح فى الدعاء ، ويؤمر بالتضرع والاستكانة . ثم روى عن ابن عباس فى قوله " إنه لا يحب المعتدين " فى الدعاء ولا فى غيره . وقال أبو مجلز : لا يسأل منازل الأنبياء . وروى أحمد عن مولى لسعد : « أن

سعداً سمع ابناً له يدعو وهو يقول : اللهم إنى أسألك الجنة ونعيمها واستبرقها ونحواً من هذا ، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها ، فقال : لقد سألتَ الله خيراً كثيراً ، وتعوذتَ به من شر كثير ، وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنه سيكون قوم يعتدون فى الدعاء ، وقرأ هذه الآية " ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ، إنه لا يحب المعتدين " وإن بحسبك أن تقول : اللهم إنى أسألك الجنة وما قَرَّب إليها من قول أو عمل ، وأعوذ بك من النار وما قَرَّب إليها من قول أو عمل » . ورواه أبو داود [1] . وروى الإمام أحمد : « أن عبد الله بن مُغَفَّل سمع ابنه يقول : اللهم إنى أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتُها ، فقال : يا بنى ، سل الله الجنة وعُذْ به من النار ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يكون قوم يَعْتَدُون فى الدعاء والطهور » . رواه ابن ماجة وأبو داود . وإسناده حسن لا بأس به . والله أعلم [2] . وقوله تعالى " ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها " ينهى تعالى عن فسادٍ فى الأرض وأضرُّه بعد الإصلاح ، فإنه إذا كانت الأمور ماشيةً على السداد ثم وقع الإفساد بعد ذلك ، كان أضرَّ ما يكون على العباد ، فنهى تعالى عن ذلك ، وأمر بعبادته ودعائه والتضرع إليه والتذلل لديه ، فقال " وادعوه خوفاً وطمعاً " أى : خوفاً مما عنده من وبيل العقاب ، وطمعاً فيما عنده من جزيل الثواب . ثم قال " إن رحمت الله قريب من المحسنين " أى : إن رحمته مرصدة للمحسنين الذين يتبعون أوامره ويتركون زواجره . كما قال تعالى : ﴿ ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ﴾ — الآية . وقال " قريب" ولم يقل قريبة ، لأنه ضمن الرحمة معنى الثواب ، أو لأنها مضافة إلى الله فلهذا قال : قريب من المحسنين . وقال مطر الوراق : استنجزوا موعود الله بطاعته ، فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين. رواه ابن أبى حاتم .

---

(١) المسند : ١٤٨٣ .

(٢) المسند : ١٦٨٦٧ . ورواه أيضاً الحاكم فى المستدرك ١ : ٥٤٠ ، وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » . ووافقه الذهبى .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ، حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ، كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧) وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ، وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ، كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨) ﴾ .

لما ذكر تعالى أنه خالق السموات والأرض ، وأنه المتصرف الحاكم المدبر المسخر ، وأرشد إلى دعائه ، لأنه على ما يشاء قادر ، نبه تعالى على أنه الرازق ، وأنه يعيد الموتى يوم القيامة ، فقال " وهو الذى يرسل الرياح نشراً " أى : ناشرةً بين يدى السحاب الحامل للمطر . ومنهم من قرأ "بشراً " [١] . كقوله : ﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات﴾ . وقوله " بين يدى رحمته " أى : بين يدى المطر . كما قال : ﴿ وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته ، وهو الولى الحميد﴾ . وقال : ﴿ فانظر إلى أثر رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها ، إن ذلك لمحيي الموتى ، وهو على كل شيء قدير﴾ [٢] . وقوله " حتى إذا أقلت سحاباً ثقالا " أى : حملت الرياح سحاباً ثقالاً ، أى من كثرة ما فيها من الماء تكون ثقيلةً قريبة من الأرض مدلهمة . وقوله " سقناه لبلد ميت" أى : إلى أرض ميتة مجدبة لا نبات فيها . كما قال : ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبًّا فمنه يأكلون﴾ . ولهذا قال " فأخرجنا به من كل الثمرات ، كذلك نخرج الموتى " أى : كما أحيينا هذه الأرض بعد موتها كذلك نحيي الأجساد بعد

---

(١) قراءة « بشراً » بالباء المضمومة مع سكون السين – هى قراءة عاصم ، وهى التى فى قراءة حفص عن عاصم . وقرأها ابن عامر « نشراً » بضم النون مع سكون السين . وقرأها حمزة والكسائى بفتح النون و إسكان الشين . وقرأ باقى السبعة بضم النون والشين معاً .

(٢) « إلى أثر رحمة الله » ثبتت كلمة « أثر » بالإفراد فى المخطوطتين . وقراءة حفص وابن عامر وحمزة والكسائى « آثار » بالجمع . وقرأ باقى السبعة بالإفراد . وهى التى قرأ بها المؤلف وأثبتها فى تفسيره .

صيرورتها رميماً يوم القيامة، ينزل الله سبحانه وتعالى ماء من السماء، فتمطر الأرض أربعين يوماً ، فتنبت منه الأجساد فى قبورها كما ينبت الحب فى الأرض. وهذا المعنى كثير فى القرآن ، يضرب الله مثلا للقيامة بإحياء الأرض بعد موتها . ولهذا قال" لعلكم تذكرون" . وقوله "والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه " أى: والأرض الطيبة يخرج نباتها سريعاً حسناً . كما قال: ﴿ فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً ﴾ . " والذى خبث لا يخرج إلا نكداً " قال مجاهد وغيره : كالسباخ ونحوها . وقال ابن عباس فى هذه الآية : هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر . وروى البخارى عن أبى موسى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم ، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً ، فكانت منها نقية قبلت الماءَ وأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفةً أخرى ، إنما هى قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به ، فعلم وعمل ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » . رواه مسلم والنسائى .

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ، إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَـٰلَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ .

لما ذكر تعالى قصة آدم فى أول السورة وما يتعلق بذلك ويتصل به ، وفرغ منه – شرع تعالى فى ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام ، الأول فالأول . فابتدأ بذكر نوح عليه السلام ، فإنه أول رسول إلى أهل الأرض بعد آدم عليه السلام . قال ابن إسحق : ولم يلق نبى من قومه من الأذى مثل نوح إلا نبى قُتل .

قال ابن عباس وغير واحد من علماء التفسير : وكان أول ما عبدت الأصنام أن قوماً صالحين ماتوا فبنى قومهم عليهم مساجد ، وصوّروا صورة أولئك فيها ليتذكروا حالهم وعبادتهم فيتشبهوا بهم ، فلما طال الزمان جعلوا تلك الصور أجساداً على تلك الصور ، فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين : يغوث ويعوق ونسراً ، فلما تفاقم الأمر بعث الله سبحانه وتعالى وله الحمد والمنة رسوله نوحاً ، يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له " فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم " أى : من عذاب يوم القيامة إن لقيتم الله وأنتم مشركون به " قال الملأ من قومه " أى : الجمهور والسادة والقادة والكبراء منهم " إنا لنراك فى ضلال مبين " أى : فى دعوتك إيانا إلى ترك عبادة هذه الأصنام التى وجدنا عليها آباءنا . وهكذا حال الفجار : إنما يرون الأبرار فى ضلالة ، كما قال تعالى : ﴿ وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون﴾ . ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه ، وإذْ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ﴾ . إلى غير ذلك من الآيات " قال يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين " أى : ما أنا ضالّ ، ولكن أنا رسول من رب كل شىء ومليكه " أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون " وهذا شأن الرسول : أن يكون بليغاً فصيحاً ناصحاً بالله ، لا يدركهم أحد من خلق الله فى هذه الصفات . كما جاء فى صحيح مسلم : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه يوم عرفة وهم أوفر ما كانوا وأكثر جمعاً : « أيها الناس إنكم مسئولون عنى ، فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، فجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكتها عليهم ويقول : اللهم اشهد ، اللهم اشهد »[1].

---

(١) هو جزء من حديث جابر الطويل ، فى صفة حجة النبى صلى الله عليه وسلم ، فى صحيح مسلم ١ : ٣٤٦ – ٣٤٨ .

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (٦٤) ﴾

يقول تعالى إخباراً عن نوح أنه قال لقومه " أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون " أى : لا تعجبوا من هذا ، فإن هذا ليس بعجبٍ أن يوحى الله إلى رجل منكم رحمةً بكم ولطفاً وإحساناً إليكم ، لإنذاركم ولتتقوا نقمة الله ولا تشركوا به ولعلكم ترحمون . قال الله تعالى " فكذبوه " أى : تمادَوْا على تكذيبه ومخالفته ، وما آمن معه منهم إلا قليل ، كما نص عليه فى موضع آخر " فأنجيناه والذين معه فى الفلك " وهى السفينة ، كما قال : ﴿ فأنجيناه وأصحاب السفينة ﴾ " وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا " كما قال "مما خطاياهم أغرقوا فأدخلوا ناراً ، فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً ﴾[1]. وقوله " إنهم كانوا قوماً عمين " أى : عن الحق ، لا يبصرونه ولا يهتدون له . فبين تعالى فى هذه القصة أنه انتقم لأوليائه من أعدائه ، وأنجى رسوله والمؤمنين ، وأهلك أعداءهم من الكافرين . كما قال : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد * يوم لا ينفع الظالمين معذرتُهم ، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾. وهذه سنة الله فى عباده فى الدنيا والآخرة : أن العاقبة فيها للمتقين ، والظفر والغلب لهم ، كما أهلك قوم نوح بالغرق ، ونجى نوحاً وأصحابه المؤمنين .

ربع

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ، أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ

---

(١) ثبت فى المخطوطتين (مما خطاياهم) ، فأثبتناها كذلك . وهى قراءة أبى عمرو . وقرأ باقى السبعة (مما خطيئاتهم) .

بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ، وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ، فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

يقول تعالى : وكما أرسلنا إلى قوم نوح نوحاً ، كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً ، قال ابن إسحق : هم ولد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح. قلت : وهؤلاء هم عاد الأولى ، الذين ذكرهم الله ، وهم أولاد عاد بن إرم ، الذين كانوا يأوون إلى العمد فى البر. كما قال تعالى : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد * التى لم يخلق مثلها فى البلاد ﴾ . وذلك لشدة بأسهم وقوتهم . كما قال تعالى : ﴿ فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ، أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ، وكانوا بآياتنا يجحدون ﴾ . وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف ، وهى حبال الرمل [١] .

روى ابن إسحق عن أبى الطفيل عامر بن واثلة: « سمعت علياً يقول لرجل من حضرموت : هل رأيت كثيباً أحمر يخالطه مدرة حمراء ذا أراكٍ وسدر كثير بناحية كذا وكذا من أرض حضرموت؟ هل رأيته ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، والله إنك لتنعته نعتَ رجل قد رآه ، قال : لا ، ولكنى قد حُدِّثْتُ عنه ، فقال الحضرمى : وما شأنه يا أمير المؤمنين ؟ قال : فيه قبر هود عليه السلام . رواه ابن جرير. وهذا فيه فائدة أن مساكنهم كانت باليمن ، فإن هوداً عليه السلام دفن هناك ، وقد كان من أشرف قومه نسباً ، لأن الرسل إنما يبعثهم الله من أفضل القبائل وأشرفهم ، ولكن كان قومه كما شُدِّد خلقُهم شُدِد على قلوبهم ، وكانوا من أشد الأمم تكذيباً للحق ، ولهذا دعاهم هود عليه السلام إلى عبادة الله وحده

---

(١) « حبال الرمل » : بالحاء المهملة ، جمع « حبل » . وهو المستطيل من الرمل الضخم منه . والحبال فى الرمل كالجبال فى غير الرمل .

لا شريك له وإلى طاعته وتقواه " قال الملأ الذين كفروا من قومه" والملأ : هم الجمهور والسادة والقادة منهم " إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين " أى : فى ضلالة ، حيث تدعونا إلى ترك عبادة الأصنام والإقبال على عبادة الله وحده ، كما تعجب الملأ من قريش من الدعوة إلى إله واحد ، فقالوا : ﴿ أجعل الآلهة إلها واحداً إن هذا لشىء عُجاب ﴾ . "قال يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين" أى : لستُ كما تزعمون ، بل جئتكم بالحق من الله الذى خلق كل شىء ، فهو رب كل شىء ومليكه " أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين" . وهذه الصفات التى يتصف بها الرسل : البلاغ والنصح والأمانة " أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم" أى : لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولا من أنفسكم لينذركم أيام الله ولقاءه ، بل احمدوا الله على ذاكم " واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح " أى : واذكروا نعمة الله عليكم فى جعلكم من ذرية نوح ، الذى أهلك الله أهل الأرض بدعوته لما خالفوه وكذبوه " وزادكم فى الخلق بسطة" أى : زاد طولكم على الناس بسطة ، أى : جعلكم أطول من أبناء جنسكم . كما قال تعالى فى قصة طالوت : ﴿ وزاده بسطة فى العلم والجسم ﴾ . " فاذكروا آلاء الله " أى نعمه ومننه عليكم " لعلكم تفلحون " . و « الآلاء » جمع « إلَى» ، وقيل : « إلْى » [1] .

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا ، فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ، أَتُجَٰدِلُونَنِى فِى أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَٰنٍ ، فَانْتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُم مِّنَ

---

(١) « الألى » : مقصور ، بفتح الهمزة وكسرها ، وجمعها آلاء ، كسبب وأسباب – فى حالة الفتح . ومثلها « الإلى » : بكسر الهمزة وسكون اللام وآخره ياء .

الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنْجَيْنَٰهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن تمردهم وطغيانهم وعنادهم وإنكارهم على هود عليه السلام — : " قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ، فائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين " كما قال الكفار من قريش : ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ . ولهذا قال هود عليه السلام " قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب " أى : قد وجب عليكم بمقالتكم هذه من ربكم رجس ، قيل : هو مقلوب من « رجز » . وعن ابن عباس معناه السخط والغضب " أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم " أى : أتحاجوننى فى هذه الأصنام التى سميتموها أنتم وآباؤكم آلهة ، وهى لا تضر ولا تنفع ، ولا جعل الله لكم على عبادتها حجة ولا دليلا ؟ ! ولهذا قال " ما نزل الله بها من سلطان ، فانتظروا إنى معكم من المنتظرين " وهذا تهديد ووعيد من الرسول لقومه . ولهذا عقّب بقوله " فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين " وقد ذكر سبحانه صفة إهلاكهم فى أماكن أخر من القرآن ، بأنه أرسل عليهم الريح العقيم ، ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية * سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية * فهل ترى لهم من باقية ﴾ . لما تمردوا وعتوا أهلكهم الله بريح عاتية ، فكانت تحمل الرجل منهم فترفعه إلى الهواء ثم تنكسه على أم رأسه ، فتثلغ رأسه حتى تبينه من جثته . ولهذا قال ﴿ كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴾ . وقال محمد بن إسحق : كانوا يسكنون باليمن ، بين عمان وحضرموت ، وكانوا مع ذلك قد فشوا فى الأرض وقهروا أهلها بفضل قوتهم التى آتاهم الله ، وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله ، فبعث الله لهم هوداً عليه السلام ، وهو من أوسطهم نسباً وأفضلهم موضعاً ، فأمرهم أن يوحدوا الله ولا

يجعلوا معه إلهاً غيره ، وأن يكفوا عن ظلم الناس ، فأبوا عليه وكذبوه ، وقالوا : من أشد منا قوة ؟ ! واتبعه منهم ناس - وهم يسير - يكتمون إيمانهم ، فلما عَتَتْ عاد على الله ، وكذبوا نبيه ، وأكثروا فى الأرض الفساد ، وتجبروا وبَنَوْا بكل رِيع آية عبثاً بغير نفع ، كلمهم هود فقال : ﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون * وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون * وإذا بطشتم بطشتم جبارين * فاتقوا الله وأطيعون ﴾ . ﴿قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين * إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ﴾ أى بجنون ﴿قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون * من دونه فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون * إنى توكلت على الله ربى وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم ﴾ . وروى الإمام أحمد عن أبى وائل ، عن الحرث البكرى ، قال : « خرجت أشكو العلاء بن الحضرمى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمررت بالرَّبَذَة ، فإذا بعجوز من بنى تميم منقطَعٍ بها ، فقالت : يا عبد الله ، إن لى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجة ، فهل أنت مبلغى إليه ؟ قال : فحملتها ، فأتيت المدينة ، فإذا المسجد غاصّ بأهله ، وإذا راية سوداء تخفق ، وإذا بلال متقلد سيفاً بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : ما شأنُ الناس ؟ قالوا : يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهاً ، قال : فجلست ، قال : فدخل منزله ، أو قال : رحله ، فاستأذنتُ عليه فأذن لى ، فدخلت وسلمت ، فقال : هل بينكم وبين تميم شىء قلت نعم وكانت لنا الدَّبْرَةُ عليهم ، ومررت بعجوز من بنى تميم منقطع بها فسألتنى أن أحملها إليك ، وها هى بالباب ، فأذن لها فدخلتْ ، فقلت : يا رسول الله ، إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزاً فاجعل الدهناء ، فحمِيَتِ العجوزُ واستوفزَتْ ، فقالت : يا رسول الله ، فإلى أين يُضطرُّ مُضطرُّك ؟ قال : قلت : إن مَثَلى ما قال الأول : مِعْزَى حملتْ حتفها ، حملتُ هذه ولا أشعر أنها كانت لى خصماً أعوذ بالله وبرسوله أن أكون كوافد عاد ، قال لى : وما وافد عاد ؟ وهو أعلم بالحديث منه ، ولكن يستطعمه ، قلت : إن عاداً قحطوا ، فبعثوا وافداً لهم يقال له : قَيْل ، فمر بمعاوية بن بكر ،

فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان يقال لهما الجرادتان ، فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مهرة ، فقال : اللهم إنك تعلم أنى لم أجئْ إلى مريض فأداويه ، ولا إلى أسير فأفاديه ، اللهم أَسْقِ عاداً ما كنتَ تُسقيه ، فمرت به سحابات سود ، فنودى منها : اخترْ ، فأومأ إلى سحابة منها سوداء ، فنودى منها : خذها رماداً رِمْدَداً ، لا تبقى من عاد أحداً ، قال : فما بلغنى أنه بعث الله عليهم من الريح إلا قدر ما يجرى فى خاتمى هذا ، حتى هلكوا ، قال أبو وائل : وصدق ، قال : وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافداً لهم قالوا : لا تكن كوافد عاد » . ورواه الترمذى نحوه . ورواه النسائى وابن ماجة [1] .

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحاً ، قَالَ يَـٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ ، قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ، هَـٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ، فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِى أَرْضِ اللَّهِ ، وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً ، فَاذْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَـٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ، قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِى ءَامَنْتُمْ بِهِ كَـٰفِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَـٰصَـٰلِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ (٧٨) ﴾

قال علماء التفسير والنسب : ثمود وكذلك قبيلة طسم ، كل هؤلاء كانوا

---

(١) المسند : ١٦٠٢٠ . ورواه الطبرى : ١٤٨٠٥ ، ١٤٨٠٦ بنحوه . وقصة هذه المرأة – وهى قيلة بنت مخرمة – فى الإصابة ٨ : ١٧١ – ١٧٣ ، ومجمع الزوائد ٦ : ٩ – ١٢ .

أحياء من العرب العاربة قبل إبرهيم الخليل عليه السلام . وكانت ثمود بعد عاد ، ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادى القرى وما حوله ، وقد مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على ديارهم ومساكنهم وهو ذاهب إلى تبوك فى سنة تسع . روى الإمام أحمد عن ابن عمر ، قال : « لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس على تبوك ، نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود ، فاستقى الناس من الآبار التى كانت تشرب منها ثمود ، فعجنوا منها ونصبوا القدور ، فأمرهم النبى صلى الله عليه وسلم فأهرقوا القدور وعلفوا العجينَ الإبلَ ، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التى كانت تشرب منها الناقة ، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا ، وقال : إنى أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم ، فلا تدخلوا عليهم » (١) . وروى أحمد عن عبد الله بن عمر ، قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بالحجر : لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم ، أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم » . وأصل هذا الحديث مخرج فى الصحيحين من غير وجه (٢) . وروى الإمام أحمد عن أبى كبشة الأنمارى ، قال : « لما كان فى غزوة تبوك تسارع الناس إلى أهل الحِجْر يدخلون عليهم ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنادى فى الناس : الصلاة جامعة ، قال : فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ممسك بعَنَزَة ، وهو يقول : ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم ، فناداه رجل منهم : نعجب منهم يا رسول الله ! قال : أفلا أنبئكم بأعجب من ذلك : رجل من أنفسكم ، ينبئكم بما كان قبلكم وبما هو كائن بعدكم ، فاستقيموا وسددوا ، فإن الله لا يعبأ بعذابكم شيئاً ، وسيأتى قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئاً » . لم يخرجه أحد من أصحاب السنن . وأبو كبشة : اسمه عمرو بن سعد ، ويقال عامر بن سعد . والله أعلم (٣) . وروى الإمام أحمد عن جابر ، قال : « لما مر رسول الله صلى الله

(١) المسند : ٥٩٨٤ . ورواه أيضاً الشيخان ، كما بينا هناك .

(٢) المسند : ٥٤٤١ .

(٣) المسند ٤ : ٢٣١ (حلبى) . وإسناده صحيح .

عليه وسلم بالحِجْر قال : لا تسألوا الآيات ، فقد سألها قوم صالح ، فكانت – يعنى الناقة – ترد من هذا الفجّ، وتصدر من هذا الفج ، فعَتَوْا عن أمر ربهم فعقروها ، وكانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون لبنها يوماً ، فعقروها فأخذتهم صيحةٌ أهمدَ اللهُ مَنْ تحت أديم السماء منهم ، إلا رجلا واحداً كان فى حرم الله، فقالوا : من هو يا رسول الله ؟ قال: أبو رِغَال، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه » . وهذا الحديث ليس فى شىء من الكتب الستة، وهو على شرط مسلم [1] .

فقوله تعالى " وإلى ثمود" أى : ولقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود " أخاهم صالحاً ، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره " جميع الرسل تدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له . كما قال تعالى: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ وقال: ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾. وقوله " قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية " أى : قد جاءتكم حجة من الله على صدق ما جئتكم به . وكانوا هم الذين سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية .فأقامت الناقة وفصيلها – بعد ما وضعته بين أظهرهم– مدةً تشرب من بئرها يوماً وتدعه لهم يوماً ، وكانوا يشربون لبنها يوم شربها ، يحتلبونها فيملئون ما شاؤا من أوعيتهم وأوانيهم . كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر﴾ . وقال تعالى: ﴿ هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ﴾ . وكانت تسرح فى بعض تلك الأودية، ترد من فج وتصدر من غيره، ليسعها لأنها كانت تتضلع من الماء، وكانت على ما ذكر خلقاً هائلا ومنظراً رائعاً ، إذا مرت بأنعامهم نفرت منها، فلما طال عليهم ذلك واشتد تكذيبهم لصالح النبى عليه السلام، عزموا على قتلها ليستأثروا بالماء كل يوم . فيقال: إنهم اتفقوا كلهم على قتلها . وهذا هو الظاهر . لأن الله تعالى يقول: ﴿ فكذبوه فعقروها، فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ﴾ وقال: ﴿ وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها﴾ . وقال: ﴿ فعقروا الناقة ﴾ . فأسند ذلك إلى مجموع

(١) المسند : ١٤٢٠٦ . ورواه الطبرى بنحوه : ١٤٨١٧ ، ١٤٨٢٠ ، ١٤٨٢٣ .

القبيلة ، فدل على رضى جميعهم بذلك . والله أعلم .قال علماء التفسير : ولم يبق من ذرية ثمود أحد سوى صالح عليه السلام ومن اتبعه، رضى الله عنهم . إلا أن رجلا يقال له : أبو رِغَال، كان لما وقعت النقمة بقومه مقيماً إذْ ذاك فى الحرم، فلم يصبه شىء ، فلما خرج فى بعض الأيام إلى الحل جاءه حجر من السماء فقتله . وقد تقدم فى أول القصة حديث جابر بن عبد الله فى ذلك . وذكروا أن أبا رِغَال هذا هو والد ثقيف الذين كانوا يسكنون الطائف . عن بُجَيْر بن أبى بُجَيْر، قال : سمعت عبد الله بن عمرو يقول : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول حين خرجنا معه إلى الطائف فمررنا بقبرٍ، فقال : هذا قبر أبى رغال ، وهو أبو ثقيف ، وكان من ثمود ، وكان بهذا الحرم يدفع عنه ، فلما خرج أصابته النقمة التى أصابت قومه بهذا المكان ، فدفن فيه ، وآية ذلك : أنه دفن معه غصن من ذهب ، إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه ، فابتدره الناس فاستخرجوا منه الغصن » . ورواه أبو داود من طريق ابن إسحق . قال شيخنا أبو الحجاج المِزِّى : وهو حديث حسن عزيز . قلت : تفرد بوصله بُجير بن أبى بُجير هذا، وهو شيخ لا يعرف إلا بهذا الحديث . قال يحيى بن معين : ولم أسمع أحداً روى عنه غير إسمعيل بن أمية . قلت : : وعلى هذا فيخشى أن يكون وهم فى رفع هذا الحديث ، وإنما يكون من كلام عبد الله بن عمرو ومما أخذه من الزاملتين ، قال شيخنا أبو الحجاج — بعد أن عرضت عليه ذلك — : وهذا محتمل . والله أعلم .

وقوله تعالى :

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾

هذا تقريع من صالح عليه السلام لقومه، لما أهلكهم الله بمخالفتهم إياه ، وتمردهم على الله وإبائهم عن قبول الحق ، وإعراضهم عن الهدى إلى العمى — قال لهم صالح ذلك بعد هلاكهم ، تقريعاً وتوبيخاً وهم يسمعون ذلك . كما ثبت فى الصحيحين : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ظهر على أهل بدر أقام هناك ثلاثاً ، ثم أمر براحلته فشدت بعد ثلاث من آخر الليل ، فركبها ثم سار حتى

وقف على القليب قليب بدر ، فجعل يقول : يا أبا جهل بن هشام ، يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبة بن ربيعة ، ويا فلان ابن فلان، هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فإنى وجدتُ ما وعدنى ربى حقاً ، فقال له عمر : يا رسول الله ، ما تكلم من أقوام قد جيَّفوا ؟ فقال : والذى نفسى بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكن لا يجيبون » . وفى السيرة : أنه عليه السلام قال لهم : « بئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم ، كذبتمونى وصدقنى الناس ، وأخرجتمونى وآوانى الناس ، وقاتلتمونى ونصرنى الناس ، فبئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم » . وهكذا صالح عليه السلام قال لقومه " لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم " أى : فلم تنتفعوا بذلك ، لأنكم لا تحبون الحق ولا تتبعون ناصحاً . ولهذا قال " ولكن لا تحبون الناصحين " . وقد ذكر بعض المفسرين : أن كل نبى هلكت أمته كان يذهب فيقيم فى الحرم حرم مكة . والله أعلم ، وقد روى الإمام أحمد عن ابن عباس ، قال : « لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بوادى عسفان حين حج ، قال : يا أبا بكر ، أىُّ وادٍ هذا ؟ قال : هذا وادى عسفان ، قال : لقد مرّ به هود وصالح عليهما السلام ، على بكرات خطمها الليف ، أزرهم العباء ، وأرديتهم النمار ، يلبون يحجون البيت العتيق » . هذا حديث غريب من هذا الوجه ، لم يخرجه أحد منهم(١) .

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (٨١) ﴾

يقول تعالى " و " لقد أرسلنا " لوطاً " . أو تقديره : "و " اذكر " لوطاً إذْ قال لقومه" ولوط هو ابن هارون بن آزر ، وهو ابن أخى إبرهيم الخليل عليهما السلام ، وكان قد آمن مع إبرهيم عليه السلام ، وهاجر معه إلى أرض الشام ، فبعثه الله إلى أهل سدُوم وما حولها من القرى ، يدعوهم إلى الله عز وجل ،

(١) ومع هذا فهو ضعيف الإسناد ، فى المسند : ٢٠٦٧ ، فى إسناده زمعة بن صالح ، وهو ضعيف . ونقله المؤلف الحافظ فى التاريخ ١ : ١٣٨ ، وقال : « إسناده حسن » .

ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التى اخترعوها لم يسبقهم بها أحد من بنى آدم ولا غيرهم ، وهو إتيان الذكور . وهذا شىء لم تكن بنو آدم تعهده ولا تألفه ولا يخطر ببالهم ، حتى صنع ذلك أهل سدوم ، عليهم لعائن الله . قال عمرو بن دينار فى قوله " ما سبقكم بها من أحد من العالمين " قال : ما نزَا ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط . وقال الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموى بانى جامع دمشق : لولا أن الله عز وجل قص علينا خبر قوم لوط ما ظننت أن ذكراً يعلو ذكراً . ولهذا قال لهم لوط عليه السلام " أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين * أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء " أى : عدلتم عن النساء وما خلق لكم ربكم منهن إلى الرجال ، وهو إسراف منكم وجهل ، لأنه وضع الشىء فى غير محله . ولهذا قال لهم فى الآية الأخرى : ﴿ قال هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين ﴾ ، فأرشدهم إلى نسائهم ، فاعتذروا إليه بأنهم لا يشتهونهن ﴿ قالوا لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق ، وإنك لتعلم ما نريد ﴾ أى : لقد علمت أنه لا أرب لنا فى النساء ولا إرادة ، وإنك لتعلم مرادنا من أضيافك . وذكر المفسرون أن الرجال كانوا قد اغتنى بعضهم ببعض ، وكذلك نساؤهم ، كن استغنين بعضهن ببعض أيضاً .

﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ، إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) ﴾

أى : ما أجابوا لوطاً إلا أن هموا بإخراجه ونفيه ومن معه من بين أظهرهم ، فأخرجه الله تعالى سالماً ، وأهلكهم فى أرضهم صاغرين مهانين . وقوله " إنهم أناس يتطهرون " قال قتادة : عابوهم بغير عيب . وقال مجاهد : إنهم أناس يتطهرون من أدبار الرجال وأدبار النساء . وروى مثله عن ابن عباس أيضاً .

﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَّطَراً ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤) ﴾

يقول تعالى : فأنجينا لوطاً وأهله ، ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط . كما قال تعالى : ﴿ فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين * فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾ . إلا امرأته فإنها لم تؤمن به ، بل كانت على دين قومها ، تمالئهم عليه، وتعلمهم بمن يقدم عليه من ضيفانه ، بإشارات بينها وبينهم . ولهذا لما أمر لوط عليه السلام ليسرى بأهله ، أمر أن لا يعلمها ولا يخرجها من البلد . ومنهم من يقول : بل اتبعتهم ، فلما جاء العذاب التفتت هى فأصابها ما أصابهم. والأظهر أنها لم تخرج من البلد ولا أعلمها لوط بل بقيت معهم ، ولهذا قال ههنا " إلا امرأته كانت من الغابرين " أى الباقين . وقيل : من الهالكين ، وهو تفسير باللازم . وقوله " وأمطرنا عليهم مطراً " مفسر بقوله : ﴿ وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود * مسوّمة عند ربك ، وما هى من الظالمين ببعيد ﴾ . ولهذا قال " فانظر كيف كان عاقبة المجرمين " أى : انظر يا محمد كيف كان عاقبة من يجترئ على معاصى الله عز وجل ويكذب رسله [١] . وقد ذهب الإمام أبوحنيفة رحمه الله إلى أن اللائط يلقى من شاهق ويُتْبَعُ بالحجارة كما فعل بقوم لوط . وذهب آخرون من العلماء إلى أنه يرجم ، سواء كان محصناً أو غير محصن. وهو أحد قولى الشافعى رحمه الله . والحجة ما رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجة عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » . وقال آخرون : هو كالزانى ، فإذا كان محصناً رجم ، وإن لم يكن محصناً جُلد مائةَ جلدة . وهو القول الآخر للشافعى . وأما إتيان النساء فى الأدبار فهو اللوطية الصغرى ، وهو

---

(١) وقد شاعت هذه الفاحشة القذرة ، فى كثير من البلاد . وأكثر ما شاعت فى الأمة الإنجليزية الملعونة ، حتى صارت عندهم شيئاً هيناً لا يعبأ به . بل شيئاً لا ينكر . وزاد الأمر أن كثيراً من قساوستهم — لعنهم الله — أعلنوا أن ليس فى هذا العمل المنكر جريمة ، إذا ما كان بالتراضى ! فكانوا خزياً لدينهم ولأمتهم .

ونحن نبشر تلك الأمة الفاجرة القذرة الطاغية بأن ستكون عاقبتهم كمثل عاقبة قوم لوط ، يدمر الله عليهم ، بما اجترؤا على هذا المنكر ، ثم على ذيوعه ، ثم على التصريح بإباحته ، أخزاهم الله وأراح العالم من شرورهم وطغيانهم .

حرام بإجماع العلماء ، إلا قولا شاذاً لبعض السلف . وقد تقدم الكلام عليها فى سورة البقرة(١) .

﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً ، قال يقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم ، فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ، ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين (٨٥) ﴾

مدين : تطلق على القبيلة ، وعلى المدينة ، وهى التى بقرب معان من طريق الحجاز. قال الله تعالى: ﴿ ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون﴾ . وهم أصحاب الأيكة ، كما سنذكره إن شاء الله وبه الثقة " قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره " هذه دعوة الرسل كلهم " قد جاءتكم بينة من ربكم " أى : قد أقام الله الحجج والبينات على صدق ما جئتكم به . ثم وعظهم فى معاملتهم الناس بأن يوفوا المكيال والميزان ولا يبخسوا الناس أشياءهم ، أى : لا يخونوا الناس فى أموالهم ويأخذوها على وجه البخس ، وهو نقص المكيال والميزان خفية وتدليساً . كما قال تعالى ﴿ ويل للمطففين * الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون * وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون * ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون * ليوم عظيم * يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾ . وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد . نسأل الله العافية منه .

ثم قال تعالى إخباراً عن شعيب ، الذى يقال له : خطيب الأنبياء ، لفصاحة عبارته وجزالة موعظته :

﴿ ولا تقعدوا بكل صرط توعدون وتصدون عن سبيل الله من ءامن به وتبغونها عوجاً ، واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم ، وانظروا كيف كان عقبة المفسدين (٨٦) وإن كان طائفة منكم

(١) ج ٢ ص ٩٧ – ١٠٢ .

ءامَنُوا بِالَّذِى أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾

ينهاهم شعيب عليه السلام عن قطع الطريق الحسى والمعنوى بقوله " ولا تقعدوا بكل صراط توعدون " أى : تتوعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم. قال السدى وغيره : كانوا عشارين . وعن ابن عباس ومجاهد وغير واحد : أى تتوعدون المؤمنين الآتين إلى شعيب ليتبعوه . والأوّل أظهر ، لأنه قال " بكل صراط " وهو الطريق . وهذا الثانى هو قوله " وتصدّون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً " أى : وتودّون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة " واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم " أى : كنتم مستضعفين لقلتكم فصرتم أعزةً لكثرة عددكم ، فاذكروا نعمة الله عليكم فى ذلك " وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين " أى : من الأمم الخالية والقرون الماضية ، وما حل بهم من العذاب والنكال ، باجترائهم على معاصى الله وتكذيب رسله . وقوله " وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا " أى : قد اختلفتم علىّ " فاصبروا " أى : انتظروا " حتى يحكم الله بيننا " أى : يفصل " وهو خير الحاكمين " فإنه سيجعل العاقبة للمتقين ، والدمار على الكافرين .

ربع

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ، قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا اللَّهُ مِنْهَا ، وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ، وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ، رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

هذا خبر من الله تعالى عما واجهت به الكفار نبيه شعيباً ومن معه من المؤمنين ، فى توعدهم إياه ومن معه بالنفى عن القرية ، أو الإكراه على الرجوع فى ملتهم

والدخول معهم فيما هم فيه . وهذا خطاب مع الرسول والمراد أتباعه الذين كانوا معه على الملة . وقوله " أو لو كنا كارهين " يقول : أو أنتم فاعلو ذلك وإن كنا كارهين ما تدعونا إليه ، فإذا إن رجعنا إلى ملتكم ودخلنا معكم فيما أنتم فيه ، فقد أعظمنا الفرية على الله فى جعل الشركاء معه أنداداً . وهذا تنفير منه عن اتباعهم " وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا " وهذا رد إلى الله المسبب ، فإنه يعلم كل شيء وقد أحاط بكل شيء علماً " على الله توكلنا " أى : فى أمورنا ، ما نأتى منها وما نذر " ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق " أى : افصلْ بيننا وبين قومنا وانصرنا عليهم " وأنت خير الفاتحين" أى : خير الحاكمين ، فإنك العادل الذى لا تجور أبداً .

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ، الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾

يخبر تعالى عن شدة كفر قوم شعيب وتمردهم وعتوهم ، وما هم فيه من الضلال ، وما جُبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق ، ولهذا أقسموا فقالوا " لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون " فلهذا عقَّب ذلك بقوله " فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين " أخبر تعالى ههنا أنهم أخذتهم الرجفة ، وذلك لما أرجفوا شعيباً وأصحابه وتوعدوهم بالجلاء . كما أخبر عنهم فى سورة هود فقال : ﴿ ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منّا ، وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ﴾ . والمناسبة فى ذلك – والله أعلم – أنهم لما تهكموا بنبيّ الله شعيب فى قولهم " أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء ، إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾ فجاءت الصيحة أسكتتهم . وقال تعالى إخباراً عنهم فى سورة الشعراء : ﴿ فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة ، إنه كان عذاب يوم عظيم ﴾ . وما ذاك إلا لأنهم قالوا له فى سياق القصة :

﴿فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنتَ من الصادقين﴾ . فأخبر أنه أصابهم عذاب يوم الظلة ، وقد اجتمع عليهم ذلك كله : أصابهم عذاب يوم الظلة ، وهى سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم ، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجة من الأرض شديدة من أسفل منهم ، فزهقت الأرواح وفاضت النفوس وخمدت الأجسام " فأصبحوا فى دارهم جاثمين " ثم قال تعالى " كأن لم يغنوا فيها " أى : كأنهم لما أصابتهم النقمة لم يقيموا بديارهم التى أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها . ثم قال تعالى مقابلا لقيلهم " الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين " .

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ، فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾

أى فتولى عنهم شعيب عليه السلام بعد ما أصابهم ما أصابهم من العذاب والنقمة والنكال ، وقال مقرّعاً لهم وموبخاً " يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم " أى : قد أديت إليكم ما أرسلت به ، فلا آسف عليكم وقد كفرتم بما جئتكم به . فلهذا قال " فكيف آسى على قوم كافرين " .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عما اختبر به الأمم الماضية الذين أرسل إليهم الأنبياء بالبأساء والضراء . يعنى بالبأساء : ما يصيبهم فى أبدانهم من أمراض وأسقام ، والضراء : ما يصيبهم من فقر وحاجة ونحو ذلك " لعلهم يضرعون " أى : يدعون ويخشعون ويبتهلون إلى الله تعالى فى كشف ما نزل بهم . وتقدير الكلام : أنه ابتلاهم بالشدة ليتضرعوا ، فما فعلوا شيئاً من الذى أراد الله منهم ، فقلب الحال إلى الرخاء ليختبرهم فيه . ولهذا قال " ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة " أى : حوّلنا

الحال من شدّة إلى رخاء ، ومن مرض وسقم إلى صحة وعافية ، ومن فقر إلى غنى ، ليشكروا على ذلك ، فما فعلوا . وقوله " حتى عفَوْا " أى : كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم . يقال « عَفَا الشيءُ » إذا كثر " وقالوا قد مس أباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون " يقول تعالى : ابتلاهم بهذا وهذا ليتضرعوا وينيبوا إلى الله ، فما نجع فيهم لا هذا ولا هذا ، ولا انتهوا بهذا ولا بهذا ، بل قالوا : قد مسنا من البأساء والضراء ثم بعده من الرخاء – مثلُ ما أصاب آباءنا فى قديم الدهر ، وإنما هو الدهر تارات وتارات ، ولم يتفطنوا لأمر الله فيهم ، ولا استشعروا ابتلاءَ الله لهم فى الحالين . وهذا بخلاف حال المؤمنين ، الذين يشكرون الله على السراء ويصبرون على الضراء ، كما ثبت فى الصحيحين : « عجباً للمؤمن ، لا يقضى الله له قضاءً إلا كان خيراً له ، إن أصابته ضَرَّاءُ صبر فكان خيراً له ، وإن أصابته سراءُ شكر فكان خيراً له » [١] . فالمؤمن يتفطن لما ابتلاه الله به من الضراء والسراء . ولهذا جاء فى الحديث : « لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يخرج نقيًّا من ذنوبه ، والمنافق مَثَله كمثل الحمار ، لايدرى فيم ربطه أهله ولا فيم أرسلوه » [٢] . أو كما قال . ولهذا عقب هذه الصفة بقوله " فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون " أى : أخذناهم بالعقوبة بغتةً ، أى على بغتةٍ وعدمِ شعور منهم ، أى أخذناهم فجأة . كما فى الحديث : « موتُ الفجأة رحمة للمؤمن ، وأَخْذَةُ أسفٍ للكافر » [٣] .

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ

(١) مضى بنحوه مع تخريجه ج ١ ص ٢٧٣ .

(٢) أوله ثابت من حديث أبى هريرة ، فى المسند : ٧٨٤٦ « لا يزال البلاء بالمؤمن أو المؤمنة فى جسده وفى ماله وفى ولده حتى يلقى الله وما عليه خطيئة » . ورواه الترمذى والحاكم ، كما بينا هناك . وفى حديث أبى هريرة أيضاً ، فى الترغيب والترهيب ٤ : ١٤٥ « مثل المؤمن كمثل الزرع ، لا تزال الرياح تفيئه ، ولا يزال المؤمن يصيبه بلاء ، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز ، لا تهتز حتى تستحصد » . رواه مسلم والترمذى وصححه . وأما اللفظ الذى هنا فلم أجده .

(٣) رواه أحمد فى المسند ٦ : ١٣٦ (حلبى) ، من حديث عائشة ، وإسناده ضعيف ، ولكن فيه « للفاجر » بدل « للكافر » .

السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَلَـٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) ﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ، فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَـٰسِرُونَ (٩٩) ﴾

يقول تعالى مخبراً عن قلة إيمان أهل القرى الذين أرسل فيهم الرسل . كما قال تعالى : ﴿ فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ﴾ . أى : ما آمنت قرية بتمامها إلا قوم يونس ، فإنهم آمنوا ، وذلك بعد ما عاينوا العذاب. كما قال تعالى : ﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون * فآمنوا فمتعناهم إلى حين ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ . وكذا قال تعالى " ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا " أى : آمنت قلوبهم بما جاءتهم به الرسل وصدقت به واتبعته ، واتقوا بفعل الطاعات وترك المحرمات " لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض " أى : قطر السماء ونبات الأرض . قال تعالى " ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون " أى : ولكن كذبوا رسلهم ، فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المآثم والمحارم. ثم قال تعالى مخوفاً ومحذراً من مخالفة أوامره والتجرى على زواجره " أفأمن أهل القرى " أى : الكافرة " أن يأتيهم بأسنا " أى : عذابنا ونكالنا " بياتاً " أى : ليلا " وهم نائمون * أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون " أى : فى حال شغلهم وغفلتهم " أفأمنوا مكر الله " أى : بأسه ونقمته وقدرته عليهم وأخذه إياهم فى حال سهوهم وغفلتهم " فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون " . ولهذا قال الحسن البصرى رحمه الله : المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفقٌ وَجِلٌ خائف ، والفاجر يعمل بالمعاصى وهو آمنٌ .

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ، وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) ﴾

قال ابن عباس فى قوله "أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها" أو لم نبين لهم أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم . وكذا قال مجاهد وغيره . وقال ابن جرير : يقول تعالى : أو لم نبين للذين يُستخلفون فى الأرض من بعد هلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها ، فساروا سيرتهم وعملوا أعمالهم وعتوا على ربهم "أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم" يقول : أن لو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم "ونطبع على قلوبهم" يقول : ونختم على قلوبهم "فهم لا يسمعون" موعظة ولا تذكيراً . قلت : وهكذا قال تعالى : ﴿ أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم ، إن فى ذلك لآيات لأولى النهى﴾ . وقال تعالى : ﴿ أوَ لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم ، إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون﴾ . وقال : ﴿ أوَ لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال * وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال﴾ . وقال تعالى : ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن ، هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً﴾ . أى : هل ترى لهم شخصاً أو تسمع لهم صوتاً . وقال تعالى : ﴿ أوَ لم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم ، وأرسلنا السماء عليهم مدراراً ، وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم ، فأهلكناهم بذنوبهم ، وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾ . وقال تعالى بعد ذكره إهلاك عاد : ﴿ فأصبحوا لا يُرى إلا مساكنهم ، كذلك نجزى القوم المجرمين * ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه ، وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة ، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء ، إذ كانوا يجحدون بآيات الله ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن * ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون﴾ . وقال تعالى : ﴿ وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم ، فكذبوا رسلى ، فكيف كان نكير﴾ . وقال تعالى : ﴿ ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير﴾ . وقال تعالى : ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة ، فهى خاوية على عروشها ، وبئر معطلة وقصر مشيد * أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن

تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ . إلى غير ذلك من الآيات الدالة على حلول نقمه بأعدائه ، وحصول نعمه لأوليائه . ولهذا عقب ذلك بقوله وهو أصدق القائلين ورب العالمين :

﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ، وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ، كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢) ﴾

لما قص تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم خبر قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ، وما كان من إهلاكه الكافرين وإنجائه المؤمنين ، وأنه تعالى أعذر إليهم بأن بين لهم الحق بالحجج على ألسنة الرسل صلوات الله عليهم أجمعين — قال تعالى : " تلك القرى نقص عليك " أى : يا محمد " من أنبائها " أى : من أخبارها " ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات " أى : الحجج على صدقهم فيما أخبروهم به . كما قال تعالى : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد * وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ﴾ . وقوله تعالى " فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل " الباء سببية ، أى : فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم . حكاه ابن عطية ، وهو متجه حسن . كقوله : ﴿ وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون * ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون ﴾. ولهذا قال هنا " كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين * وما وجدنا لأكثرهم " أى : لأكثر الأمم الماضية " من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين " أى : ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة والامتثال . والعهد الذى أخذه هو ما جبلهم عليه وفطرهم عليه وأخذه عليهم من الأصلاب : أنه ربهم ومليكهم ، أنه لا إله إلا هو ، وأقروا بذلك وشهدوا على أنفسهم به ،

فخالفوه وتركوه وراء ظهورهم ، وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة ، لا من عقل ولا شرع ، وفى الفطر السليمة خلاف ذلك . وجاءت الرسل الكرام من أولهم إلى آخرهم بالنهى عن ذلك ، كما جاء فى صحيح مسلم : « يقول الله تعالى : إنى خلقت عبادى حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللتُ لهم » (١) . وفى الصحيحين : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ». الحديث (٢) . وقال تعالى فى كتابه العزيز : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾. وقال تعالى : ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ . إلى غير ذلك من الآيات .

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَظَلَمُوا بِهَا ، فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣) ﴾

يقول تعالى " ثم بعثنا من بعدهم " أى : الرسل المتقدم ذكرهم ، كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر أنبياء الله أجمعين " موسى بآياتنا " أى : بحججنا ودلائلنا البينة " إلى فرعون " وهو ملك مصر فى زمان موسى " وملئه " أى : قومه " فظلموا بها " أى : جحدوا وكفروا بها ظلماً منهم وعناداً. كما قال تعالى: ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوًّا ﴾ . " فانظر كيف كان عاقبة المفسدين" . أى : الذين صدوا عن سبيل الله وكذبوا رسله . أى : انظر يا محمد كيف فعلنا بهم وأغرقناهم عن آخرهم بمرأى من موسى وقومه . وهذا أبلغ فى النكال بفرعون وقومه ، وأشفى لقلوب أولياء الله موسى وقومه المؤمنين به .

---

(١) هو جزء من حديث عياض بن حمار ، مضى كاملا مع تخريجه ٤ : ١١٥ .

(٢) مضى ٣ : ٢٧٢ .

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ، قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَٰءِيلَ (١٠٥) قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ (١٠٦) ﴾

يخبر تعالى عن مناظرة موسى لفرعون ، وإلجامه إياه بالحجة ، وإظهاره الآيات البينات بحضرة فرعون وقومه من قبط مصر . فقال تعالى " وقال موسى يا فرعون إنى رسول من رب العالمين " أى : أرسلنى الذى هو خالق كل شىء وربه ومليكه "حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق" فقال بعضهم : معناه : حقيق بأن لا أقول على الله إلا الحق ، أى : جدير بذلك وحرىّ به . قالوا : والباء وعلى يتعاقبان ، يقال : رميت بالقوس ، وعلى القوس ، وجاء على حال حسنة ، وبحال حسنة . وقال بعض المفسرين : معناه : حريص على أن لا أقول على الله إلا الحق . وقرأ آخرون من أهل المدينة "حقيق علىَّ " بمعنى واجب وحق علىَّ ذلك ، أن لا أخبر عنه إلا بما هو حق وصدق ، لما أعلم من عزّ جلاله وعظيم سلطانه . " قد جئتكم ببينة من ربكم " أى : بحجة قاطعة من الله أعطانيها دليلاً على صدقى فيما جئتكم به " فأرسل معى بنى إسرائيل " أى : أطلقهم من أسرك وقهرك ، ودعهم وعبادةَ ربك وربهم ، فإنهم من سلالة نبىّ كريم : إسرائيل ، وهو يعقوب بن إسحق ابن إبرهيم خليل الرحمن " قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين " أى : قال فرعون : لست بمصدقك فيما قلتَ ولا بمطيعك فيما طلبتَ ، فإن كانت معك حجة فأظهرها لنراها ، إن كنت صادقاً فيما أدعيت .

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّٰظِرِينَ (١٠٨) ﴾

قال ابن عباس فى قوله " ثعبان مبين " — : الحية الذكر . وكذا قال السدى والضحاك . وقوله " ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين " أى : أخرج يده

من درعه بعد ما أدخلها فيه ، فإذا هي بيضاء تتلألأ من غير برص ولا مرض .
كما قال تعالى: ﴿ واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى ﴾ .

﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) ﴾

أي قال الملأ – وهم الجمهور والسادة – من قوم فرعون ، موافقين لقول فرعون فيه بعد ما رجع إليه روعه واستقر على سرير مملكته بعد ذلك ، قال للملأ حوله " إن هذا لساحر عليم " فوافقوه وقالوا كمقالته ، وتشاوروا في أمره كيف يصنعون في أمره ؟ وكيف تكون حيلتهم في إطفاء نوره وإخماد كلمته وظهور كذبه وافترائه ؟ وتخوفوا من معرَّته أن يستميل الناس إليه بسحره فيما يعتقدون، فيكون ذلك سبباً لظهوره عليهم وإخراجه إياهم من أرضهم . والذي خافوا منه وقعوا فيه . كما قال تعالى : ﴿ ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾ . فلما تشاوروا في شأنه وائتمروا فيه ، اتفق رأيهم على ما حكاه الله تعالى عنهم في قوله تعالى :

﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَـٰشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) ﴾

قال ابن عباس " أرجه " – أخِّرْه . وقال قتادة: احبسه " وأرسل " أي : ابعثْ " في المدائن " أي : في الأقاليم ومدائن ملكك " حاشرين " أي : من يحشر لك السحرة من سائر البلاد ويجمعهم . وقد كان السحر في زمانهم غالباً كثيراً ظاهراً ، واعتقد من اعتقد منهم وأوهم من أوهم منهم أن ما جاء به موسى عليه السلام من قبيل ما تُشَعْبِذ به سحرتهم ،فلهذا جمعوا له السحرة ليعارضوه بنظير ما أراهم من البينات . كما أخبر تعالى عن فرعون حيث قال : ﴿ أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى * فلنأتينك بسحر مثله ، فاجعل بيننا وبينك

موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى * قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى * فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى ﴾ . وقال تعالى ههنا :

﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّـكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾

يخبر تعالى عما تشارط عليه فرعون والسحرة الذين استدعاهم لمعارضة موسى عليه السلام : إن غلبوا موسى ليثبتنّهم وليعطينهم عطاءً جزيلاً ، فوعدهم ومناهم أن يعطيهم ما أرادوا ، ويجعلهم من جلسائه والمقربين عنده . فلما توثقوا من فرعون لعنه الله

﴿ قَالُوا يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّـكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا ، فَلَمَّآ أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ﴾

هذه مبارزة من السحرة لموسى عليه السلام فى قولهم " إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين " أى : قبلك كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ وإما أن نكون أول من ألقى ﴾ . فقال لهم عليه السلام " ألقوا " أى : أنتم أولا . قيل : الحكمة فى هذا — والله أعلم — ليرى الناس صنيعهم ويتأملوه ، فإذا فرغوا من بهرجهم ومحالهم جاءهم الحق الواضح الجلى ، بعد التطلب له والانتظار منهم لمجيئه ، فيكون أوقع فى النفوس ، وكذا كان . ولهذا قال تعالى " فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم " أى : خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة فى الخارج ، ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال ، كما قال تعالى : ﴿ فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى * فأوجس فى نفسه خيفة موسى * قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى * وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا ، إن ما صنعوا كيدُ ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ .

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ

مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٢) ﴾

يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله موسى عليه السلام فى ذلك الموقف العظيم ، الذى فرق الله تعالى فيه بين الحق والباطل ، يأمره بأن يلقى ما فى يمينه وهى عصاه " فإذا هى تلقف " أى : تأكل " ما يأفكون " أى : ما يلقونه ويوهمون أنه حق وهو باطل . قال ابن عباس : فجعلت لا تمر بشىءمن حبالهم ولامن خشبهم إلا التقمته ، فعرفت السحرة أن هذا شىء من السماء ، ليس هذا بسحر ، فخروا سجداً وقالوا " آمنا برب العالمين رب موسى وهرون " .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ، إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ، رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦)

يخبر تعالى عما توعد به فرعونُ لعنه الله السحرةَ لما آمنوا بموسى عليه السلام ، وما أظهره للناس من كيده ومكره فى قوله " إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها " أى : إن غلبه لكم فى يومكم هذا إنما كان عن تشاور منكم ورضاً منكم لذلك . كقوله فى الآية الأخرى : ﴿ إنه لكبيركم الذى علمكم السحر ﴾ . وهو يعلم وكل من له لبٌّ أن هذا الذى قاله من أبطل الباطل ، فإن موسى عليه السلام بمجرد ما جاء من مدين دعا فرعون إلى الله ، وأظهر المعجزات الباهرة والحجج القاطعة على صدق ما جاء به ، فعند ذلك أرسل فرعون فى مدائن ملكه ومعاملة سلطنته ، فجمع سحرةً متفرقين من سائر الأقاليم ببلاد مصر ، ممن اختار هو والملأ من قومه ، وأحضرهم عنده ، ووعدهم بالعطاء الجزيل .

وقد كانوا من أحرص الناس على ذلك ، وعلى الظهور فى مقامهم ذلك والتقدم عند فرعون . وموسى عليه السلام لا يعرف أحداً منهم ولا رآه ولا اجتمع به ، وفرعون يعلم ذلك. وإنما قال هذا تستراً وتدليساً على رَعَاعِ دولته وجَهَلَتِهم. كما قال تعالى : ﴿ فاستخفَّ قومه فأطاعوه﴾ فإن قوماً صدقوه فى قوله ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ من أجهل خلق الله وأضلهم ! ! وقوله " لتخرجوا منها أهلها " أى : تجتمعوا أنتم وهو وتكون لهم دولة وصولة ، وتخرجوا منها الأكابر والرؤساء وتكون الدولة والتصرف لكم " فسوف تعلمون " أى : ما أصنع بكم . ثم فسر هذا الوعيد بقوله " لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف " يعنى : يقطع يد الرجل اليمنى ورجله اليسرى ، أو بالعكس " ولأصلبنكم أجمعين " وقال فى الآية الأخرى : ﴿ فى جذوع النخل ﴾ . أى : على الجذوع وقول السحرة " إنا إلى ربنا منقلبون " أى : قد تحققنا أنا إليه راجعون ، وعذابه أشد من عذابك ، ونكاله على ما تدعونا إليه اليوم وما أكرهتنا عليه من السحر أعظم من نكالك ، فلنصبر اليومَ على عذابك لنخلص من عذاب الله . ولهذا قالوا " ربنا أفرغ علينا صبراً " أى : عمنا بالصبر على دينك والثبات عليه " وتوفنا مسلمين " أى متابعين لنبيك موسى عليه السلام . وقالوا لفرعون: ﴿ فاقض ما أنت قاض ، إنما تقضى هذه الحياة الدنيا * إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبقى * إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى * ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى﴾ . فكانوا فى أول النهار سحرةً ، فصاروا فى آخره شهداءَ بررةً .

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ، قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ، إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَالْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ، قَالَ عَسَىٰ

رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩) ﴾

يخبر تعالى عما تمالأ عليه فرعون ومَلَؤُه، وما أضمروه لموسى عليه السلام وقومه من الأذى والبغضة — : " وقال الملأ من قوم فرعون " أى : لفرعون " أتذر موسى وقومه " أى : أتدعهم " ليفسدوا فى الأرض " أى : يفسدوا أهل رعيتك ويدعوهم إلى عبادة ربهم دونك ! يالله، العجب! صار هؤلاء يشفقون من إفساد موسى وقومه ! ألا إن فرعون وقومه هم المفسدون ولكن لا يشعرون . ولهذا قالوا " ويذرك وآلهتك " قال بعضهم : الواو ها هنا حالية ، أى : أتذره وقومه يفسدون وقد ترك عبادتك ؟ ! وقال آخرون : هى عاطفة ، أى : أتدع موسى يصنع هو وقومه من الفساد ما قد أقررتهم عليه وعلى تركه آلهتك . وقرأ بعضهم " إلاهتك " أى : عبادتك . روى ذلك عن ابن عباس ومجاهد وغيره . وعلى القراءة الأولى قال بعضهم : كان لفرعون إله يعبده . قال الحسن البصرى : كان لفرعون إله يعبده فى السر . فأجابهم فرعون فيما سألوه بقوله " سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم " وهذا أمر ثانٍ بهذا الصنيع . وقد كان نكل بهم قبل ولادة موسى عليه السلام حذراً من وجوده ، فكان خلاف ما رامه وضد ما قصده فرعون . وهكذا عومل فى صنيعه أيضاً لما أراد إذلال بنى إسرائيل وقهرهم فجاء الأمر على خلاف ما أراد ، أعزهم الله وأذله وأرغم أنفه وأغرقه وجنوده . ولما صمم فرعون على ما ذكره من المساءة لبنى إسرائيل " قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا " ووعدهم بالعاقبة وأن الدار ستصير لهم فى قوله " إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين * قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا " أى : قد جرى علينا مثلُ ما رأيتَ من الهوان والإذلال من قبل ما جئتَ يا موسى ومن بعد ذلك . فقال منبهاً لهم على حالهم الحاضر وما يصيرون إليه فى ثانى الحال " عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون " وهذا تحضيض لهم على العزم على الشكر عند حلول النعم وزوال النقم .

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ، وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ، أَلَا إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١) ﴾

يقول تعالى " ولقد أخذنا آل فرعون " أى : اختبرناهم وامتحناهم وابتليناهم " بالسنين " وهى سنو الجوع بسبب قلة الزرع " ونقص من الثمرات " قال مجاهد : وهو دون ذلك . " لعلهم يذكرون * فإذا جاءتهم الحسنة " أى : من الخصب والرزق " قالوا لنا هذه " أى : هذا لنا بما نستحقه " وإن تصبهم سيئة" أى : جدب وقحط " يطيروا بموسى ومن معه " أى: هذا بسببهم وما جاءوا به " ألا إنما طائرهم عند الله " قال ابن عباس : أى من قبل الله .

﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَٰمُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ، لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (١٣٥) ﴾

هذا إخبار من الله عز وجل عن تمرّد قوم فرعون وعتوّهم وعنادهم للحق وإصرارهم على الباطل ، فى قولهم " مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين " يقولون أىّ آية جئتنا بها ودلالة وحجة أقمتها رددناها ، فلا نقبلها منك ولا نؤمن بك ولا بما جئت به . قال الله تعالى " فأرسلنا عليهم الطوفان " اختلفوا فى معناه: فعن ابن عباس فى رواية : كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار . وبه قال الضحاك بن مزاحم . وعن ابن عباس — فى رواية أخرى — : هو كثرة

الموت . وكذا قال عطاء . وقال مجاهد : الطوفان الماء والطاعون على كل حال . وقال ابن عباس – فى رواية أخرى – : هو أمر من الله طاف بهم ، ثم قرأ : ﴿ فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ﴾ . وأما الجراد فمعروف مشهور ، وهو مأكول ، لما ثبت فى الصحيحين عن أبى يعفور ، قال : سألت عبد الله بن أبى أوفى عن الجراد ؟ فقال : غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات نأكل الجراد » . وروى الشافعى وأحمد بن حنبل وابن ماجة عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « أحلت لنا ميتتان ودمان : الحوت والجراد ، والكبد والطحال » . ورواه البغوى . وروى أبو داود عن سلمان ، قال : « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الجراد ؟ فقال : أكثر جنود الله ، لا آكله ولا أحرمه » . وإنما تركه عليه السلام لأنه كان يعافه ، كما عافت نفسه الشريفة أكل الضب وأذن فيه . وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يشتهيه ويحبه . فعن ابن عمر : أن عمر سئل عن الجراد ؟ فقال : ليت أن عندنا منه قَفْعة أو قَفْعتين نأكله[1] . وروى ابن ماجة عن أنس بن مالك، قال : « كان أزواج النبى صلى الله عليه وسلم يتهادين الجراد على الأطباق » . وأما القمل : فعن ابن عباس : هو السوس الذى يخرج من الحنطة . وعنه : أنه الدبا ، وهو الجراد الصغار الذى لا أجنحة له . وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة . وعن الحسن وسعيد ابن جبير : القمل دوابّ سود صغار . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : القمل البراغيث . وقال ابن جرير : القمل جمع ، واحدتها قملة ، وهى دابة تشبه القمل تأكلها الإبل فيما بلغنى . وقال زيد بن أسلم : يعنى بالدم الرعاف . رواه ابن أبى حاتم .

﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ، وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ

(١) القفعة بفتح القاف وسكون الفاء : شيء كالقفة ، واسع الأسفل ضيق الأعلى .

بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا ، وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

يخبر تعالى أنهم لما عتوا وتمردوا – مع ابتلائه إياهم بالآيات المتواترة واحدة بعد واحدة – انتقم منهم بإغراقه إياهم فى اليم ، وهو البحر الذى فرقه لموسى فجاوزه وبنو إسرائيل معه ، ثم ورده فرعون وجنوده على أثرهم ، فلما استكملوا فيه ارتطم عليهم فغرقوا عن آخرهم. وذلك بسبب تكذيبهم بآيات الله وتغافلهم عنها. وأخبر تعالى أنه أورث القوم الذين كانوا يستضعفون – وهم بنو إسرائيل – مشارق الأرض ومغاربها . كما قال تعالى : ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾ . وقال تعالى : ﴿كم تركوا من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها قوماً آخرين﴾ . وعن الحسن البصرى وقتادة فى قوله " مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها " يعنى الشام . وقوله " وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا " قال مجاهد وابن جرير : هى قوله تعالى : ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾ . وقوله " ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه" أى : وخرّبنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات والمزارع " وما كانوا يعرشون " قال ابن عباس ومجاهد : يبنون .

﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ، قَالُوا يَٰمُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾

يخبر تعالى عما قاله جهلة بنى إسرائيل لموسى عليه السلام ، حين جاوزوا

البحر وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا " فأتوا " أى : فمروا " على قوم يعكفون على أصنام لهم " قال بعض المفسرين : كانوا من الكنعانيين ، وقيل : كانوا من لخم . قال ابن جرير : وكانوا يعبدون أصناماً على صور البقر ، فلهذا أثار ذلك شبهةً لهم فى عبادتهم العجل بعد ذلك . فقالوا " يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال إنكم قوم تجهلون " أى : تجهلون عظمة الله وجلاله وما يجب أن ينزه عنه من الشريك والمثيل " إن هؤلاء متبر ما هم فيه " أى : هالك " وباطل ما كانوا يعملون " وروى ابن جرير عن أبى واقد الليثى : « أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى حُنَين ، قال : وكان للكفار سِدْرَة يعكفون عندها ويعلقون بها أسلحتهم ، يقال لها : ذاتُ أنْوَاطٍ ، قال : فمررنا بسدرة خضراء عظيمة ، قال : فقلنا : يا رسول الله ، اجعل لنا ذاتَ أنواط كما لهم ذاتُ أنواط !! فقال : قلتم والذى نفسى بيده كما قال قوم موسى لموسى " اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال إنكم قوم تجهلون ، إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون " »[١] وروى الإمام أحمد عن أبى واقد الليثى ، قال : « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قِبَلَ حُنين فمررنا بسدرة ، فقلت : يا نبى الله ، اجعل لنا ذاتَ أنواط كما للكفار ذاتُ أنواط ! وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : الله أكبر ، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى " اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة " إنكم تركبون سَنَنَ الذين مِنْ قبلكم »[٢] . ورواه ابن أبى حاتم من حديث كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزنى ، عن أبيه ، عن جده ، مرفوعاً .

﴿ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ

---

(١) الطبرى : ١٥٠٥٦ ، ١٥٠٥٧ ، ١٥٠٥٨ . وتفصيل تخريجه هناك .

(٢) المسند ٥ : ٢١٨ (حلبى) .

أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١) ﴾

يذكرهم موسى عليه السلام نعم الله عليهم ، من إنقاذهم من أسر فرعون وقهره ، وما كانوا فيه من الهوان والذلة ، وما صاروا إليه من العزة والاشتفاء من عدوهم ، والنظر إليه فى حال هوانه وهلاكه وغرقه ودماره . وقد تقدم تفسيرها فى البقرة[1] .

ربع

﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢) ﴾

يقول تعالى ممتنًّا على بنى إسرائيل بما حصل لهم من الهداية، بتكليمه موسى عليه السلام ، وإعطائه التوراة وفيها أحكامهم وتفاصيل شرعهم — فذكر تعالى أنه واعد موسى ثلاثين ليلة ، ثم أمره الله تعالى أن يكمل العشرة أربعين . وقد اختلف المفسرون فى هذه العشر ما هى ؟ فالأكثرون على أن الثلاثين هى ذو القعدة والعشر عشر ذى الحجة . قاله مجاهد ومسروق وابن جريج ، وروى عن ابن عباس وغيره . فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر وحصل فيه التكليم لموسى عليه السلام ، وفيه أكمل الله الدين لمحمد صلى الله عليه وسلم ، كما قال تعالى: ﴿ اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتى ورضيتُ لكم الإسلام ديناً ﴾ . فلما تم الميقات وعزم موسى على الذهاب إلى الطور ، كما قال تعالى : ﴿ يا بنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ﴾ — الآية . فحينئذ استخلف موسى على بنى إسرائيل أخاه هرون ، ووصاه بالإصلاح وعدم الإفساد ، وهذا تنبيه وتذكير ، وإلا فهرون عليه السلام نبى شريف كريم على الله ، له وجاهة وجلالة ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء .

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِى أَنظُرْ

(١) مضى ١ ص ١٤٧ – ١٤٨ .

إِلَيْكَ ، قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ، فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) ﴾

يخبر تعالى عن موسى عليه السلام أنه لما جاء لميقات الله تعالى وحصل له التكليم من الله ، سأل الله تعالى أن ينظر إليه فقال " رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى " وقد أشكل حرف « لن» ههنا على كثير من العلماء لأنها موضوعة لنفى التأبيد ، فاستدل به المعتزلة على نفى الرؤية فى الدنيا والآخرة ، وهذا أضعف الأقوال ، لأنه قد تواترت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن المؤمنين يرون الله فى الدار الآخرة ، كما سنوردها عند قوله تعالى ﴿ وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة ﴾[١] . وقوله تعالى إخباراً عن الكفار : ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾[٢] . وقيل : إنها لنفى التأبيد فى الدنيا جميعاً بين هذه الآية وبين الدليل القاطع على صحة الرؤية فى الدار الآخرة . وقيل : إن هذا الكلام فى هذا المقام كالكلام فى قوله تعالى : ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾ . وقد تقدم ذلك فى الأنعام[٣] . فى الكتب المتقدمة : أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام : يا موسى ، إنه لا يرانى حىّ إلا مات ، ولا يابس إلا تَدَهْدَهَ . ولهذا قال : " فلما تجلى ربه للجبل جعله دكًّا وخرّ موسى صعقاً " ، وروى الإمام أحمد فى مسنده : حدثنا أبو المثنى معاذ ابن معاذ العَنْبرى ، حدثنا حماد بن سلمة ، حدثنا ثابتٌ البُنَانى ، عن أنس ابن مالك : « عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله " فلما تجلى ربه للجبل " قال : قال هكذا ، يعنى أنه أخرج طرف الخنصر . قال أحمد: أرانا معاذ ، فقال له حميد الطويل : ما تريد إلى هذا يا أبا محمد ؟ قال : فضرب صدره

---

(١) الآيتان : ٢٢ ، ٢٣ من سورة القيامة .

(٢) الآية : ١٥ من سورة المطففين .

(٣) مضى فى هذا الجزء ، ص : (١٠٣ الأنعام) .

ضربةً شديدةً ، وقال من أنت يا حميد ؟ ! وما أنت يا حميد ؟! يحدثنى به أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم ، يقول ما تريد إليه ؟! ورواه الترمذى ، ثم قال : هذا حديث حسن صحيح غريب ، لا نعرفه إلا من حديث حماد . ورواه الحاكم ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . ورواه أبو محمد الحسن بن محمد بن على الخلال ، وقال : هذا إسناد صحيح لا علة فيه. وقال ابن عباس فى قول الله تعالى " فلما تجلى ربه للجبل " قال : ما تجلى منه إلا قدر الخنصر " جعله دكًّا " قال : تراباً " وخر موسى صعقاً " قال : مغشيًّا عليه ، رواه ابن جرير. والمعروف أن الصعق هو الغشى ههنا ، كما فسره ابن عباس وغيره ، لا كما فسره قتادة بالموت ، وإن كان ذلك صحيحاً فى اللغة . كقوله تعالى : ﴿ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾ . فإن هناك قرينة تدل على الموت ، كما أن هنا قرينة تدل على الغشى ، وهى قوله " فلما أفاق" والإفاقة لا تكون إلا عن غشى " قال سبحانك " تنزيهاً وتعظيماً وإجلالاً أن يراه أحد فى الدنيا إلا مات . وقوله " تبت إليك " قال مجاهد : أن أسألك الرؤية " وأنا أول المؤمنين" قال ابن عباس ومجاهد : من بنى إسرائيل ، واختاره ابن جرير ، وفى رواية أخرى عن ابن عباس " وأنا أول المؤمنين " أنه لا يراك أحد . وكذا قال أبو العالية : قد كان قبله مؤمنون ، ولكن يقول : أنا أول من آمن بك أنه لا يراك من خلقك إلى يوم القيامة . وهذا قول حسن له اتجاه . وقال البخارى فى صحيحه : قوله " وخر موسى صعقاً " فيه أبو سعيد وأبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم . فأما حديث أبى سعيد فأسنده البخارى عن أبى سعيد الخدرى ، قال : « جاء رجل من اليهود إلى النبى صلى الله عليه وسلم قد لُطم وجهه ، وقال : يا محمد ، إن رجلا من أصحابك من الأنصار لطم وجهى ، قال : ادْعُوه ، فدَعَوْه ، فقال : لم لطمتَ وجهه ؟ قال : يا رسول الله ، إنى مررت باليهود فسمعته يقول : والذى اصطفى موسى على البشر ، قال : على محمد ، فأخذتنى غضبة فلطمته ، قال : لا تخيرونى من بين الأنبياء ،

فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فإذا أنا بموسى آخذٌ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدرى أفاق قبلى ، أم جوزى بصعقة الطور » . ورواه مسلم ، وأبو داود . وأما حديث أبى هريرة ، فروى الإمام أحمد عن أبى هريرة ، قال : « استب رجلان : رجل من المسلمين ورجل من اليهود ، فقال المسلم : والذى اصطفى محمداً على العالمين ، وقال اليهودىُّ : والذى اصطفى موسى على العالمين ، فغضب المسلم على اليهودى فلطمه ، فأتى اليهودى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله فأخبره، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعترف بذلك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تخيرونى على موسى ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة ، فأكون أول من يفيق ، فإذا موسى ممسك بجانب العرش ، فلا أدرى أكان ممن صعق فأفاق قبلى ، أم كان ممن استثنى الله عز وجل » . أخرجاه فى الصحيحين . والكلام فى قوله عليه السلام : « لا تخيرونى على موسى » — كالكلام على قوله : « لا تفضلونى على الأنبياء ولا على يونس بن متَّى » . قيل : من باب التواضع . وقيل: قبل أن يعلم بذلك. وقيل : نهى أن يفضل بينهم على وجه العصبية والغضب . وقيل : على وجه القول بمجرد الرأى والتشهى. والله أعلم. وقوله : « فإن الناس يصعقون يوم القيامة» — الظاهر أن هذا الصعق يكون فى عرَصَات القيامة ، يحصل أمر يصعقون منه . والله أعلم به . وقد يكون ذلك إذا جاء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء وتجلى للخلائق الملك الديان ، كما صعق موسى من تجلى الرب تبارك وتعالى . ولهذا قال عليه السلام : « فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور » .

﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (١٤٤) وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ (١٤٥) ﴾

يذكر تعالى أنه خاطب موسى بأنه اصطفاه على عالمى زمانه برسالاته وكلامه.

ولا شك أن محمداً صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم من الأولين والآخرين ، ولهذا اختصه الله بأن جعله خاتم الأنبياء والمرسلين ، الذى تستمر شريعته إلى قيام الساعة ، وأتباعه أكثر من أتباع الأنبياء كلهم، وبعده فى الشرف والفضل إبرهيم الخليل عليه السلام ، ثم موسى بن عمران كليم الرحمن عليه السلام ، ولهذا قال له " فخذ ما آتيتك " أى : من الكلام والمناجاة " وكن من الشاكرين " أى : على ذلك ، ولا تطلب ما لا طاقة لك به . ثم أخبر تعالى أنه كتب له فى الألواح من كل شىء موعظةً وتفصيلا لكل شىء ، وكانت هذه الألواح مشتملةً على التوراة التى قال الله تعالى: ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس﴾ . وقيل : الألواح أعطيها موسى قبل التوراة . فالله أعلم . وعلى كل تقدير فكانت كالتعويض له عما سأل من الرؤيا ومنع منها . والله أعلم " وقوله فخذها بقوة " أى : بعزم على الطاعة " وأمر قومك يأخذوا بأحسنها " قال ابن عباس : أُمِرَ موسى عليه السلام أن يأخذ بأشدّ ما أمر قومه . وقوله " سأريكم دار الفاسقين " أى : ستّرون عاقبة من خالف أمرى وخرج عن طاعتى كيف يصير إلى الهلاك والدمار والتباب ، قال ابن جرير : وإنما قال " سأريكم دار الفاسقين " كما يقول القائل لمن يخاطبه : سأريك غداً إلى ما يصير إليه حال من خالف أمرى ، على وجه التّهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره ، نقل معنى ذلك عن مجاهد والحسن البصرى . وقيل : معناه " سأريكم دار الفاسقين " أى : من أهل الشام وأعطيكم إياها . وقيل : منازل قوم فرعون ، والأول أولى — والله أعلم — لأن هذا كله كان بعد انفصال موسى وقومه عن بلاد مصر ، وهو خطاب لبنى إسرائيل قبل دخولهم التيه . والله أعلم .

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ، ذَٰلِكَ

بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَـٰفِلِينَ (١٤٦) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ ، هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٧) ﴾

يقول تعالى " سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق " أى : سأمنع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتى وشريعتى وأحكامى قلوبَ المتكبرين عن طاعتى ويتكبرون على الناس بغير حق ، أى : كما استكبروا بغير حق أذلهم الله بالجهل . كما قال تعالى : ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ . وقال تعالى: ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ . وقال بعض السلف : لا ينال العلم حَيِيٌّ ولا مستكبر . وقال آخر : من لم يصبر على ذل التعلم ساعة بقى فى ذل الجهل أبداً . وقال سفيان بن عيينة فى قوله " سأصرفَ عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق " قال : أنزع عنهم فهم القرآن وأصرفهم عن آياتى . قال ابن جرير : وهذا يدل على أن هذا خطاب لهذه الأمة ، قلت : ليس هذا بلازم ، لأن ابن عيينة إنما أراد أن هذا مطرد فى حق كل أمة ، ولا فرق بين أحد وأحد فى هذا . والله أعلم . وقوله " وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها " كما قال تعالى : ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ ، وقوله " وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً " أى : وإن ظهر لهم سبيل الرشد ، أى : طريق النجاة ، لا يسلكوها ، وإن ظهر لهم طريق الهلاك والضلال يتخذوه سبيلا . ثم علل مصيرهم إلى هذه الحال بقوله " ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا " أى : كذبت بها قلوبهم " وكانوا عنها غافلين " أى : لا يعلمون شيئاً مما فيها . وقوله " والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم " أى : من فعل منهم ذلك واستمر عليه إلى الممات حبط عمله . وقوله " هل يجزون إلا ما كانوا يعملون" أى : إنما نجازيهم بحسب أعمالهم التى أسلفوها ، إن خيراً فخير ، وإن شرًّا فشرّ ، وكما تَدِين تُدان .[1]

---

(١) هنا بهامش المخطوطة العتيقة ما نصه : «آخر الجزء الأول من تفسير سورة الأعراف ، من خط المؤلف عفا الله عنه» .

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ، أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ، اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩) ﴾

يخبر تعالى عن ضلال من ضل من بنى إسرائيل، فى عبادتهم العجل الذى اتخذه لهم السامرى من حلى القبط الذى كانوا استعاروه منهم ، فشكل لهم منه عجلا ، ثم ألقى فيه القبضة من التراب التى أخذها من أثر فرس جبريل عليه السلام ، فصار عجلاً جسداً له خوار ، والخوار : صوت البقر . وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى لميقات ربه تعالى ، فأعلمه الله تعالى بذلك وهو على الطور، حيث يقول تعالى إخباراً عن نفسه الكريمة ، قال : ﴿ فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى﴾ . وقد اختلف المفسرون فى هذا العجل : هل صار لحماً ودماً له خوار ؟ أو استمر على كونه من ذهب إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقر ؟ على قولين . والله أعلم . قال الله تعالى : ﴿ أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضرًّا ولا نفعاً ﴾ . وقال فى هذه الآية الكريمة " ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً " ينكر تعالى عليهم فى ضلالهم بالعجل ، وذهولهم عن خالق السموات والأرض ورب كل شيء ومليكه ، أن عبدوا معه عجلا جسداً له خوار ولا يكلمهم ولا يرشدهم إلى خير . ولكن غطّى على أعين بصائرهم عمى الجهل والضلال ، كما تقدم من رواية الإمام أحمد وأبى داود عن أبى الدرداء ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حبك الشيء يعمى ويصم »[١] . وقوله " ولما سقط فى أيديهم " أى : ندموا على ما فعلوا " ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا " وقرأ بعضهم " لئن لم ترحمنا " بالتاء المثناة من فوق "ربَّنا" منادى: " وتغفر لنا لنكونن من الخاسرين " أى من الهالكين . وهذا اعتراف منهم بذنبهم ، والتجاء إلى الله عز وجل.

(١) مضى ج ١ ص ١٨٢ .

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ، أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ، وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ، قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى ، فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ، وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ (١٥١) ﴾

يخبر تعالى : أن موسى عليه السلام رجع إلى قومه من مناجاة ربه تعالى وهو غضبانُ أسف ، قال أبو الدرداء : الأسف أشد الغضب " قال بئسما خلفتمونى من بعدى " يقول : بئس ما صنعتم فى عبادة العجل بعد أن ذهبتُ وتركتكم . وقوله " أعجلتم أمر ربكم " يقول : استعجلتم مجيئى إليكم وهو مقدر من الله تعالى . وقوله " وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه " فى هذا دلالة على ما جاء فى الحديث : « ليس الخبر كالمعاينة »[1] . ثم ظاهر السياق : أنه إنما ألقى الألواح غضباً على قومه . وهذا قول جمهور العلماء سلفاً وخلفاً . وقوله "وأخذ برأس أخيه يجره إليه" خوفاً أن يكون قد قصر فى نهيهم ، قال فى الآية الأخرى : ﴿ قال ياهرون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا * أن لاتتبعن أفعصيت أمرى * قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى ﴾ . وقال ههنا " ابن أم إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى ، فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين " أى لا تسوِّقنى مساقهم وتجعلنى معهم . وإنما قال " ابن أم " ليكون أرقَّ وأنجعَ عنده ، وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه ، فلما تحقق موسى عليه السلام براءة ساحة هرون عليه السلام كما قال تعالى : ﴿ ولقد قال لهم هرون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن ، فاتَّبعونى وأطيعوا أمرى ﴾. فعند ذلك قال موسى

---

(١) رواه أحمد فى المسند مطولا ومختصراً : ١٨٤٢ ، ٢٤٤٧ ، من حديث ابن عباس . ورواه الحاكم مطولا ٢ : ٣٢١ ، وصححه على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى . ورواه ابن حبان فى صحيحه ٢ : ٢٩٨ (من المخطوطة المصورة) . وستأتى الرواية المطولة فى آخر تفسير هذه الآية .

" رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك ، وأنت أرحم الراحمين " وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يرحم الله موسى ، ليس المُعَايِن كالمُخْبَر ، أخبره ربه عز وجل أن قومه فتنوا بعده ، فلم يلق الألواح ، فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح »[١] .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَءَامَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٥٣) ﴾

أما الغضب الذى نال بنى إسرائيل فى عبادة العجل فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة حتى قتل بعضهم بعضاً ، كما تقدم فى سورة البقرة : ﴿ فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم ، فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم ﴾[٢] . وأما الذلة فأعقبهم ذلك ذلةً وصَغاراً فى الحياة الدنيا . وقوله " وكذلك نجزى المفترين " نائلة لكل من افترى بدعةً ، فإن ذُلَّ البدعة ومخالفة الرشاد متصلة من قبله على كتفيه . كما قال الحسن البصرى : إن ذل البدعة على أكتافهم وإن هَمْلَجَتْ بهم البغلاتُ وطقطقت بهم البراذينُ . وهكذا روى أيوب السختيانى عن أبى قلابة الجرمى . أنه قرأ هذه الآية " وكذلك نجزى المفترين " فقال : هى والله لكل مفتر إلى يوم القيامة . وقال سفيان ابن عيينة ، كل صاحب بدعة ذليل . ثم نبه تعالى عباده وأرشدهم إلى أنه يقبل توبة عباده من أى ذنب كان ، حتى ولو كان من كفر أو شرك أو نفاق أو شقاق ، ولهذا عقب هذه القصة بقوله " والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك " أى : يا محمد ، يا رسول التوبة ونبى الرحمة " من بعدها "

---

(١) هذه هى الرواية المطولة للخبر السابق . وهى فى المسند : ٢٤٤٧ . ونسبها السيوطى ٣ : ١٢٧ أيضاً لعبد بن حميد ، والبزار والطبرانى ، وابن الشيخ ، وابن مردويه .

(٢) ج ١ ص ١٥٠ .

أى : من بعد تلك الفعلة " لغفور رحيم " ، وروى ابن أبى حاتم عن عبد الله ابن مسعود : أنه سئل عن ذلك ، يعنى عن الرجل يزنى بالمرأة ثم يتزوجها ؟ فتلا هذه الآية " والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم " فتلاها عبد الله عشر مرات ، فلم يأمرهم بها ولم ينههم عنها[1] .

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾

يقول تعالى " ولما سكت عن موسى الغضب " أى : غضبه على قومه " أخذ الألواح " أى : التى كان ألقاها من شدة الغضب على عبادتهم العجل ، غيرةً لله وغضباً له " وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون " فقد أخبر تعالى أنه لما أخذها بعد ما ألقاها وجد فيها " هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون " ضمن الرهبة معنى الخضوع ، ولهذا عداها باللام .

﴿ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا ، فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّاىَ ، أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ، إِنْ هِىَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِى مَن تَشَاءُ ، أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ * وَاكْتُبْ لَنَا فِى هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ ربع

قال ابن عباس فى تفسير هذه الآية : كان الله أمره أن يختار من قومه سبعين رجلا ، فاختار سبعين رجلا فبرزهم ليدعوا ربهم . وكان فيما دعوا الله أن قالوا : اللهم أعطنا ما لم تعط أحداً من قبلنا ولا تعطه أحداً بعدنا ! فكره الله ذلك من دعائهم ، فأخذتهم الرجفة " قال " موسى " رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى " الآية . وقال السدى إن الله أمر موسى أن يأتيه فى ناسٍ من

(١) إسناد ابن أبى حاتم إلى ابن مسعود إسناد صحيح .

بنى إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل ، ووعدهم موعداً " واختار موسى قومه سبعين رجلا " على عينيه ، ثم ذهب بهم ليعتذروا ، فلما أتوا ذلك المكان قالوا " لن نؤمن لك " يا موسى " حتى نرى الله جهرة " فإنك قد كلمته فأرناه " فأخذتهم الصاعقة " فقام موسى يبكى ويدعو الله ، ويقول : رب ماذا أقول لبنى إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم " رب لو شئتَ أهلكتهم من قبل وإياى " وقال ابن عباس وقتادة ومجاهد وابن جريج : إنما أخذتهم الرجفة لأنهم لم يزايلوا قومهم فى عبادتهم العجل، ولا نَهَوْهم. ويتوجه هذا القول بقول موسى " أتهلكنا بما فعل السفهاء منا " . وقوله " إن هى إلا فتنتك" أى : ابتلاؤك وامتحانك واختبارك . قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وغير واحد من علماء السلف والخلف. ولا معنى له غير ذلك . يقول : إن الأمر إلا أمرك، وإن الحكمُ إلا لك، فما شئت كان، تضل من تشاء وتهدى من تشاء، ولا هادى لمن أضللت ، ولا مضل لمن هديتَ، ولا معطى لما منعتَ، ولا مانع لما أعطيتَ، فالملك كله لك ، والحكم كله لك، لك الخلق والأمر. وقوله" أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين " الغفر : هو الستر وترك المؤاخذة بالذنب . والرحمة إذا قرنت مع الغفر يراد بها أن لا يوقعه فى مثله فى المستقبل " وأنت خير الغافرين " أى : لا يغفر الذنوب إلا أنت " واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة " ها ذاك الفصل الأول من الدعاء فى دفع المحذور ، وهذا لتحصيل المقصود " واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة " أى أوجب لنا وأثبت لنا فيهما حسنة . " إنا هدنا إليك " أى : تبنا ورجعنا وأنبنا إليك . قاله ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وغير واحد . وهو كذلك لغة .

﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) ﴾

يقول تعالى مجيباً لموسى فى قوله ﴿ إن هى إلا فتنتك ﴾ — الآية — قال

" عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء " أى : أفعل ما أشاء وأحكم ما أريد ، ولى الحكمة والعدل فى كل ذلك . سبحانه لا إله إلا هو . وقوله تعالى " ورحمتى وسعت كل شىء " آية عظيمة الشمول والعموم . كقوله تعالى إخباراً عن حملة العرش ومن حوله أنهم يقولون : ﴿ ربنا وسعتَ كل شىء رحمة وعلماً ﴾ ، وروى الإمام أحمد عن جندب — هو ابن عبد الله البجلى — قال : « جاء أعرابى فأناخ راحلته ثم عقلها ، ثم صلى خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى راحلته فأطلق عقالها ، ثم ركبها ! ثم نادى : اللهم ارحمنى ومحمداً ولا تشرك فى رحمتنا أحداً !! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتقولون هذا أضل أم بعيره؟ ألم تسمعوا ما قال ؟! قالوا : بلى ، قال : لقد حظرتَ رحمةَ الله واسعةً ، إن الله عز وجل خلق مائة رحمة ، فأنزل رحمة يتعاطف بها الخلق جنها وإنسها وبهائمها ، وأخَّر عنده تسعاً وتسعين رحمة ، أتقولون هو أضل أم بعيره ؟ ! وروله أبو داود[1] وروى أحمد عن سلمان ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « إن الله عز وجل مائة رحمة ، فمنها رحمة يتراحم بها الخلق وبها تعطف الوحوش على أولادها ، وأخَّر تسعةً وتسعين إلى يوم القيامة » . تفرد بإخراجه مسلم ، وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « إن لله مائةَ رحمة ، عنده تسعة وتسعون ، وجعل عندكم واحدة تتراحمون بها بين الجن والإنس وبين الخلق ، فإذا كان يوم القيامة ضمها إليه » . تفرد به أحمد من هذا الوجه . وروى أحمد عن أبى سعيد ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لله مائة رحمة ، فقسم منها جزءاً واحداً بين الخلق ، به يتراحم الناس والوحش والطير » . ورواه ابن ماجة وقوله " فسأكتبها للذين يتقون " إلى آخرها ، يعنى : فسأوجب حصول رحمتى منةً منّى وإحساناً إليهم . كما قال تعالى : ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ . وقوله " للذين يتقون " أى : سأجعلها

---

(١) المسند ٤ : ٣١٢ (حلبى) .

للمتصفين بهذه الصفات ، وهم أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم " الذين يتقون " أى : الشرك والعظائم من الذنوب . " ويؤتون الزكاة " قيل : زكاة النفوس ، وقيل : الأموال . ويحتمل أن تكون عامةً لهما ، فإن الآية مكية " والذين هم بآياتنا يؤمنون " أى : يصدقون .

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) ﴾

" الذين يتبعون الرسول النبي الأمّي الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل " وهذه صفة محمد صلى الله عليه وسلم فى كتب الأنبياء ، بشروا أممهم ببعثه وأمروهم بمتابعته . ولم تزل صفاته موجودة فى كتبهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم . كما روى الإمام أحمد عن أبى صخر العقيلى ، حدثنى رجل من الأعراب ، قال : « جلبت حلوبةً إلى المدينة فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما فرغتُ من بيعى قلت : لألقَيَنَّ هذا الرجل فلأسمعنَّ منه ، قال فتلقانى بين أبى بكر وعمر يمشون ، فتبعتهم حتى أتوا على رجل من اليهود ناشر التوراة يقرؤها ، يعزى بها نفسه عن ابن له فى الموت كأجمل الفتيان وأحسنها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَنشُدُك بالذى أنزل التوراة ، هل تجد فى كتابك هذا صفتى ومخرجى ؟ فقال برأسه هكذا ، أى : لا ، فقال ابنه : أى والذى أنزل التوراة ، إنا لنجد فى كتابنا صفتك ومخرجك ، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله ، فقال : أقيموا اليهودى عن أخيكم ، ثم تولى كفنه وحَنّطه والصلاةَ عليه » . هذا حديث جيد قوى [1] .

---

(١) المسند ٥ : ٤١١ . وذكره الهيثمى فى الزوائد ٨ : ٢٣٤ ، وقال : « رواه أحمد ، وأبو صخر لم أعرفه ، وبقية رجاله رجال الصحيح » . و « أبو صخر العقيلى » : صحابى ، جزم

له شاهد فى الصحيح عن أنس . وروى ابن جرير عن عطاء بن يسار ، قال : « لقيت عبد الله بن عمرو ، فقلت : أخبرنى عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التوراة ، قال : أجل والله إنه لموصوف فى التوراة كصفته فى القرآن : ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾ ، وحرزاً للأمّيين ، أنت عبدى ورسولى ، اسمك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولن يقبضه الله حتّى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله ، ويفتح به قلوباً غلفاً ، وآذاناً صُمّاً ، وأعيناً عُمْياً ، قال عطاء : ثم لقيتُ كعباً فسألته عن ذلك ؟ فما اختلف حرفاً ، إلا أن كعباً قال بلغته ، قال : قلوباً غلوفياً ، وآذاناً صموميا ، وأعيناً عموميا ، وقد رواه البخارى نحوه ، وزاد بعد قوله « ليس بفظ ولا غليظ » - : « ولا صخاب فى الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح »[1] . وذكر حديث عبد الله بن عمرو ، ثم قال : ويقع فى كلام كثير من السلف إطلاق التوراة على كتب أهل الكتاب . وقد ورد فى بعض الأحاديث ما يشبه هذا . والله أعلم.

وقوله تعالى " يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر " هذه صفة الرسول صلوات الله وسلامه عليه فى الكتب المتقدمة . وهكذا كانت حاله عليه السلام ، لا يأمر إلا بخير ولا ينهى إلا عن شرّ ، كما قال عبد الله بن مسعود : إذا سمعت الله يقول : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ فأرْعِها سمعك ، فإنه خير تُؤمر به ، أو شر تُنهى عنه ، ومن أهم ذلك وأعظمه ما بعثه الله تعالى به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له ، والنهى عن عبادة من سواه ، كما أرسل به جميع الرسل قبله . كما قال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمّة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ .

وروى الإمام أحمد ، عن أبى حُميد وأبى أُسيد ، أن رسول الله صلى الله عليه

والبخارى ومسلم وابن حبان وغيرهم أن له صحبة . فالإسناد صحيح . وانظر الإصابة ٧ : ١٠٤ ، وتعجيل المنفعة ، ص ٤٩٥ - ٤٩٦ . وقوله « وجننه » بفتح الجيم والنون ، أى : ستره ودفنه . فى هامش المخطوطة العتيقة : « جننت الميت واجتننته ، أى واريته ، ومنه سمى القبر جنناً لأنه وارى صاحبه » .

(١) الطبرى : ١٥٢٢٥ - ١٥٢٢٧ . ورواه أحمد فى المسند : ٦٦٢٢ . وفصلنا تخريجه هناك .

وسلم قال : « إذا سمعتم الحديث عنّى تعرفه قلوبكم وتلين له أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم قريب ، فأنا أولاكم به ، وإذا سمعتم الحديث عنى تنكره قلوبكم وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم بعيداً ، فأنا أبعدكم منه » . هذا حديث جيد الإسناد . ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب . وروى الإمام أحمد عن على ، قال : « إذا حُدِّثتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً فظنوا به الذى هو أهدى والذى هو أهيا والذى هو أتقى ».[1] وقوله " ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث " أى : يحل لهم ما كانوا حرموه على أنفسهم من البحائر والسوائب والوصائل والحامى ، ونحو ذلك مما كانوا ضيقوا به على أنفسهم ، ويحرم عليهم الخبائث . قال ابن عباس : كلحم الخنزير والربا وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المآكل التى حرمها الله تعالى . قال بعض العلماء : كل ما أحل الله تعالى من المأكل فهو طيب نافع فى البدن والدين ، وكل ما حرمه فهو خبيث ضار فى البدن والدين . وقد تمسك بهذه الآية الكريمة من يرى التحسين والتقبيح العقليين ،وأجيب عن ذلك بما لا يتسع هذا الموضع له . وكذا احتج بها من ذهب من العلماء إلى أن المرجع فى حل المآكل التى لم ينص على تحليلها ولا تحريمها إلى ما استطابته العرب فى حال رفاهيتها ، وكذا فى جانب التحريم إلى ما استخبثته ، وفيه كلام طويل أيضاً . وقوله " ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم " أى : أنه جاء بالتيسير والسماحة ، كما ورد الحديث من طرق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « بعثت بالحنيفية السمحة »[2] . وقال صلى الله عليه وسلم لأميريه معاذ وأبى موسى الأشعرى لما بعثهما إلى اليمن : « بشرا ولا تنفرا ، ويسرا ولا تعسرا ، وتطاوعا ولا تختلفا » . وقال صاحبه أبو برْزَة الأسلمى : « صحبتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهدت تيسيره » . وقد كانت الأمم الذين قبلنا فى شرائعهم ضيقٌ عليهم ، فوسع الله على هذه الأمة أمورها وسهلها لهم . ولهذا قال رسول الله صلى

---

(١) المسند : ٩٨٥ .

(٢) مضى مختصراً ج ٢ ص ٢١٤ . ومضى كاملا ج ٥ : ١٦١ الأنعام .

الله عليه وسلم : « إن الله تجاوز لأمتى ما حدثت به أنفسها ، ما لم تقل أو تعمل » . وقال : « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » . ولهذا أرشد الله هذه الأمة أن يقولوا: ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا ، واغفر لنا ، وارحمنا ، أنت مولانا ، فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ . وثبت فى صحيح مسلم أن الله تعالى قال بعد كل سؤال من هذه : « قد فعلت ، قد فعلتُ » . وقوله " فالذين آمنوا به وعزروه " أى : عظموه ، ووقروه ، وقوله " واتبعوا النور الذى أنزل معه " أى : القرآن والوحى الذى جاء به مبلغاً إلى الناس" أولئك هم المفلحون " أى : فى الدنيا والآخرة .

﴿ قُلْ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ، لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْـيِ وَيُمِيتُ ، فَـَٔامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِىِّ الْأُمِّىِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨) ﴾

يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم" قل " يا محمد " يا أيها الناس " وهذا خطاب للأحمر والأسود ، والعربى والعجمى " إنى رسول الله إليكم جميعاً " أى : جميعكم . وهذا من شرفه وعظمته ، أنه خاتم النبيين ، وأنه مبعوث إلى الناس كافة . كما قال تعالى : ﴿ قل الله شهيد بينى وبينكم ، وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ، فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ﴾ . والآيات فى هذا كثيرة ، كما أن الأحاديث فى هذا أكثر من أن تحصر ، وهو معلوم من دين الإسلام ضرورة : أنه صلوات الله وسلامه عليه رسول الله إلى الناس كلهم . روى البخارى عن أبى الدرداء ، قال : كانت بين أبى بكر وعمر محاورة ، فأغضب أبو بكر عمر ، فانصرف عنه عمر مغضباً ، فاتبعه أبو بكر

فسأله أن يستغفر له ، فلم يفعل حتى أغلق بابه فى وجهه ، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو الدرداء : ونحن عنده ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما صاحبكم هذا فقد غامر ، أى : غاضَب وحاقَد ، قال : وندم عمر على ما كان منه ، فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وقص على رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر ، قال أبو الدرداء : فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعل أبو بكر يقول : والله يا رسول الله لأنا كنتُ أظلَم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل أنتم تاركو لى صاحبى ، إنى قلت : يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً فقلتم : كذبتَ ، وقال أبو بكر : صدقتَ » . انفرد به البخارى . وروى الإمام أحمد عن ابن عباس ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أعطيتُ خمساً لم يعطهن نبى قبلى ، ولا أقوله فخراً ، بعثتُ إلى الناس كافةً ، الأحمر والأسود ، ونُصرت بالرعب مسيرةَ شهر ، وأحلَّتْ لى الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلى ، وجُعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، وأعطيتُ الشفاعة فأخرّتُها لأمتى يوم القيامة ، فهى لمن لا يشرك بالله شيئاً » . إسناده جيد ، ولم يخرجوه[1] . قال الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عام غزوة تبوك قام من الليل يصلى ، فاجتمع وراءه رجال من أصحابه يحرسونه ، حتى إذا صلى انصرف إليهم فقال لهم : لقد أعطيت الليلة خمساً ما أعطيهن أحد قبلى ، أما أنا فأرسلت إلى الناس كلهم عامةً ، وكان من قبلى إنما يرسل إلى قومه ، ونُصرت على العدوّ بالرعب ، ولو كان بينى وبينهم مسيرة شهر لَمُلِئَ منه رعباً ، وأحلت لى الغنائم آكلها ، وكان من قبلى يعظمون أكلها ، كانوا يحرقونها ، وجُعلتْ لى الأرض مسجداً وطهوراً ، أينما أدركتنى الصلاة تَمَسَّحْتُ وصليتُ ، وكان من قبلى يعظمون ذلك ، إنما كانوا يصلون فى بِيَعِهِمْ وكنائسهم ، والخامسة هى ما هى ، قيل لى : سل ، فإن كل نبى قد سأل ، فأخرت مسألتى

---

(١) المسند : ٢٧٤٢ . وهو فى مجمع الزوائد ٨ : ٢٥٨ ، ونسبه أيضاً للبزار والطبرانى بنحوه . وقال : « ورجال أحمد رجال الصحيح ، غير يزيد بن أبى زياد ، وهو حسن الحديث » .

إلى يوم القيامة ، فهي لكم ولمن شهد أن لا إله إلا الله » . إسناده جيد قوى أيضاً ، ولم يخرجوه[1] . وروى أيضاً عن أبي موسى الأشعرى ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « من سمع بي من أمتي أو يهودى أو نصرانى فلم يؤمن بي لم يدخل الجنة » . وهذا الحديث فى صحيح مسلم من وجه آخر عن أبي موسى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده لا يسمع بي رجل من هذه الأمة يهودي ولا نصرانى ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار » . وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « والذى نفسى بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودى أو نصرانى ثم يموت ولا يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار » . تفرد به أحمد . وروى الإمام أحمد عن أبي موسى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أعطيتُ خمساً ، بعثتُ إلى الأحمر والأسود ، وجعلتْ لى الأرض مسجداً وطهوراً ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لمن كان قبلى ، ونُصرت بالرعب مسيرةَ شهر ، وأعطيتُ الشفاعة ، وليس من نبي إلا وقد سأل الشفاعة ، وإنى قد اختبأت شفاعتى ثم جعلتها لمن مات من أمتى لم يشرك بالله شيئاً » . وهذا أيضاً إسناده صحيح ، ولم أرهم خرجوه . والله أعلم . وله مثله من حديث ابن عمر بسند جيد أيضاً ، وهذا الحديث ثابت فى الصحيحين من حديث جابر بن عبد الله ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى ، نصرتُ بالرعب مسيرةَ شهر ، وجعلتْ لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلتْ لى الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيتُ الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه ، وبعثتُ إلى الناس عامةً » . وقوله " الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت " صفة الله تعالى فى قوله " رسول الله " أى : الذى أرسلنى هو خالق كل شيء وربه ومليكه ، الذى بيده الملك والإحياء والإماتة وله الحكم .

---

(١) المسند : ٧٠٦٨ . وذكره الهيثمى فى الزوائد ١٠ : ٣٦٧ ، مختصراً قليلا ، وقال : « رواه أحمد ، ورجاله ثقات » .

وقوله " فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمى " أخبرهم أنه رسول الله إليهم ، ثم أمرهم باتباعه والإيمان به " النبي الأمى " أي : الذى وعدتم به وبشرتم به فى الكتب المتقدمة ، فإنه منعوت بذلك فى كتبهم ، ولهذا قال " النبي الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته " أي : يصدق قولُه عملَه ، وهو يؤمن بما أنزل إليه من ربه " واتبعوه " أي : اسلكوا طريقه واقتفوا أثره " لعلكم تهتدون " أي : إلى الصراط المستقيم .

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩) ﴾

يقول تعالى مخبراً عن بنى إسرائيل : إن منهم طائفة يتبعون الحق ويعدلون به . كما قال تعالى : ﴿ من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾ . وقال تعالى : ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلا ، أولئك لهم أجرهم عند ربهم ، إن الله سريع الحساب﴾ . وقال تعالى : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به ، إنه الحق من ربنا ، إنا كنا من قبله مسلمين * أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ﴾ — الآية . وقال تعالى : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته ، أولئك يؤمنون به ﴾— الآية . وقال تعالى: ﴿ إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا * ويخرون للأذقان ويبكون ويزيدهم خشوعاً ﴾ .

﴿ وَقَطَّعْنَـٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ، وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ، فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ، قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ، وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَـٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ، كُلُوا مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ، وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠) وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا

هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ، سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢) ﴾

تقدم تفسير هذا كله فى سورة البقرة ، وهى مدنية ، وهذا السياق مكى ، ونبهنا على الفرق بين هذا السياق وذاك بما أغنى عن إعادته ، ولله الحمد والمنة .

﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ، كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) ﴾

هذا السياق هو بسط لقوله تعالى : ﴿ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردةً خاسئين ﴾[(١)] . يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه " واسألهم " أى : واسأل هؤلاء اليهود الذين بحضرتك ، عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله ، ففاجأتهم نقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم فى المخالفة ، وحذِّرْ هؤلاء من كتمان صفتك التى يجدونها فى كتبهم ، لئلا يحل بهم ما حل بإخوانهم وسلفهم . وهذه القرية هى أيلة وهى على شاطئ بحر القلزم . قال ابن عباس ، فى قوله " واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر " قال : هى قرية يقال لها أيلة ، بين مدين والطور . وكذا قال عكرمة ومجاهد وقتادة . وقال عبد الله بن كثير القارئُ : سمعنا أنها أيلة . وقيل : هى مدين ، وهو رواية عن ابن عباس . " إذ يعدون فى السبت " أى : يعتدون فيه ويخالفون أمر الله فيه لهم بالوصاة به إذ ذاك " إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شُرَّعاً " قال ابن عباس : أى ظاهرة على الماء. قال ابن جرير : وقوله " ويوم لا يسبتون لا تأتيهم ، كذلك نبلوهم " أى : نختبرهم بإظهار السمك لهم ظهر الماء فى اليوم المحرم عليهم صيده ، وإخفائها عنهم فى اليوم الحلال لهم صيده

(١) الآية : ٦٥ من سورة البقرة . ج ١ ص ١٦١ – ١٦٢ .

" كذلك نبلوهم " نختبرهم " بما كانوا يفسقون " يقول : بفسقهم عن طاعة الله وخروجهم عنها . وهؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التي معناها في الباطن تعاطي الحرام . وقد روى الفقيه الإمام أبو عبد الله بن بطة عن أبي هريرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا ترتكبوا ما ارتكب اليهود فتستحلوا محارمَ الله بأدنى الحيل » وإسناده جيد . ويصحح الترمذي بمثل هذا الإسناد كثيراً .

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ، قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِئِينَ (١٦٦) ﴾

يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق : فرقة ارتكبت المحذور واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت ، كما تقدم بيانه في سورة البقرة . وفرقة نهت عن ذلك وأنكرتْ واعتزلتهم . وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه ، ولكنها قالت للمُنْكِرَة " لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً " أي : لم تنهون هؤلاء وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من الله ، فلا فائدة في نهيكم إياهم ؟ قالت لهم المنكِرَة " معذرة إلى ربكم " قرأ بعضهم بالرفع ، كأنه على تقدير : هذا معذرة . وقرأ آخرون بالنصب ، أي : نفعل ذلك " معذرة إلى ربكم " أي : فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر "ولعلهم يتقون" يقولون : ولعل بهذا الإنكار يتقون ما هم فيه ويتركونه ، ويرجعون إلى الله تائبين ، فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم . قال تعالى " فلما نسوا ما ذكروا به " أي : فلما أبى الفاعلون المنكرَ قبولَ النصيحة " أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا " أي : ارتكبوا المعصية " بعذاب بئيس " فنص على نجاة الناهين وهلاك الظالمين ، وسكت عن الساكتين ،

لأن الجزاء من جنس العمل ، فهم لا يستحقون مدحاً فيُمْدَحُوا ، ولا ارتكبوا عظيماً فيُذَمُّوا ، ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم : هل كانوا من الهالكين أو من الناجين ؟ على قولين ، وقال ابن عباس : " وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً " هي قرية على شاطئ البحر بين مصر والمدينة ، يقال لها أيلة ، فحرم الله عليهم الحيتان يوم سبتهم ، وكانت الحيتان تأتيهم يوم سبتهم شُرَّعاً فى ساحل البحر ، فإذا مضى يومُ السبت لم يقدروا عليها ، فمضى على ذلك ما شاء الله ثم إن طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم ، فنهتهم طائفة وقالوا : تأخذونها وقد حرمها الله عليكم يوم سبتكم ؟! فلم يزدادوا إلا غيًّا وعتوًّا ، وجعلت طائفة أخرى تنهاهم ، فلما طال ذلك عليهم قالت طائفة من النُّهاة : تعلمون أن هؤلاء قوم قد حق عليهم العذاب " لم تعظون قوماً الله مهلكهم " وكانوا أشد غضباً لله من الطائفة الأخرى ، فقالوا " معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون " وكلٌّ قد كانوا ينهون ، فلما وقع عليهم غضب الله نجت الطائفتان اللتان قالوا : لم تعظون قوماً الله مهلكهم ، والذين قالوا : معذرة إلى ربكم ، وأهلك الله أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان فجعلهم قردة . وقال عكرمة عن ابن عباس فى الآية ، قال : ما أدرى أنجا الذين قالوا "لم تعظون قوماً الله مهلكهم " أم لا ؟ قال : فلم أزل به حتى عرفته أنهم قد نجوا ، فكسانى حلةً . وقد قدمنا فى سورة البقرة من الآثار فى خبر هذه القرية ما فيه مقنع وكفاية . ولله الحمد. القول الثانى : أن الساكتين كانوا مع الهالكين . وقوله تعالى " وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس " فيه دلالة بالمفهوم على أن الذين بقوا نجوا . « وبئيس » فيه قراءات كثيرة . ومعناه فى قول مجاهد : الشديد . وفى رواية : أليم . وقال قتادة : موجع . والكل متقارب . والله أعلم . وقوله " خاسئين " أى : ذليلين مهانين.

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَـٰمَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ، إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ ﴾

" تأذن " تفعَّل من الأذان، أى : أعْلَمَ. قاله مجاهد، وقال غيره : أمرَ، وفى قوة الكلام ما يفيد معنى القسم من هذه اللفظة، ولهذا أتبعت باللام فى قوله " ليبعثن عليهم " أى : على اليهود " إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب " أى : بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامر الله وشرعه واحتيالهم على المحارم . فيقال إن موسى عليه السلام ضرب عليهم الخراج سبع سنين ، وقيل : ثلاث عشرة سنة ، وكان أول من ضرب الخراج . ثم كانوا فى قهر الملوك من اليونانيين والكشدانيين والكلدانيين ، ثم صاروا إلى قهر النصارى وإذلالهم إياهم ، وأخذهم منهم الجزية والخراج ، ثم جاء الإسلام ومحمد صلى الله عليه وسلم ، فكانوا تحت قهره وذمته يؤدون الخراج والجزية . وقال ابن عباس : هى الجزية ، والذى يسومهم العذاب محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمته إلى يوم القيامة . وكذا قال سعيد بن جبير وابن جريج وقتادة . قلت : ثم آخر أمرهم أنهم يخرجون أنصاراً للدجال ، فيقتلهم المسلمون مع عيسى ابن مريم عليه السلام، وذلك آخر الزمان . وقوله " إن ربك لسريع العقاب " أى : لمن عصاه وخالف شرعه " وإنه لغفور رحيم " أى : لمن تاب إليه وأناب . وهذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة، لئلا يحصل اليأس، فيقرن تعالى بين الترغيب والترهيب كثيراً لتبقى النفوس بين الرجاء والخوف .

﴿ وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ، مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ، وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا ٱلْكِتَـٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ، أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ، وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

يذكر تعالى أنه فرقهم فى الأرض أمماً ، أى : طوائفَ وفرقاً . كما قال : ﴿وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً﴾ . " منهم الصالحون ومنهم دون ذلك " أى : فيهم الصالح وغير ذلك . كما قالت الجن : ﴿وأنّا منا الصالحون ومنّا دون ذلك ، كنا طرائق قدداً﴾ " وبلوناهم " أى : اختبرناهم " بالحسنات والسيئات " أى : الرخاء والشدة ، والرغبة والرهبة ، والعافية والبلاء " لعلهم يرجعون " . ثم قال تعالى " فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا ، وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه" يقول تعالى: فخلف من بعد ذلك الجيل — الذين فيهم الصالح والطالح — خلف آخر لا خير فيهم ، وقد ورثوا دراسة الكتاب ، وهو التوراة . وقال مجاهد : هم النصارى . وقد يكون أعم من ذلك " يأخذون عرض هذا الأدنى " أى : يعتاضون عن بذل الحق ونشره بعرض الحياة الدنيا ، ويسوِّفون أنفسهم ويَعِدُونها بالتوبة ، وكلما لاح لهم مِثْلُ الأول وقعوا فيه . ولهذا قال " وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه " كما قال سعيد بن جبير : يعملون الذنب ثم يستغفرون الله منه ، فإن عرض ذلك الذنب أخذوه . وقال مجاهد: لا يشرف لهم شىء من الدنيا إلا أخذوه ، حلالا كان أو حراماً ويتمنون المغفرة ، ويقولون : سيغفر لنا وإن يجدوا عرضاً مثله يأخذوه . وقال قتادة فى قوله " فخلف من بعدهم خلف " أى والله لخلف سُوء ، ورثوا الكتاب بعد أنبيائهم ورسلهم ، ورّثهم الله وعهد إليهم . وقال الله فى آية أخرى : ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات﴾ . قال " يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا " تمنّوْا على الله أمانىَّ وغرة يغترون بها " وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه " لا يشغلهم شىء عن شىء ، ولا ينهاهم شىء عن ذلك ، كلما هَفَّ لهم شىء من الدنيا أكلوه ، لا يبالون حلالاً كان أو حراماً . قال الله تعالى " ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه " يقول تعالى منكراً عليهم فى صنيعهم هذا ، مع ما أخذ عليهم الميثاق ليبينن الحق للناس كما قال تعالى : ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس

ولا تكتمونه ، فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلا فبئس ما يشترون ﴾ . قال ابن عباس : ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ، قال فيما يوجبون على الله من غفران ذنوبهم التى لا يزالون يعودون فيها ولا يتوبون منها . وقوله تعالى " والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا يعقلون "[١] . يرغبهم تعالى فى جزيل ثوابه ، ويحذرهم من وبيل عقابه . أى : وثوابى وما عندى خير لمن اتقى المحارم وترك هو نفسه وأقبل على طاعة ربه " أفلا يعقلون " يقول : أفليس لهؤلاء الذين اعتاضوا بعرض الدنيا عما عندى عقل يردعهم عما هم فيه من السفه والتبذير ؟ ! ثم أثنى تعالى على من تمسك بكتابه الذى يقوده إلى اتباع رسوله محمد صلى الله عليه وسلم كما هو مكتوب فيه ، فقال تعالى " والذين يمسكون بالكتاب " أى : اعتصموا به . واقتدوا بأوامره ، وتركوا زواجره " وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين " .

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ ، خُذُوا مَا ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ ربع

قال ابن عباس : قوله " وإذ نتقنا الجبل فوقهم " يقول : رفعناه ، وهو قوله : ﴿ ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم ﴾ .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِى ءَادَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ، قَالُوا بَلَى ، شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ ءَابَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ ، أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ ﴾

---

(١) " أفلا يعقلون " قراءة حفص – التى عليها مصاحفنا – ونافع وابن عامر " تعقلون " بالخطاب . وقرأ باقى الأربعة عشر " يعقلون " بياء الغيبة ، وهى الثابتة فى تفسير ابن كثير ، وهى التى فسر المعنى عليها .

يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بنى آدم من أصلابهم ، شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم ، وأنه لا إله إلا هو ، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه . قال تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرت الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ﴾ . وفى الصحيحين عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة – وفى رواية – على هذه الملة ، فأبواه يهوّدانه وينصرانه ويمجسانه ، كما تولد البهيمةُ بهيمةً جمعاءَ ، هل تحسون فيها من جدعاء » ، وفى صحيح مسلم عن عياض بن حِمَارٍ ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله إنى خلقت عبادى حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرَّمتْ عليهم ما أحللتُ لهم » . وروى ابن جرير عن الحسن ، عن الأسود بن سَرِيع ، من بنى سعد ، قال : « غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع غزوات ، قال : فتناول القوم الذريةَ بعد ما قتلوا المقاتِلة ، فبلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فاشتد عليه ، ثم قال : ما بال أقوام يتناولون الذرية ؟ فقال رجل : يا رسول الله ، أليسوا أبناءَ المشركين ؟ فقال : إن خيارَكم أبناءُ المشركين ، ألا إنها ليست نسمةٌ تولد إلا وُلدتْ على الفطرة ، فما تزال عليها حتى يُبَيِّن عنها لسانُها ، فأبواها يهوّدانها وينصرانها ، قال الحسن : ولقد قال الله فى كتابه " وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم " الآية» . وقد رواه الإمام أحمد والنسائى ، ولم يذكرا قولَ الحسن البصرى واستحضارَه الآية عند ذلك[١] .

وقد وردتْ أحاديثُ فى أخذ الذرّية من صلب آدم عليه السلام ، وتمييزِهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، وفى بعضها الإشهاد عليهم بأن الله ربهم روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة : أرأيتَ لو كان لك ما على الأرض

---

(١) الطبرى : ١٥٣٥٣ . وتفصيل تخريجه هناك . وقوله " ذرياتهم " هو الثابت فى المخطوطتين ، فهى القراءة التى اختارها الحافظ ابن كثير بالجمع ، وهى قراءة نافع وأبى عمرو وابن عامر . وقرأ باقى السبعة " ذريتهم " بالإفراد .

من شيء أكنتَ مفتدياً به ؟ قال : فيقول : نعم ، فيقول : قد أردتُ منك أهونَ من ذلك ، قد أخذتُ عليك فى ظهر آدم أن لا تشرك بى شيئاً ، فأبيتَ إلا أن تشرك بى » . أخرجاه فى الصحيحين .وروى الإمام أحمدعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنَعْمَانَ يومَ عرفة ، فأخرج من صلبه كل ذرّية ذرأها ، فنثرها بين يديه ، ثم كلمهم قِبَلا ، قال " ألست بربكم ، قالوا بلى ، شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين * أو تقولوا " إلى قوله " المبطلون " » . ورواه النسائى . ورواه ابن جرير وابن أبى حاتم إلا أن ابن أبى حاتم جعله موقوفاً . وأخرجه الحاكم ، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وقد احتج مسلم بكلثوم بن جَبْر : هكذا قال. و رواه آخرون عن ابن عباس موقوفاً . فهذا أكثر وأثبت . والله أعلم[1] . وروى الطبرى عن جويبر ، قال : مات ابنٌ للضحاك بن مزاحم ،ابنُ ستة أيام، قال : فقال : يا جابر ،إذا أنت وضعت ابنى فى لحده فأبرز وجهه وحل عنه عُقَدَه ، فإن ابنى مُجْلَسٌ ومسئول ، ففعلت به الذى أمر ، فلما فرغت قلت : يرحمك الله ، عما يسئل ابنك ؟ من يسأله إياه ؟ قال : يسأل عن الميثاق الذى أقرَّ به فى صلب آدم قلت : يا أبا القاسم، وما هذا الميثاق الذى أقربه فى صلب آدم ؟ قال : حدثنى ابن عباس : أن الله مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة ، فأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وتكفل لهم بالأرزاق ، ثم أعادهم فى صلبه ، فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطى الميثاق يومئذ ، فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفى به نفعه الميثاق الأول ، ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يقرَّ به لم ينفعه الميثاق الأول ، ومن مات صغيراً قبل أن يدرك الميثاق الآخر مات على الميثاق الأول ، على الفطرة »[2]. فهذه الطرق كلها مما تقوى وقف

---

(١) بين ابن كثير هنا من رووه موقوفاً على ابن عباس . والمرفوع فى المسند : ٢٤٥٥ . وقد بينا هناك أن الموقوف لا يكون علة للمرفوع ، والرفع زيادة من ثقة ، فهى مقبولة .

(٢) الطبرى : ١٥٣٥٢ . وإسناده جيد .

هذا على ابن عباس . والله أعلم[١] .

وروى الإمام أحمد عن مسلم بن يسار الجهنى : « أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية " وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرّياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى " – الآية ؟ فقال عمر بن الخطاب : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عنها ؟ فقال : إن الله خلق آدم عليه السلام ، ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية ، قال : خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية ، قال : خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون ، فقال رجل : يا رسول الله ، ففيم العمل ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا خلق الله العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة ، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة ، فيدخله به الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار ، حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار ، فيدخله به النار » . وهكذا رواه أبو داود ، والنسائى ، والترمذى ، وابن أبى حاتم ، وابن جرير ، وأخرجه ابن حبان فى صحيحه قال الترمذى : وهذا حديث حسن ، ومسلم بن يسار لم يسمع عمر . وكذلك قال أبو حاتم وأبو زرعة ، زاد أبو حاتم : وبينهما نعيم بن ربيعة[٢] . وهذا الذى قاله أبو حاتم رواه أبو داود عن مسلم بن يسار الجهنى ، عن نعيم بن ربيعة ، قال : « كنت عند عمر بن الخطاب وقد سئل عن هذه الآية " وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم " » ، فذكره . وقال الحافظ الدارقطنى : وقد تابع عمرَ بن جُعْثُمٍ يزيدُ بن سنان أبو فَرْوة الرهاوى . وقولهما أولى بالصواب من قول مالك . والله أعلم . قلت : الظاهر أن الإمام مالكاً إنما أسقط ذكر نُعيم بن ربيعة عمداً ، لما جهل حال نعيم ولم يعرفه ، فإنه غير معروف إلا فى هذا الحديث ، ولذلك يسقط ذكر جماعة ممن لا يرتضيهم . ولهذا يرسل كثيراً من المرفوعات

---

(١) وهو فى حكم المرفوع ، لأنه مما لا يعلم برأى . ثم الرفع زيادة من ثقة ، فهو مقبول .

(٢) المسند : ٣١١ . وهو فى الموطأ ٢ : ٠٩٢ والترمذى : ٤ : ١٠٧ – ١٠٨ . وصحيح ابن حبان ٢ : ٢٨٦ (من المخطوطة المصورة) . وذكره البخارى فى التاريخ الكبير ٩٦/٢/٤ – ٩٧ .

ويقطع كثيراً من الموصولات . والله أعلم . وروى الترمذى عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما خلق الله آدم مسح ظهره ، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة ، وجعل بين عينى كل إنسان منهم وبيصاً من نور ، ثم عرضهم على آدم ، فقال : أى رب ، من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء ذريتك ، فرأى رجلا منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه ، قال : أى رب ، من هذا ؟ قال : هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له : داود ، قال : رب ، وكم جعلت عمره ؟ قال : ستين سنة ، قال : أى رب ، زِدْهُ من عمرى أربعين سنة ، فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت ، قال : أو لم يبق من عمرى أربعون سنة ؟ قال : أو لم تعطها ابنك داودَ ؟ قال : فجحد آدمُ فجحدتْ ذريتُه ، ونسى آدمُ فنسيتْ ذريته ، وخطئ آدمُ فخطئتْ ذريته » . ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . ورواه الحاكم ، وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . ورواه ابن أبى حاتم فذكر نحو ما تقدم ، إلى أن قال : « ثم عرضهم على آدم ، فقال : يا آدم ، هؤلاء ذريتك ، وإذا فيهم الأجذم والأبرص والأعمى وأنواع الأسقام ، فقال آدم : يا رب ، لم فعلتَ هذا بذريتى ؟ قال : كى تشكر نعمتى ، وقال آدم : يا رب ، من هؤلاء الذين أراهم أظهر الناس نورًا ؟ قال : هؤلاء الأنبياء يا آدم من ذريتك » . ثم ذكر قصة داود كنحو ما تقدم . وعن هشام بن حكيم : « أن رجلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ، أتُبْدَأُ الأعمالُ ، أم قد قُضِىَ القضاءُ ؟ قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله قد أخذ ذرية آدم من ظهورهم ، ثم أشهدهم على أنفسهم ، ثم أفاض بهم فى كفيه ، ثم قال : هؤلاء فى الجنة ، وهؤلاء فى النار ، فأهل الجنة مُيَسَّرُون لعمل أهل الجنة ، وأهل النار ميسرون لعمل أهل النار » ، رواه ابن جرير وابن مردويه[1] .

---

(١) الطبرى : ١٥٣٧٧ . وتفصيل تخريجه هناك .

ورُوى عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغير واحد من علماء السلف سياقاتٌ توافق هذه الأحاديث ، اكتفينا بإيرادها عن التطويل فى تلك الآثار كلها . وبالله المستعان . فهذه الأحاديث دالة على أن الله عز وجل استخرج ذرية آدم من صلبه ، وميز بين أهل الجنة وأهل النار . وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم فما هو إلا فى حديث كلثوم بن جبر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وفى حديث عبد الله بن عمرو ، وقد بينا أنهما موقوفان لا مرفوعان ، كما تقدم . ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف : إن المراد بهذا الإشهاد عليهم إنما هو فَطْرُهم على التوحيد ، كما تقدم فى حديث أبى هريرة وعياض بن حمار المجاشعى ، ومن رواية الحسن البصرى عن الأسود بن سريع . وقد فسر الحسن الآية بذلك . قالوا : ولهذا قال " وإذ أخذ ربك من بنى آدم " ولم يقل من آدم " من ظهورهم " ولم يقل من ظهره " ذرياتهم " أى جعل نسلهم جيلاً بعد جيل ، وقرناً بعد قرن . كما قال تعالى : ﴿ وهو الذى جعلكم خلائف الأرض﴾ . وقال : ﴿ ويجعلكم خلفاء الأرض﴾ . وقال : ﴿ وكما أنشأكم من ذرية قوم آخرين﴾ . قال " وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ، قالوا بلى " أى : أوجدهم شاهدين بذلك قائلين له حالاً وقالاً ، والشهادة تارة تكون بالقول ، كقوله " قالوا شهدنا على أنفسنا " الآية ، وتارة تكون حالا ، كما قال : تعالى : ﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر﴾ ، أى : حالهم شاهد عليهم بذلك ، لا أنهم قائلون ذلك . وكما قال تعالى : ﴿ وإنه على ذلك لشهيد ﴾ . كما أن السؤال تارةً يكون بالمقال ، وتارةً يكون بالحال ، كما فى قوله : ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه ﴾ . قالوا : ومما يدل على أن المراد بهذا هذا : أن جعل هذا الإشهاد حجةً عليهم فى الإشراك ، فلو كان قد وقع هذا كما قاله من قاله لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه . فإن قيل : إخبار الرسول صلى الله عليه وسلم به كاف فى وجوده ؟ فالجواب : أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءت به الرسل من هذا وغيره وهذا جُعل حجةً مستقلة عليهم ، فدل على أنه الفطرة التى فطروا عليها من

الإقرار بالتوحيد . ولهذا قال " أن تقولوا " أى : لئلا تقولوا يوم القيامة " إنا كنا عن هذا " أى : التوحيد " غافلين * أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا " – الآية .

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ، فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ، ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا ، فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾

روى عبد الرزاق عن عبد الله بن مسعود ، فى قوله تعالى " واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها " – الآية ، قال : هو رجل من بنى إسرائيل ، يقال له : بلعم بن باعوراء. وقال ابن عباس: هو صيفى بن الراهب. وقال مالك بن دينار : كان من علماء بنى إسرائيل ، وكان مجاب الدعوة ، يقدمونه فى الشدائد ، بعثه نبى الله موسى عليه السلام إلى ملك مدين يدعوه إلى الله ، فأقطعه وأعطاه ، فتبع دينه وترك دين موسى عليه السلام . وروى سفيان بن عيينة عن ابن عباس : هو بلعم بن باعوراء . وكذا قال مجاهد وعكرمة . وعن عبد الله بن عمرو فى قوله " واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا » – الآية ، قال : هو صاحبكم أمية بن أبى الصات . وقد روى من غير وجه عنه ، وهو صحيح إليه . وكأنه إنما أرادأن أمية بن أبى الصلت يشبهه ، فإنه كان قد اتصل إليه علم كثير من علم الشرائع المتقدمة ، ولكنه لم ينتفع بعلمه ، فإنه أدرك زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبلغته أعلامه وآياته ومعجزاته ، وظهرت لكل من له بصيرة ، ومع هذا اجتمع به ، ولم يتبعه وصار إلى موالاة المشركين ومناصرتهم وامتداحهم ، ورثى أهل بدر من المشركين بمرثاة بليغة . قبحه الله . وقد جاء فى بعض الأحاديث : أنه ممن آمن لسانه ولم يؤمن قلبه . فإن له أشعاراً ربانية ، وحكماً وفصاحة ، ولكنه لم يشرح اللهُ صدرَه للإسلام .

وأما المشهور فى سبب نزول هذه الآية الكريمة ، فإنما هو رجل من المتقدمين فى زمن بنى إسرائيل ، كما قال ابن مسعود وغيره من السلف . وقد ورد فى معنى هذه الآية حديث رواه الحافظ أبو يعلى عن جندب البجلى : أن حذيفة يعنى ابن اليمان ،حدثه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن مما أتخوَّفُ عليكم ، رجل قرأ القرآن حتى إذا رؤيت بهجته عليه ، وكان ردْءَ الإسلام اعترّه إلى ما شاء الله ، انسلخ منه ونبذه وراء ظهره ، وسعى على جاره بالسيف ورماه بالشرك ، قال : قلت : يا نبى الله ، أيهما أولى بالشرك ، المرمىّ أو الرامى؟ قال : بل الرامى » . وإسناده جيد . وقوله تعالى " ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه " يقول تعالى " ولو شئنا لرفعناه بها " أى : لرفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات التى آتيناه إياها " ولكنه أخلد إلى الأرض " أى : مال إلى زينة الحياة الدنيا وزهرتها ، وأقبل على لذاتها ونعيمها ، وغرَّته كما غرَّتْ غيره من أولى البصائر والنهى . وقوله " فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث " قيل : معناه : فصار مثله فى ضلاله واستمراره فيه ، وعدم انتفاعه بالدعاء إلى الإيمان وعدم الدعاء ، كالكلب فى لهيثه فى حالتيه : إن حملت عليه وإن تركته ، هو يلهث فى الحالين . فكذلك هذا ، لاينتفع بالموعظة والدعوة إلى الإيمان ولا عدمه ، كما قال تعالى : ﴿ سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ﴾ . ونحو ذلك . وقيل : معناه : أن قلب الكافر والمنافق والضال ضعيف فارغ من الهدى ، فهو كثير الوجيب . فعبر عن هذا بهذا . نقل نحوه عن الحسن البصرى وغيره .

وقوله تعالى " فاقصص القصص لعلهم يتفكرون " يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم "فاقصص القصص لعلهم" أى : لعل بنى إسرائيل العالمين بحال بلعام وما جرى له فى ضلال الله إياه وإبعاده من رحمته ، بسبب أنه استعمل نعمة الله عليه فى تعليمه الاسم الأعظم — الذى إذا سئل به أعطى وإذا دعى به أجاب — فى غير طاعة ربه ، بل دعا به على حزب الرحمن ، وشعب

الإيمان ، أتباع عبده ورسوله فى ذلك الزمان ، كليم الله موسى بن عمران عليه السلام ، ولهذا قال " لعلهم يتفكرون " أى : فيحذروا أن يكونوا مثله . فإن الله قد أعطاهم علماً وميزهم على من عداهم من الأعراب ، وجعل بأيديهم صفة محمد صلى الله عليه وسلم يعرفونها كما يعرفون أبناءهم ، فهم أحق الناس وأولاهم باتباعه ومناصرته ومؤازرته ، كما أخبرتهم أنبياؤهم بذلك وأمرتهم به ، ولهذا من خالف منهم ما فى كتابه وكتمه فلم يعلم به العباد ، أحل الله به ذلاً فى الدنيا موصولا بذلّ الآخرة . وقوله " ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا " يقول تعالى : ساء مثلاً مثلُ القوم الذين كذبوا بآياتنا ، أى : ساء مثلهم أن شُبهوا بالكلاب التى لا همة لها إلا فى تحصيل أكلة أو شهوة ، فمن خرج عن حيز العلم والهدى وأقبل على شهوة نفسه واتبع هواه ، صار شبيهاً بالكلب ، وبئس المثل مثله . ولهذا ثبت فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ليس لنا مثل السَّوْء ، العائد فى هبته كالكلب يعود فى قيئه »[1]. وقوله " وأنفسهم كانوا يظلمون" أى : ما ظلمهم الله ولكن هم ظلموا أنفسهم ، بإعراضهم عن اتباع الهدى ، وطاعة المولى ، إلى الركون إلى دار البلى ، والإقبال على تحصيل اللذات وموافقة الهوى .

﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ، وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ ﴾

يقول تعالى : من هداه الله فإنه لا مضل له ، ومن أضله فقد خاب وخسر وضل لا محالة ، فإنه تعالى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. ولهذا جاء فى حديث ابن مسعود : « إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل

(١) رواه أحمد والبخارى والترمذى والنسائى ، من حديث ابن عباس . كما فى الفتح الكبير ٣ : ٦٥ . وهو فى المسند : ١٨٧٢ .

فلا هادى له ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله » – الحديث بتمامه . رواه الإمام أحمد وأهل السنن وغيرهم .

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولَـٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولَـٰئِكَ هُمُ الْغَـٰفِلُونَ (١٧٩) ﴾

يقول تعالى " ولقد ذرأنا لجهنم " أى : خلقنا وجعلنا لجهنم " كثيراً من الجن والإنس " أى : هيأناهم لها وبعمل أهلها يعملون . فإنه تعالى لما أراد أن يخلق الخلق علم ما هم عاملون قبل كونهم ، فكتب ذلك عنده فى كتاب قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، كما ورد فى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله قدَّر مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء » . وفى صحيح مسلم عن عائشة أم المؤمنين، أنها قالت : « دُعِىَ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنازة صبى من الأنصار ، فقلت : يا رسول الله ، طوبى له عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو غيرَ ذلك يا عائشة ، إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلا وهم فى أصلاب آبائهم ، وخلق النار وخلق لها أهلا وهم فى أصلاب آبائهم » . وفى الصحيحين من حديث ابن مسعود : « ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات ، فيكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أم سعيد » . وتقدم : أن الله لما استخرج ذرية آدم من صلبه وجعلهم فريقين أصحاب اليمين وأصحاب الشمال قال : « هؤلاء للجنة ولا أبالى ، وهؤلاء للنار ولا أبالى » . والأحاديث فى هذا كثيرة . ومسألة القَدَرِ كبيرةٌ ، ليس هذا موضع بسطها . وقوله تعالى "لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها " يعنى : ليس ينتفعون بشىء من هذه الجوارح التى جعلها الله سبباً للهداية ، كما قال تعالى : ﴿ وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة ، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم

ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله ﴾ — الآية ، وقال تعالى : ﴿ صم بكم عمى فهم لا يرجعون ﴾ . هذا فى حق المنافقين . وقال فى حق الكافرين ﴿ صم بكم عمى فهم لا يعقلون ﴾ . ولم يكونوا صماً وبكماً وعمياً إلا عن الهدى. كما قال تعالى : ﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولَّوْا وهم معرضون ﴾ . وقال : ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ . وقال : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين * وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ . وقوله تعالى " أولئك كالأنعام " أى : هؤلاء الذين لا يسمعون الحق ولا يَعُونَه ولا يبصرون الهدى كالأنعام السارحة ، التى لا تنتفع بهذه الحواس منها إلا فى الذى يُقيتُها من ظاهر الحياة الدنيا . كما قال تعالى: ﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ﴾ . أى : ومثلهم فى حال دعائهم إلى الإيمان كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته ، ولا تفقه ما يقول . ولهذا قال فى هؤلاء " بل هم أضل " أى : من الدواب ، لأنها قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أَبَسّ بها ، وإن لم تفقه كلامه ، بخلاف هؤلاء . ولأن الدوابّ تفعل ما خلقت له ، إما بطبعها وإما بتسخيرها ، بخلاف الكافر ، فإنه إنما خلق ليعبد الله ويوحده ، فكفر بالله وأشرك به . ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة فى معاده ، ومن كفر به من البشر كانت الدوابّ أتم منه. ولهذا قال تعالى " أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون " .

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ، وَذَرُوا ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَٰئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠) ﴾

عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لله تسعةً وتسعين اسماً، مائةً إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة ، وهو وِتْر يحب الوتر » . أخرجاه فى الصحيحين وأخرجه الترمذى مثله ، وزاد بعد قوله " يحب الوتر" — : « هو الله الذى لا إله إلا هو ، الرحمن، الرحيم ، الملك ،

القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارئ ، المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلى ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوى ، المتين ، الولى ، الحميد ، المحصى ، المبدئ ، المعيد ، المحيي ، المميت ، الحى القيوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد، الأحد ، الفرد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المقدم، المؤخر ، الأول، الآخر ، الظاهر ، الباطن، الوالى ، المتعالى ، البر ، التواب ، المنتقم ، العفو ، الرؤف ، مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام ، المقسط ، الجامع ، الغنى ، المغنى المانع الضار ، النافع ، النور ، الهادى ، البديع ، الباقى ، الوارث ، الرشيد ، الصبور » . ثم قال الترمذى : هذا حديث غريب ، وقد رُوى من غير وجهٍ عن أبى هريرة، ولا نعلم فى كبير شىء من الروايات ذكر الأسماء إلا فى هذا الحديث . ورواه ابن حبان فى صحيحه . وقد رواه ابن ماجة ، عن أبى هريرة مرفوعاً ، فسرد الأسماء كنحو مما تقدم ، بزيادة ونقصان . والذى عوّل عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء فى هذا الحديث مُدْرَج فيه ، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعانى عن زهير بن محمد : أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك . أى : أنهم جمعوها من القرآن . كما روى عن جعفر بن محمد وسفيان بن عيينة وأبى زيد اللغوى . والله أعلم . ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى غير منحصرة فى التسعة والتسعين . بدليل ما رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « ما أصاب أحداً قطُّ همٌّ ولا حَزَن فقال : اللهم إنى عبدك ابنُ عبدك ابنُ أمتك، ناصيتى بيدك ، ماضٍ فىَّ حكمُك، عدلٌ فىّ قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميتَ به نفسك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو أنزلته فى كتابك ،

أو استأثرتَ به فى علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآنَ ربيعَ قلبى ، ونورَ صدرى ، وجلاءَ حزنى ، وذهابَ همى ، إلا أذهب الله همه وحزنه ، وأبدله مكانَه فرحاً ، فقيل : يا رسول الله ، أفلا نتعلمها ؟ فقال : بلى ، ينبغى لمن سمعها أن يتعلمها » . وقد أخرجه الإمام أبو حاتم بن حبان البستى فى صحيحه بمثله .

وذكر الفقيه الإمام أبو بكر بن العربى أحد أئمة المالكية فى كتابه الأحوذى فى شرح الترمذى : أن بعضهم جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم . فالله أعلم . وقال ابن عباس فى قوله تعالى " وذروا الذين يلحدون فى أسمائه " قال : إلحاد الملحدين أن دَعَوُا اللاتَ فى أسماء الله . وقال مجاهد " وذروا الذين يلحدون فى أسمائه " قال : اشتقوا اللاتَ من الله ، والعُزَّى من العزيز . وقال قتادة : يلحدون ، يشركون فى أسمائه . وعن ابن عباس : الإلحاد التكذيب . وأصل الإلحاد فى كلام العرب : العدول عن القصد ، والميل والجور والانحراف ، ومنه اللحد فى القبر ، لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر .

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ ﴾

يقول تعالى " وممن خلقنا " أى : بعض الأمم " أمة " قائمة بالحق قولا وعملا " يهدون بالحق " يقولونه ويدعون إليه " وبه يعدلون " يعملون ويقضون . وقد جاء فى الآثار أن المراد بهذه الأمة المذكورة فى الآية هى هذه الأمة المحمدية . قال قتادة فى تفسير هذه الآية : بلغنا : « أن نبى الله صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا قرأ هذه الآية : هذه لكم ، وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها ﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ » . عن الربيع بن أنس فى قوله تعالى " وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون " قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من أمتى قوماً على الحق حتى ينزل عيسى بن مريم متى ما نزل » . وفى الصحيحين عن معاوية بن أبى سفيان ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم ، حتى تقوم الساعة » .

وفى رواية : « حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك » . وفى رواية : « وهم بالشام » .

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ ﴾

يقول تعالى " والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون " ومعناه : أنه يفتح لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش فى الدنيا ، حتى يغتروا بما هم فيه ، ويعتقدوا أنهم على شىء . كما قال تعالى: ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون * فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين ﴾. ولهذا قال تعالى " وأملى لهم " أى: أطول لهم ما هم فيه « إن كيدى قوى متين " أى : شديد.

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ، إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ ﴾

يقول تعالى " أو لم يتفكروا " هؤلاء المكذبون بآياتنا " ما بصاحبهم " يعنى : محمد صلوات الله وسلامه عليه " من جنة " أى : ليس به جنون ، بل هو رسول الله حقًّا دعا إلى حق " إن هو إلا نذير مبين " أى : ظاهر لمن كان له لبّ وقلب يعقل به ويعى به. كما قال تعالى: ﴿ وما صاحبكم بمجنون ﴾. وقال تعالى : ﴿ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ، ما بصاحبكم من جنة ، إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد ﴾ ، يقول : إنما أطلب منكم أن تقوموا قياماً خالصاً لله ، ليس فيه تعصب ولا عناد ، مثنى وفرادى ، أى : مجتمعين ومتفرقين ، ثم تتفكروا فى هذا الذى جاءكم بالرسالة من الله ، به جنون أم لا؟ فإنكم إذا فعلتم ذلك بان لكم وظهر أنه رسول الله حقًّا وصدقاً. وقال قتادة: ذُكر لنا أن نبى الله صلى الله عليه وسلم كان على الصفا ، فدعا قريشاً، فجعل يفخِّذهم فخذاً فخذاً: يا بنى فلان يا بنى فلان ، فحذرهم بأس الله ووقائع الله ، فقال قائلهم : إن صاحبكم هذا لمجنون ، بات يصوتُ إلى الصباح ، أو حتى أصبح ، فأنزل الله تعالى " أوَ لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة ، إن هو إلا نذير مبين " .

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ، فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) ﴾

يقول تعالى : أو لم ينظر هؤلاء المكذبون بآياتنا فى ملك الله وسلطانه فى السموات والأرض ، وفيما خلق من شىء فيهما ، فيتدبروا ذلك ويعتبروا به ، ويعلموا أن ذلك لمن لا نظير له ولا شبيه ، ومِنْ فِعْلِ مَنْ لا ينبغى أن تكون العبادة والدين الخالص إلا له ، فيؤمنوا به ويصدقوا رسوله وينيبوا إلى طاعته ، ويخلعوا الأنداد والأوثان ، ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت ، فيهلكوا على كفرهم ، ويصيروا إلى عذاب الله وأليم عقابه . وقوله " فبأى حديث بعده يؤمنون " يقول : فبأى تخويف وتحذير وترهيب بعد تحذير محمد صلى الله عليه وسلم وترهيبه الذى أتاهم به من عند الله فى آى كتابه يصدقون ، إن لم يصدقوا بهذا الحديث الذى جاءهم به محمد من عند الله عز وجل ؟ ثم قال تعالى :

﴿ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ، وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦) ﴾

يقول تعالى من كتب عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد ، ولو نظر لنفسه فيما نظر فإنه لا يجزى عنه شيئاً " ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً " وكما قال تعالى : ﴿ قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ، وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ، لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ، ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ، يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧) ﴾

يقول تعالى " يسألونك عن الساعة " كما قال تعالى : ﴿ يسألك الناس عن

الساعة ﴾ . فقيل : نزلت فى قريش ، وقيل : فى نفر من اليهود، والأول أشبه ، لأن الآية مكية ، فكانوا يسألون عن وقت الساعة استبعاداً لوقوعها وتكذيباً بوجودها . كما قال تعالى : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ . وقال تعالى : ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ، والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ، ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد ﴾ . وقوله " أيان مرساها " قال ابن عباس : منتهاها ، أى : متى محطها وأيان آخر مدة الدنيا الذى هو أول وقت الساعة " قل إنما علمها عند ربى ، لا يجليها لوقتها إلا هو " أمر تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم إذا سئل عن وقت الساعة أن يرد علمها إلى الله تعالى ، فإنه هو الذى يجليها لوقتها ، أى : يعلم جلية أمرها ومتى يكون على التحديد ، لا يعلم ذلك إلا هو تعالى . ولهذا قال " ثقلت فى السموات والأرض " قال قتادة : ثقل علمها على أهل السموات والأرض ، إنهم لا يعلمون . قال الحسن : إذا جاءت ثقلت على أهل السموات والأرض ، يقول : كبرت عليهم . وقال الضحاك عن ابن عباس فى قوله " ثقلت فى السموات والأرض " قال : ليس شىء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة . وقال ابن جريج : إذا جاءت انشقت السماء وانتثرت النجوم وكورت الشمس وسيرت الجبال ، وكان ما قال الله عز وجل ، فذلك ثقلها ، واختار ابن جرير رحمه الله : أن المراد ثقل علم وقتها على أهل السموات والأرض كما قال قتادة . وهو كما قالاه ، لقوله تعالى " لا تأتيكم إلا بغتة ". ولا ينفى ذلك ثقل مجيئها على أهل السموات والأرض . والله أعلم . وقال السدى : يقول : خفيت فى السموات والأرض، فلا يعلم قيامها حين تقوم ملك مقرب ولا نبى مرسل " لا تأتيكم إلا بغتة " قال : يبغتهم قيامها ، تأتيهم على غفلة . وروى البخارى عن أبى هريرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعون . فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً ، ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ،

ولتقومَنَّ الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ، ولتقومَنَّ الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقى فيه ، ولتقومَنَّ الساعة والرجل قد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها » . وروى مسلم عن أبى هريرة ، يبلغ به ، قال : « تقوم الساعة والرجل يحلب لقحته فما يصل الإناء إلى فيه حتى تقوم الساعة ، والرجلان يتبايعان الثوب فما يتبايعانه حتى تقوم الساعة ، والرجل يلوط حوضه فما يصدر حتى تقوم » . وقوله "يسألونك كأنك حفى عنها" اختلف المفسرون فى معناه : فقيل : معناه كما قال ابن عباس " يسألونك كأنك حفى عنها " يقول : كأن بينك وبينهم مودّة ، كأنك صديق لهم ، قال ابن عباس : لما سأل الناس محمداً صلى الله عليه وسلم عن الساعة ، سألوه سؤال قوم كأنهم يرون أن محمداً حفى بهم ، فأوحى الله إليه إنما علمها عنده ، استأثر به فلم يطلع الله عليها ملكاً مقرباً ولا رسولاً . وقال قتادة : قالت قريش لمحمد صلى الله عليه وسلم : إن بيننا وبينك قرابة ، فأسرَّ إلينا متى الساعة ، فقال الله عز وجل " يسألونك كأنك حفى عنها " . وكذلك روى عن مجاهد وعكرمة وأبى مالك والسدى . هذا قول. والصحيح عن مجاهد قال : استحفيتَ عنها السؤال حتى علمتَ وقتها . وكذا قال الضحاك عن ابن عباس يقول : كأنك عالم بها ، لستَ تعلمها " قل إنما علمها عند الله " وقال معمر عن بعضهم " كأنك حفى عنها " : كأنك عالم بها . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم " كأنك حفى عنها " — : كأنك بها عالم وقد أخفى الله علمها على خلقه ، وقرأ ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ — الآية . وهذا القول أرجح فى المعنى من الأول . والله أعلم . ولهذا قال " قل إنما علمها عند الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون " . ولهذا لما جاء جبريل عليه السلام فى صورة أعرابى ليعلم الناس أمر دينهم فجلس من رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلس السائل المسترشد ، وسأله صلى الله عليه وسلم عن الإسلام ثم عن الإيمان ثم عن الإحسان ، ثم قال : « فمتى الساعة ؟ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما المسئول عنها بأعلم من السائل » . أى : لستُ أعلمَ بها منك ، ولا أحدَ أعلمُ بها من أحد ، ثم قرأ النبى صلى الله عليه وسلم : ﴿ إن الله عنده

علم الساعة﴾ — الآية . وفى رواية : « فسأله عن أشراط الساعة » فبين له أشراط الساعة ، ثم قال : فى خمس لا يعلمهن إلا الله ، وقرأ هذه الآية » . وفى هذا كله يقول له بعد كل جواب «صدقتَ »، ولهذا عجب الصحابة من هذا السائل يسأله ويصدقه ، ثم لما انصرف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمرَ دينكم » . وفى رواية ، قال : « وما أتانى فى صورة إلا عرفته فيها إلا صورته هذه » . ولما سأله ذلك الأعرابى وناداه بصوت جهورى : « فقال : يا محمد ، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : هاؤم ، على نحو من صوته ، قال : يا محمد ، متى الساعة ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ويحك إن الساعة آتية ، فما أعددتَ لها ؟ قال : ما أعددتُ لها كبيرَ صلاةٍ ولا صيام ، ولكنى أحب الله ورسوله ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: المرء مع من أحب ، فما فرح المسلمون بشىء فرحهم بهذا الحديث» . وهذا له طرق متعددة فى الصحيحين وغيرهما عن جماعة من الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « المرء مع من أحب » . وهى متواترة عند كثير من الحفاظ المتقنين . ففيه أنه عليه السلام كان إذا سئل عن هذا الذى لا يحتاجون إلى علمه أرشدهم إلى ما هو الأهم فى حقهم ، وهو الاستعداد لوقوع ذلك والتهيؤ له قبل نزوله ، وإن لم يعرفوا تعيين وقته . ولهذا روى مسلم عن عائشة قالت : « كانت الأعراب إذا قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم سألوه عن الساعة ، متى الساعة ؟ فينظر إلى أحدث أسنانٍ منهم فيقول : إن يَعِشْ هذا لم يدركه الهرم قامت عليكم ساعتكم » . يعنى بذلك موتَهم الذى يفضى بهم إلى الحصول فى برزخ الدار الآخرة . ثم روى مسلم عن أنس : « أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الساعة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن يعش هذا الغلام فعسى أن لا يدركه الهرم حتى تقوم الساعة » . انفرد به مسلم . وعن أنس بن مالك : « أن رجلاً سأل النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : متى الساعة ؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم هنيهة ، ثم نظر إلى غلام بين يديه من أزد شنوءة ، فقال : إن

عُمِّرَ هذا لم يدركه الهرم حتّى تقوم الساعة ، قال أنس : ذلك الغلام من أترابى ». وروَى عن أنس قال : « مر غلام للمغيرة بن شعبة ، وكان من أترابى ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن يؤخَّرْ هذا لم يدركه الهرم حتّى تقوم الساعة » . ورواه البخاري عن أنس : « أن رجلا من أهل البادية قال : يا رسول الله ، متى الساعة ؟ — فذكر الحديث — وفى آخره : « فمر غلام للمغيرة بن شعبة » . وذكره . وهذا الإطلاق فى هذه الروايات محمول على التقييد بساعتكم فى حديث عائشة . وعن جابر بن عبد الله : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قبل أن يموت بشهر : تسألونى عن الساعة ، وإنما علمها عند الله ، وأقسم بالله ما على ظهر الأرض اليوم من نفس منفوسة تأتى عليها مائة سنة »، رواه مسلم وفى الصحيحين عن ابن عمر مثله ، قال ابن عمر : « وإنما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم انخرامَ ذلك القرن » . وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « لقيتُ ليلة أسرى بى إبرهيم وموسى وعيسى ، فتذاكروا أمر الساعة ، قال : فردوا أمرهم إلى إبرهيم عليه السلام ، فقال : لا علم لى بها ، فردوا أمرهم إلى موسى ، فقال : لا علم لى بها ، فردوا أمرهم إلى عيسى ، فقال عيسى : أما وَجْبَتُها فلا يعلم بها أحد إلا الله عز وجل ، وفيما عهد إلى ربى عز وجل أن الدجال خارج ، قال : ومعى قضيبان ، فإذا رآنى ذاب كما يذوب الرصاص ، قال : فيهلكه الله عز وجل إذا رآنى ، حتى إن الشجر والحجر يقول : يا مسلم ، إن تحتى كافراً فتعال فاقتله ، قال : فيهلكهم الله عز وجل ، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم ، قال : فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ، فيطؤون بلادهم ، لا يأتون على شىء إلا أهلكوه ، ولا يمرون على ماء إلا شربوه ، قال : ثم يرجع الناس إلىّ فيشكونهم ، فأدعو الله عز وجل عليهم فيهلكهم ويميتهم ، حتى تجوى الأرض من نتن ريحهم ، أى : تنتن ، قال : فينزل الله عز وجل المطر فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم فى البحر » ، قال الإمام أحمد : قال يزيد ابن هارون : « ثم تنسف الجبال وتمد الأرض مد الأديم » — ثم رجع إلى حديث

هشيم ، قال : " ففيما عهد إلىّ ربى عز وجل أن ذلك إذا كان كذلك ، فإن الساعة كالحامل المُتِم لا يدرى أهلها متى تفجأهم بولادها ليلا أو نهاراً » ورواه ابن ماجة نحوه[١] . فهؤلاء أكابر أولى العزم من المرسلين ليس عندهم علم بوقت الساعة على التعيين ، وإنما ردوا الأمر إلى عيسى عليه السلام ، فتكلم على أشراطها ، لأنه ينزل فى آخر هذه الأمة منفذاً لأحكام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقتل المسيح الدجال ، ويجعل الله هلاك يأجوج ومأجوج ببركة دعائه . فأخبر بما أعلمه الله تعالى به . وروى الإمام أحمد عن حذيفة ، قال : " سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الساعة ؟ فقال : علمها عند ربى ، لا يجليها لوقتها إلا هو ، ولكن سأخبركم بمشاريطها وما يكون بين يديها ، إن بين يديها فتنة وهَرْجاً ، قالوا : يا رسول الله ، الفتنة قد عرفناها ، فما الهرج ؟ قال : بلسان الحبشة : القتل ، قال : ويبقى بين الناس التناكر ، فلا يكاد أحد يعرف أحداً ، لم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة من هذا الوجه . وعن طارق بن شهاب ، قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يزال يذكر من شأن الساعة ، حتى نزلت " يسألونك عن الساعة أيان مرساها " ، الآية » . ورواه النسائى . وإسناده جيد قوى . فهذا النبى الأمى سيد الرسل وخاتمهم محمد صلوات الله عليه وسلامه ، نبى الرحمة ، ونبى التوبة ، ونبى الملحمة ، والعاقب والمقفى ، والحاشر الذى تحشر الناس على قدميه ، مع قوله فيما ثبت عنه فى الصحيح من حديث أنس وسهل بن سعد : « بُعثتُ أنا والساعة كهاتين ، وقرن بين أصبعيه : السبابة والتى تليها » . ومع هذا كله قد أمره الله أن يرد علم وقت الساعة إليه إذا سئل عنها ، فقال : " قل إنما علمها عند الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون " .

﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ، وَلَوْ كُنتُ

---

(١) المسند : ٣٥٥٦ . وابن ماجة : ٤٠٨١ . ورواه أيضاً الحاكم فى المستدرك ٤ : ٤٨٨ — ٤٨٩ ، و ٥٤٥ — ٥٤٦ . وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » . ووافقه الذهبى .

أَعْلَمُ الغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوءُ ، إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨) ﴾

أمره الله تعالى أن يفوّض الأمور إليه ، وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب المستقبل ، ولا اطلاع له على شيء من ذلك إلا ما أطلعه الله عليه . كما قال تعالى : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً * إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ﴾ . وقوله " ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير " قال مجاهد : لو كنت أعلم متى أموت لعملتُ عملاً صالحاً . وقال مثله ابنُ جريج . وفيه نظر ، لأن عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ديمةً ، وفي رواية ، كان إذا عمل عملاً أثبته . فجميع عمله كان على منوال واحد ، كأنه ينظر إلى الله عز وجل فى جميع أحواله . اللهم إلا أن يكون المراد أن يرشد غيره إلى الاستعداد لذلك . والله أعلم . والأحسن فى هذا ما رواه الضحاك عن ابن عباس " ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير " أى : من المال ، وفى رواية : لعلمتُ إذا اشتريتُ شيئاً ما أربح فيه ، فلا أبيع شيئاً إلا ربحت فيه ولا يصيبنى الفقر . وقال ابن جرير : وقال آخرون : معنى ذلك : لو كنت أعلم الغيب لأعددتُ للسنة المجدبة من المخصبة ، ولوقت الغلاء من الرخص فاستعددت له من الرخص . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم " وما مسنى السوء " قال : لاجتنبت ما يكون من الشر قبل أن يكون واتقيته . ثم أخبر أنه إنما هو نذير وبشير ، أى : نذير من العذاب وبشير للمؤمنين بالجنات . كما قال تعالى : ﴿ فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لُدًّا ﴾ .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ، فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ ، فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (١٨٩) ربع

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ، فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾

ينبه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم عليه السلام ، وأنه خلق منه زوجته حواء ، ثم انتشر الناس منهما . كما قال تعالى : ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ . قال تعالى: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً﴾ — الآية، وقال فى هذه الآية الكريمة " وجعل منها زوجها ليسكن إليها " أى : ليألفها ويسكن بها ، كما قال تعالى : ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ . فلا ألفة بين روحين أعظم مما بين الزوجين . ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيده إلى التفرقة بين المرء وزوجه " فلما تغشاها " أى : وطئها " حملت حملاً خفيفاً " وذلك أول الحمل ، لا تجد المرأة له ألماً ، إنما هى النطفة ثم العلقة ثم المضغة . وقوله " فمرت به " قال مجاهد : استمرت بحمله . وقال أيوب : سألت الحسن عن قوله " فمرت به " ؟ قال : لو كنت رجلا عربياً لعرفتَ ما هى ، إنما هى : فاستمرت به . وقال ابن جرير : معناه : استمرت بالماء ، قامت به وقعدت . " فلما أثقلت" أى : صارت ذات ثقل بحملها . وقال السدى : كبر الولد فى بطنها " دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً " أى : بشراً سوياً كما قال ابن عباس: أشفقا أن يكون بهيمةً . ذكر المفسرون ههنا آثاراً وحديثاً ، سأوردها وأبين ما فيها ، ثم نتبع ذلك ببيان الصحيح فى ذلك ، إن شاء الله ، وبه الثقة . قال الإمام أحمد فى مسنده : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا عمر بن إبرهيم ، حدثنا قتادة ، عن الحسين ، عن سمرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « لما ولدت حواء طاف بها إبليس ، وكان لا يعيش لها ولد ، فقال : سميه عبدَ الحرث ، فإنه يعيش ، فسمته عبد الحرث ، فعاش ، وكان ذلك من وحى الشيطان

وأمره » . ورواه ابن جرير ، والترمذى ، وقال : هذا حديث حسن غريب ، لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبرهيم ، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه . ورواه الحاكم مرفوعاً ، ثم قال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . ورواه الإمام أبو محمد بن أبى حاتم مرفوعاً . وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه . والغرض أن هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه : أحدها : أن عمر ابن إبرهيم هذا : هو البصرى ، وقد وثقه ابن معين ، ولكن قال أبو حاتم الرازى : لا يحتج به ولكن رواه ابن مردويه من حديث المعتمر عن أبيه عن الحسن عن سمرة مرفوعاً . فالله أعلم . الثانى : أنه قد روى من قول سمرة نفسه ليس مرفوعاً ، كما روى ابن جرير عن سمرة بن جندب ، قال : سمى آدم ابنه عبد الحرث . الثالث : أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا ، فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعاً لما عدل عنه . روى ابن جرير عن الحسن " جعلا له شركاء فيما آتاهما " قال : كان هذا فى بعض أهل الملل ، ولم يكن بآدم . وقال الحسن : عنى بها ذرية آدم ومن أشرك منهم بعده ، يعنى " جعلا له شركاء فيما آتاهما " وكان الحسن يقول : هم اليهود والنصارى ، رزقهم الله أولاداً فهوّدوا ونصروا . أسانيدها صحيحة عن الحسن : أنه فسر الآية بذلك وهو من أحسن التفاسير ، وأولى ما حملت عليه الآية . ولو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما عدل هو ولا غيره عنه ، لا سيما مع تقواه الله وورعه . فهذا يدلك على أنه موقوف على الصحابى ، ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب ، مَنْ آمن منهم ، مثل كعب أو وهب بن منبه وغيرهما ، كما سيأتى بيانه إن شاء الله ، إلا أننا برئنا من عهدة المرفوع . والله أعلم ، وأما الآثار فروى ابن إسحق ، عن ابن عباس ، قال : كانت حواء تلد لآدم عليه السلام أولاداً فيعبّدهم لله ، ويسميهم عبدَ الله وعُبيدَ الله ونحو ذلك ، فيصيبهم الموت ، فأتاها إبليس وآدمَ فقال : إنكما لو سميّاه بغير الذى تسميانه به لعاش ، قال : فولدت له رجلا فسماه عبدَ الحرث ، ففيه أنزل الله ، يقول الله " وهو الذى خلقكم من نفس واحدة " إلى قوله " جعلا

له شركاء فيما آتاهما " إلى آخر الآية . وقد تلقى هذا الأثرَ عن ابن عباس جماعة من أصحابه ، كمجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة ، ومن الطبقة الثانية قتادة والسدى ، وغيرُ واحد من السلف ، وجماعةٌ من الخلف ، ومن المفسرين من المتأخرين جماعاتٌ لا يحصون كثرةً . وكأنه — والله أعلم — أصلُه مأخوذ من أهل الكتاب ، فإن ابن عباس رواه عن أبيّ بن كعب ، كما رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس ، عن أبيّ بن كعب ، قال : لما حملت حواء أتاها الشيطان ، فقال لها: أتطيعيني ويَسْلَمُ لكِ ولدك ؟ سميه عبدَ الحرث، فلم تفعل ، فولدت فمات ، ثم حملت فقال لها مثل ذلك ، فلم تفعل ، ثم حملت الثالثة، فجاءها فقال: إن تطيعيني يَسْلَمْ ، وإلا فإنه يكون بهيمةً! فهيبهما فأطاعا . وهذه الآثار يظهر عليها — والله أعلم — أنها من آثار أهل الكتاب .

وقد صح الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا حدّثكم أهل الكتاب فلا تصدّقوهم ولا تكذبوهم » . ثم أخبارُهم على ثلاثة أقسام : فمنها ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله ، ومنها ما علمنا كذبه بما دل على خلافه من الكتاب والسنة أيضاً ، ومنها ما هو مسكوت عنه ، فهو المأذون فى روايته بقوله عليه السلام : « حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج» . وهو الذى لا يصدّق ولا يكذّب لقوله « لا تصدقوهم ولاتكذبوهم » وهذا الأثر هل هو من القسم الثانى أو الثالث ؟ فيه نظر . فأما من حدث به من صحابى أو تابعى فإنه يراه من القسم الثالث . وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصرى فى هذا ، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدمَ وحواءَ ، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته . ولهذا قال الله "فتعالى الله عما يشركون" . فذكر آدم وحواء أولاً كالتوطئة لما بعدها من الوالدين، وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس ، كقوله : ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ — الآية . والمعلوم أن المصابيح — وهى النجوم التى زينت بها السماء — ليست هى التى يُرْمَى بها ، وإنما هذا استطراد من شخص المصابيح إلى جنسها . ولهذا نظائر فى القرآن . والله أعلم .

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ، سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ، أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ، أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ، أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا ، وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴾

هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأنداد والأصنام والأوثان ، وهى مخلوقة لله مربوبة مصنوعة ، لا تملك شيئاً من الأمر ، ولا تضر ولا تنفع ، ولا تبصر ولا تنتصر لعابديها ، بل هى جماد لا تتحرك ولا تسمع ولا تبصر ، وعابدوها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم . ولهذا قال" أيشركون ما لا يَخلق شيئاً وهم يُخلقون" أى : أيُشركون به من المعبودات مالا يخلق شيئاً ولا يستطيع ذلك . كما قال تعالى : « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب * ما قدروا الله حق قدره ، إن الله لقوى عزيز » . أخبر تعالى أنه لو اجتمعت آلهتهم كلها ما استطاعوا خلق ذبابة ، بل لو سلبتهم الذبابة شيئاً من حقير المطاعم وطارت لما استطاعوا إنقاذه منها . فمن هذه صفته وحاله كيف يعبد ليرزق ويستنصر؟! ولهذا قال تعالى " لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون " أى : بل هم مخلوقون مصنوعون . كما قال الخليل : ﴿أتعبدون ما تنحتون * والله خلقكم وما تعملون﴾ . ثم قال تعالى

" ولا يستطيعون لهم نصرًا " أى : لعابديهم " ولا أنفسهم ينصرون " يعنى : ولا أنفسهم ينصرون ممن أرادهم بسوء . كما كان الخليل يكسر أصنام قومه ويهينها غاية الإهانة ، كما أخبر تعالى عنه فى قوله: ﴿ فراغ عليهم ضرباً باليمين ﴾ . وقال تعالى: ﴿ فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون ﴾ . وكما كان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل – وكانا شابين قد أسلما لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة – فكانا يعدوان فى الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتلفانها ويتخذانها حطباً للأرامل ، ليعتبر قومهما بذلك ويرتؤوا لأنفسهم ، فكان لعمرو بن الجموح – وكان سيداً فى قومه – صنم يعبده ويطيبه ، فكانا يجيئان فى الليل فينكسانه على رأسه ويلطخانه بالعذرة ، فيجىء عمرو بن الجموح فيرى ما صُنع به ، فيغسله ويطيبه ، ويضع عنده سيفاً ويقول : له : انتصر !! ثم يعودان لمثل ذلك ، ويعود إلى صنيعه أيضاً ، حتى أخذاه مرة فقرنا معه جرْوَ كلب ميت ، ودلياه فى حبل فى بئر هناك ! فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك ، نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل . ثم أسلم فحسن إسلامه ، وقتل يوم أحد شهيداً ، رضى الله عنه وأرضاه ، وجعل جنة الفردوس مأواه.

وقوله " وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم ، سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون " يعنى : أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها ، وسواءٌ لديها من دعاها ومن دحاها . كما قال إبرهيم : ﴿ يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً ﴾ . ثم ذكر تعالى أنها عبيد مثل عابديها ، أى : مخلوقات مثلهم ، بل الأناسيّ أكمل منها ، لأنها تسمع وتبصر وتبطش ، وتلك لا تفعل شيئاً من ذلك . وقوله " قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون " أى : استنصروا بها علىّ ، فلا تؤخرونى طرفة عين ، واجهدوا جهدكم " إن وليي الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين " أى : الله حسبي وكافيني ، وهو نصيرى ، وعليه متكلى ، وإليه ألجأ ، وهو وليي فى الدنيا والآخرة ، وهو ولى كل صالح بعدى . وهذا كما قال هود عليه السلام ، لما قال له قومه " إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ، قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون*

من دونه ، فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون* إنى توكلت على الله ربى وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم ﴾ . وكقول الخليل : ﴿أفرأيتم ما كنتم تعبدون*أنتم وآباؤكم الأقدمون* فإنهم عدو لى إلا رب العالمين* الذى خلقنى فهو يهدين﴾ — الآيات ، وكقوله لأبيه وقومه : ﴿ إننى براء مما تعبدون * إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين * وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون ﴾ . وقوله " والذين تدعون من دونه " — إلى آخر الآية — مؤكد لما تقدم ، إلا أنه بصيغة الخطاب وذاك بصيغة الغيبة . ولهذا قال " لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون " . وقوله " وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا ، وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون " كقوله تعالى " إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم " — الآية . وقوله " وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون " إنما قال " ينظرون إليك " أى : يقابلونك بعيون مصورة كأنها ناظرة ، وهى جماد . ولهذا عاملهم معاملة من يعقل ، لأنها على صورة مصورة كالإنسان فقال "وتراهم ينظرون إليك " فعبر عنها بضمير من يعقل . وقال السدى : المراد بهذا المشركون . وروى عن مجاهد نحوه . والأول أولى ، وهو اختيار ابن جرير ، وقاله قتادة .

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ، إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾

قال ابن عباس : قوله " خذ العفو " يعنى : خذ ما عفا لك من أموالهم ، وما أتوك به من شىء فخذه ، وكان هذا قبل أن تنزل براءة بفرائض الصدقات وتفصيلها وما انتهت إليه الصدقات . وقاله السدى . وقال الضحاك عن ابن عباس " خذ العفو " — أنفق الفضل . وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس " خذ العفو " قال : الفضل . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله " خذ العفو " — أمره الله بالعفو والصفح عن المشركين عشر سنين ، ثم أمره بالغلظة عليهم . واختار هذا القول ابن جرير . وقال غير واحد عن مجاهد فى

قوله " خذ العفو " قال : أخلاق الناس وأعمالهم بغير تجسيس . وقال هشام ابن عروة عن أبيه : أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يأخذ العفو من أخلاق الناس وفى رواية قال خذ ما عفا لك من أخلاقهم . وفى صحيح البخارى عن عبد الله بن الزبير ، قال : إنما أنزل خذ العفو من أخلاق الناس . وفى رواية سعيد بن منصور عن أبى الزبير : " خذ العفو " قال : من أخلاق الناس ، والله لآخذنه منهم ما صحبتهم . وهذا أشهر الأقوال . وقال البخارى : قوله " خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين " — العرف المعروف . ثم روى أن ابن عباس قال : " قدم عُيينة بن حِصْن بن حذيفة ، فنزل على ابن أخيه الحُرِّ بن قيس ، وكان من النفر الذين يُدنيهم عمر ، وكان القراءُ أصحابَ مجالس عمر ومشاورته ، كهولاً كانوا أو شبَّاناً ، فقال عيينة لابن أخيه : يا بن أخى ، لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لى عليه ، قال : سأستأذن لك عليه ، قال ابن عباس : فاستأذن الحُرُّ لعيينة فأذن له عمر ، فلما دخل قال : هى يا بن الخطاب ! فوالله ما تعطينا الجزلَ ، ولا تحكم بيننا بالعدل !! فغضب عمر حتى هم أن يوقع به ، فقال له الحر : يا أمير المؤمنين ، إن الله قال لنبيه صلى الله عليه وسلم " خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين" وإن هذا من الجاهلين ! والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه ، وكان وقَّافاً عند كتاب الله عز وجل . انفرد بإخراجه البخارى . وروى ابن أبى حاتم : أن سالم بن عبد الله بن عمر مر على عِيرٍ لأهل الشام وفيها جرس ، فقال : إن هذا منهى عنه ، فقالوا : نحن أعلم بهذا منك ، إنما يكره الجُلْجُل الكبير فأما مثل هذا فلا بأس به ! فسكت سالم وقال " وأعرض عن الجاهلين " . وقول البخارى « العرف : المعروف » — نص عليه عروة بن الزبير والسدى وقتادة وابن جرير وغير واحد . وحكى ابن جرير أنه يقال : أوليته معروفاً وعارفاً وعارفةً ، كل ذلك بمعنى المعروف . قال : وقد أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأمر عباده بالمعروف ، ويدخل فى ذلك جميع الطاعات ، وبالإعراض عن الجاهلين ، وذلك وإن كان أمراً لنبيه صلى الله عليه وسلم فإنه تأديب لخلقه ،

باحتمال من ظلمهم واعتدى عليهم ، لا بالإعراض عمن جهل الحقَّ الواجبَ من حق الله ، ولا بالصفح عمن كفر بالله وجهل وحدانيته وهو للمسلمين حرب.

وقال بعض العلماء : الناس رجلان : فرجل محسن ، فخذ ما عفا لك من إحسانه ، ولا تكلفه فوق طاقته ولا ما يحرجه ، وإما مسيء ، فمره بالمعروف ، فإن تمادى على ضلاله واستعصى عليك واستمر فى جهله فأعرض عنه ، فلعل ذلك أن يرد كيده ، كما قال تعالى : ﴿ ادفع بالتى هى أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون * وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين * وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾ . أى : هذه الوصية ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ، إنه هو السميع العليم ﴾ . وقال فى هذه السورة الكريمة أيضاً " وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم " فهذه الآيات الثلاث — فى الأعراف والمؤمنون وحم السجدة — لا رابع لهنَّ ، فإنه تعالى يرشد فيهن إلى معاملة العاصى من الإنس بالمعروف والتى هى أحسن ، فإن ذلك يكفه عما هو فيه من التمرد بإذنه تعالى ، ولهذا قال : ﴿ فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ﴾ ، ثم يرشد تعالى إلى الاستعاذة به من شيطان الجان ، فإنه لا يكفيه منك الإحسان ، وإنما يريد هلاككك ودمارك بالكلية ، فإنه عدو مبين لك ولأبيك من قبلك[1] . قال ابن جرير ، فى تفسير قوله " وإما ينزغنك من الشيطان نزغ " — وإما يغضبنك من الشيطان غضب يصدك عن الإعراض عن الجاهل ويحملك على مجازاته " فاستعذ بالله " يقول : فاستجر بالله من نزغه " إنه سميع عليم " — : سميع لجهل الجاهل عليك والاستعاذة به من نزغه ولغير ذلك من كلام خلقه ، لا يخفى عليه منه شيء " عليم " بما يذهب عنك نزغ الشيطان وغير ذلك من أمور خلقه . وقد تقدم فى أول الاستعاذة حديث الرجلين الذين تسابّا بحضرة النبى صلى الله عليه وسلم : « فغضب أحدهما حتى جعل أنفه يتمزَّعُ غضباً ، فقال رسول الله صلى الله

(١) انظر ما مضى ج ١ ص ٦١ .

عليه وسلم : إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، فقيل له ، فقال : ما بى من جنون [١] . وأصل النزغ : الفساد ، إما بالغضب أو غيره . قال الله تعالى : ﴿ وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن، إن الشيطان ينزغ بينهم ﴾ ، والعياذ: الالتجاء والاستناد والاستجارة من الشر ، وأما الملاذ ففى طلب الخير . وقد قدمنا أحاديث الاستعاذة فى أول التفسير ، بما أغنى عن إعادته ههنا .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾

يخبر تعالى عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمر، وتركوا ما عنه زجر ، أنهم " إذا مسهم " أى : أصابهم " طيف " وقرأ آخرون " طائف " وقد جاء فيه حديث ، وهما قراءتان مشهورتان . فقيل : بمعنى واحد ، وقيل : بينهما فرق . ومنهم من فسر ذلك بالغضب ، ومنهم من فسره بمس الشيطان بالصرع ونحوه ، ومنهم من فسره بالهم بالذنب ، ومنهم من فسره بإصابة الذنب ، وقوله " تذكروا " أى : عقابَ الله وجزيل ثوابه ووعدَه ووعيدَه، فتابوا وأنابوا واستعاذوا بالله ، ورجعوا إليه من قريب ، " فإذا هم مبصرون " أى : قد استقاموا وصحوا مما كانوا فيه . وقد روى الحافظ أبو بكر بن مردويه عن أبى هريرة ، قال : « جاءت امرأة إلى النبى صلى الله عليه وسلم وبها طيف ، فقالت : يا رسول الله ، ادع الله أن يشفينى ، فقال : إن شئتِ دعوتُ الله فشفاك ، وإن شئت فاصبرى ولا حسابَ عليك ، فقالت: بل أصبر ولا حساب علىّ » . ورواه غير واحد من أهل السنن، وعندهم : « قالت: يا رسول الله ، إنى أصرع وأتكشف ، فادع الله أن يشفينى ، فقال : إن شئتِ دعوت الله أن يشفيك ، وإن شئتِ صبرتِ ولك الجنة ، فقالت : بل أصبر ولى الجنة ، ولكن ادْعُ الله أن لا أتكشَّف ، فدعا لها ، فكانت لا تتكشف » . وأخرجه الحاكم ،

---

(١) مضى ج ١ ص ٦٣ .

قال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . وقوله " وإخوانهم " أى : وإخوان الشياطين من الإنس ، كقوله : ﴿ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ﴾ . وهم أتباعهم والمستمعون لهم القابلون لأوامرهم " يمدونهم فى الغى " أى : تساعدهم الشياطين على المعاصى وتسهلها عليهم وتحسنها لهم . قال ابن كثير : المدّ الزيادة ، يعنى : يزيدونهم فى الغى ، يعنى : الجهل والسفه " ثم لا يقصرون " قيل : معناه : أن الشياطين تمد الإنس لا تقصر فى إعمالهم بذلك . كما قال ابن عباس ، فى قوله " وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون " — قال : لا الإنس يقصرون عما يعملون ، ولا الشياطين تمسك عنهم ، وقيل : معناه — كما رواه العوفى عن ابن عباس — قال : هم الجن ، يوحون إلى أوليائهم من الإنس ، " ثم لا يقصرون " يقول : لا يسأمون . وكذا قال السدى وغيره : إن الشياطين يمدون أولياءهم من الإنس ولا تسأم من إمدادهم فى الشر ، لأن ذلك طبيعة لهم وسجية ، لا تفتر فيه ولا تبطل عنه . كما قال تعالى : ﴿ ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزًّا ﴾ . قال ابن عباس وغيرهم : تزعجهم إلى المعاصى إزعاجاً .

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ، قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ، هَـٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾

قال ابن عباس فى قوله تعالى " قالوا لولا اجتبيتها " يقول : لولا تلقيتها ، وقال مرة أخرى : لولا أحدثتها فأنشأتها . وقال مجاهد : لولا اقتضيتها ، قالوا : تخرجها عن نفسك . وكذا قال قتادة والسدى ، واختاره ابن جرير . قال العوفى عن ابن عباس " لولا اجتبيتها " يقول : تلقيتها من الله تعالى . وقال الضحاك : يقول : لولا أخذتها أنت فجئت بها من السماء . ومعنى قوله تعالى " وإذا لم تأتهم بآية " أى : معجزة وخارق . كما قال تعالى : ﴿ إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين ﴾ . ويقولون للرسول صلى الله

عليه وسلم : ألا تجهد نفسك فى طلب الآيات من الله حتى نراها ونؤمن بها ؟! قال الله تعالى له " قل إنما أتبع ما يوحى إلىّ من ربى " أى : أنا لا أتقدم إليه تعالى فى شىء ، وإنما أتبع ما أمرنى به ، فأمتثل ما يوحيه إلىّ ، فإن بعث آية قبلتُها ، وإن منعها لم أسأله ابتداءً إياها إلا أن يأذن لى فى ذلك ، فإنه حكيم عليم . ثم أرشدهم إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات ، وأبين الدلالات ، وأصدق الحجج والبينات ، فقال " هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون " .

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾

لما ذكر تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة ، أمر تعالى بالإنصات عند تلاوته ، إعظاماً له واحتراماً ، لا كما كان يعتمده كفار قريش المشركون فى قولهم : ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه ﴾ . ولكن يتأكد ذلك فى الصلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة ، كما ورد فى الحديث الذى رواه مسلم من حديث أبى موسى الأشعرى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما جعل الإمام ليؤتم به ، فإذا كبر فكبروا ، وإذا قرأ فأنصتوا » . وكذا رواه أهل السنن من حديث أبى هريرة أيضاً ، وصححه مسلم ولم يخرجه فى كتابه . روى ابن جرير عن المسيب بن رافع ، قال ابن مسعود : « كنا يسلم بعضنا على بعض فى الصلاة ، فجاء القرآن " وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون" »[١] . وروى أيضاً عن يُسَيْر بن جابر ، قال : « صلى ابن مسعود ، فسمع ناساً يقرؤن مع الإمام ، فلما انصرف قال : أما آن لكم أن تفهموا ؟! أما آن لكم أن تعقلوا ؟ " وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا " كما أمركم الله »[٢] . وقد روى الإمام أحمد وأهل السنن عن أبى هريرة : « أن رسول الله

---

(١) الطبرى : ١٥٥٨١ . وإسناده منقطع بين المسيب بن رافع وابن مسعود .

(٢) الطبرى : ١٥٥٨٤ . ووقع فيه « بشير بن جابر » . وهو تصحيف . وقد بينا صوابه فى تتمة التخريج (ج ١٣ ص ٥٨٦ رقم ٧) .

صلى الله عليه وسلم انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة ، فقال : هل قرأ أحد منكم معى آنفاً ؟ ! قال رجل : نعم يا رسول الله ، قال : إنى أقول مالى أُنَازَعُ القرآنَ ؟ ! قال : فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جهر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقراءة من الصلوات حين سمعوا ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم » . وقال الترمذى : هذا حديث حسن ، وصححه أبو حاتم الرازى ، وقال الزهرى : لا يقرأ مَنْ وراءَ الإمام فيما يجهر به الإمام ، تكفيهم قراءةُ الإمام وإن لم يسمعهم صوته ، ولكنهم يقرؤن فيما لا يجهر به سرًّا فى أنفسهم ، ولا يصلح لأحد خلفه أن يقرأ معه فيما يجهر به سرًّا ولا علانية ، فإن الله تعالى قال " وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون " » .

قلت : هذا مذهب طائفة من العلماء : أن المأموم لا يجب عليه فى الصلاة الجهرية قراءة فيما جهر فيه الإمام ، لا الفاتحة ولا غيرها . وهو أحد قولى الشافعية ، وهو القديم ، كمذهب مالك ورواية عن أحمد بن حنبل ، لما ذكرناه من الأدلة المتقدمة . وقال فى الجديد : ويقرأ الفاتحة فقط فى سكتات الإمام ، وهو قول طائفة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم . وقال أبو حنيفة وأحمد ابن حنبل لا يجب على المأموم قراءة أصلاً فى السرية ولا الجهرية ، لما ورد فى الحديث : « من كان له إمام فقراءته قراءة له » . وهذا الحديث رواه الإمام أحمد فى مسنده عن جابر مرفوعاً . وهو فى موطأ مالك عن جابر موقوفاً . وهذا أصح ، وهذه المسألة مبسوطة فى غير هذا الموضع . وقد أفرد لها الإمام أبو عبد الله البخارى مصنفاً على حدة ، واختارَ وجوبَ القراءة خلف الإمام فى السرية والجهرية أيضاً ، والله أعلم . وقال ابن عباس : قوله " وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا " يعنى فى الصلاة المفروضة . وكذا روى عن عبد الله بن المغفل وعن مجاهد قال : لا بأس إذا قرأ الرجل فى غير الصلاة أن يتكلم . وعن مجاهد قال فى هذه الآية " وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا " قال : فى الصلاة والخطبة يوم الجمعة ، وكذا روى ابن جريج عن عطاء مثله . وعن سعيد بن جبير فى قوله " وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا " قال :

الإنصات يوم الأضحى ويوم الفطر ويوم الجمعة وفيما يجهر به الإمام من الصلاة . وهذا اختيار ابن جرير : أن المراد من ذلك الإنصات فى الصلاة وفى الخطبة ، كما جاء فى الأحاديث من الأمر بالإنصات خلف الإمام وحال الخطبة . وعن مجاهد : أنه كره إذا مرّ الإمام بآية خوف أو بآية رحمة أن يقول أحد من خلفه شيئاً، قال: السكوت. وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من استمع إلى آية من كتاب الله كتبت له حسنة مضاعفة ، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة » . تفرد به أحمد .

﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾ ﴾

يأمر تعالى بذكره أول النهار وآخره كثيراً ، كما أمر بعبادته فى هذين الوقتين فى قوله : ﴿ فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ﴾ . وقد كان هذا قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء ، وهذه الآية مكية ، وقال ههنا " بالغدو " وهو أول النهار " والآصال " جمع أصيل ، كما أن الأيمان جمع يمين . وأما قوله " تضرعاً وخيفة " أى : اذكر ربك فى نفسك رغبةً ورهبةً ، وبالقول لا جهراً ، ولهذا قال " ودون الجهر من القول " وهكذا يستحب أن يكون الذكر ، لا يكون نداءً وجهرًا بليغاً . ولهذا لما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : « أقريب ربنا فنناجيه ، أم بعيد فنناديه ؟ فأنزل الله عز وجل : ﴿ إذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ » . وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى ، قال : « رفع الناس أصواتهم بالدعاء فى بعض الأسفار ، فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم : أيها الناس ، اربَعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً ، إن الذى تدعونه سميع قريب ، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » . وقد يكون المراد من هذه الآية كما فى قوله تعالى : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ، وابتغ

بين ذلك سبيلاً ﴾ . فإن المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن سَبُّوه وسبُّوا من أنزله وسبُّوا من جاء به، فأمره الله تعالى أن لا يجهر به ، لئلا ينال منه المشركون ، ولا يخافت به عن أصحابه فلا يسمعهم ، وليتخذ سبيلا بين الجهر والإسرار . وكذا قال فى هذه الآية الكريمة " ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين" وقد زعم ابن جرير وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم قبله : أن المراد بهذه الآية أمر السامع للقرآن فى حال استماعه بالذكر على هذه الصفة ! وهذا بعيد مناف للإنصات المأمور به ، ثم إن المراد بذلك فى الصلاة كما تقدم ، أو الصلاة والخطبة ، ومعلوم أن الإنصات إذ ذاك أفضل من الذكر باللسان ، سواء كان سراً أو جهراً ، فهذا الذى قالاه لم يتابعا عليه . بل المراد الحض على كثرة الذكر من العباد بالغدوّ والآصال . لئلا يكونوا من الغافلين . ولهذا مدح الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، فقال " إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون " ، وإنما ذكرهم بهذا ليُتَشَبَّه بهم فى كثرة طاعتهم وعبادتهم . ولهذا شرع لنا السجود ههنا لما ذكر سجودهم لله عز وجل . كما جاء فى الحديث : « ألا تَصُفُّون كما تَصَفُّ الملائكة عند ربها ، يتمون الصفوف ، الأولَ فالأولَ ، ويتراصُّون فى الصف » . وهذه أول سجدة فى القرآن ، مما يشرع لتاليها ومستمعها السجود بالإجماع . وقد ورد فى حديث رواه ابن ماجة عن أبى الدرداء عن النبى صلى الله عليه وسلم : « أنه عدها فى سجدات القرآن » .[1]

---

(١) رواه – بنحوه – أحمد فى المسند ٥ : ١٠١ . ومسلم ١ : ١٢٧ – كلاهما من حديث جابر بن سمرة .

تفسير سورة الأنفال

وهى مدنية . آياتها سبعون وست آيات[1] . كلماتها ألف كلمة وستمائة كلمة وإحدى وثلاثون كلمة . حروفها خمسة آلاف ومائتان وأربعة وتسعون حرفاً . والله أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١) ﴾

قال البخارى : قال ابن عباس : الأنفال المغانم . وروَى عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : سورة الأنفال ؟ قال : نزلت فى بدر . أما ما علقه عن ابن عباس فكذلك رواه على بن أبى طلحة عن ابن عباس أنه قال : الأنفال الغنائم كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم خالصة ، ليس لأحد منها شىء . وكذا قال مجاهد وعكرمة وقتادة وغير واحد : أنها المغانم . وروى ابن جرير عن القاسم بن محمد ، قال : سمعت رجلا يسأل ابن عباس عن الأنفال ؟ فقال ابن عباس : الفرس من النفل ، والسلب من النفل ، ثم عاد لمسألته ، فقال ابن عباس ذلك أيضاً ، ثم قال الرجل : الأنفال التى قال الله فى كتابه ما هى ؟ قال القاسم : فلم يزل يسأله حتى كاد يحرجه ، فقال ابن عباس : أتدرون ما مَثَل هذا ؟ مَثَل صُبَيْغ الذى ضربه عمر بن الخطاب . وروى عبد الرزاق عن القاسم بن محمد، قال : قال ابن عباس : كان عمر بن الخطاب إذا سئل عن شىء قال: لا آمرك ولا أنهاك، ثم قال ابن عباس والله ما بعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم إلا زاجراً آمراً، مُحِلاً مُحَرِّماً، قال القاسم،

(١) فى المخطوطتين « آياتها ست وأربعون آية » . وهو خطأ يقيناً ، مخالف للواقع فى عدد آياتها . وهى فى عد مصحفنا ٧٥ آية ، على عد المصحف الكوفى . وهى ٧٦ آية فى عد المصاحف المدنى والمكى والبصرى .

فسُلط على ابن عباس رجل فسأله عن الأنفال ؟ فقال ابن عباس : كان الرجل ينفل فرس الرجل وسلاحه، فأعاد عليه الرجل ، فقال له مثل ذلك ، ثم عاد عليه حتى أغضبه، فقال ابن عباس: أتدرون ما مثل هذا ؟ مثل صُبَيْغ الذى ضربه عمر بن الخطاب حتى سالت الدماء على عقبيه وعلى رجليه ، فقال الرجل : أما أنت فقد انتقم الله لعمر منك . وإسناده صحيح إلى ابن عباس : أنه فسر النفل بما ينفله الإمام لبعض الأشخاص من سلب أو نحوه بعد قسم أصل المغنم ، وهو المتبادر إلى فهم كثير من الفقهاء من لفظ النفل . والله أعلم .
وروى ابن المبارك وغير واحد عن عطاء بن أبى رباح " يسألونك عن الأنفال " قال : يسألونك فيما شذ من المشركين إلى المسلمين فى غير قتال ، من دابةٍ أو عبد أو أمة أو متاع ، فهو نَفَلٌ للنبى صلى الله عليه وسلم يصنع به ما يشاء . وهذا يقتضى أنه فسر الأنفال بالفىء ، وهو ما أخذ من الكفار من غير قتال . قال ابن جرير : وقال آخرون : هى أنفال السرايا . وقد صرح بذلك الشعبى . واختار ابن جرير أنها الزيادة على القَسْم ، ويشهد لذلك ما ورد فى سبب نزول الآية ، وهو ما رواه الإمام أحمد عن سعد بن أبى وقاص ، قال : « لما كان يوم بدر وقُتل أخى عُمير وقَتلتُ سعيدَ بن العاص وأخذتُ سيفه، وكان يسمى ذا الكتيفة ، فأتيت به النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : اذهبْ فاطرحه فى القبض ، قال فرجعت وبى ما لا يعلمه إلا الله ، من قتل أخى وأخذ سلبى ، قال : فما جاوزتُ إلا يسيراً حتى نزلت سورة الأنفال، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم، اذهب فخذ سَلَبَك» . وروى الإمام أحمد أيضاً عن سعد بن مالك، قال: « قلت : يا رسول الله، قد شفانى الله اليوم من المشركين، فهبْ لى هذا السيف ، فقال : إن هذا السيف لا لك ولا لى ، ضَعْهُ ، قال : فوضعته ، ثم رجعتُ فقلتُ : عسى أن يعطى هذا السيف من لا يبلى بلائى ، قال : فإذا رجل يدعونى من ورائى ، قال : قلت : قد أنزل الله فىَّ شيئاً ، قال : كنتَ سألتنى السيف وليس هو لى، وإنه قد وُهِبَ لى فهو لك ، قال : وأنزل الله هذه الآية " يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول " » . ورواه أبو داود

والترمذى والنسائى ، وقال الترمذى : حسن صحيح[١] . وهكذا رواه أبو داود الطيالسى ، عن سعد ، قال : « نزلتْ فىَّ أربعُ آيات : أصبتُ سيفاً يومَ بدر ، فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلتُ نَفِّلْنيه ، فقال : ضعه من حيث أخذتَه ، مرتين ، ثم عاودتُه ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ضعه من حيث أخذتَه ، فنزلت هذه الآية "يسألونك عن الأنفال" » ، وتمام الحديث فى نزول : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسناً ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ إنما الخمر والميسر ﴾ ، وآية الوصية . وقد رواه مسلم . وروى الإمام أحمد عن أبى أمامة ، قال : « سألتُ عبادةَ عن الأنفال ؟ فقال : فينا أصحابَ بدر نزلتْ ، حين اختلفنا فى النَّفَل وساءت فيه أخلاقُنا ، فانتزعه الله من أيدينا وجعله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المسلمين عن بَوَاءٍ ، يقول : عن سواء » . وروى الإمام أحمد عن أبى أمامة ، عن عبادة بن الصامت ، قال : « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فشهدتُ معه بدراً ، فالتقى الناسُ ، فهزم الله تعالى العدوَّ ، فانطلقتْ طائفة فى آثارهم يَهزمون ويَقتلون ، وأكبَّتْ طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه ، وأحدقتْ طائفة برسول الله صلى الله عليه وسلم لا يصيب العدوُّ منه غِرَّةً ، حتى إذا كان الليل وفاءَ الناسُ بعضهم إلى بعض ، قال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها فليس لأحد فيها نصيب ، وقال الذين خرجوا فى طلب العدو : لستم بأحق به منا ، نحن نَفَيْنا عنها العدوَّ وهزمناهم ، وقال الذين أحدقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم : خفنا أن يصيب العدوُّ منه غِرَّةً فاشتغلنا به ، فنزلت " يسألونك عن الأنفال ، قل الأنفال لله والرسول ، فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم " فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المسلمين ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أغار فى أرض العدو نَفَّل الربعَ ، فإذا أقبل راجعاً نَفَّل الثلثَ ، وكان يكره الأنفال » . ورواه الترمذى

(١) المسند : ١٥٣٨ . رواه الحاكم بنحوه ٢ : ١٣٢ ، وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » . ووافقه الذهبى . ورواه الطبرى : ١٥٦٥٦ — ١٥٦٥٨ ، ١٥٦٦٢ ، ١٥٦٦٤ . وهو فى سنن أبى داود برقم : ٢٧٤٠ . ورواه البيهقى فى السنن الكبرى ٦ : ٢٩١ .

وابن ماجة نحوه . وقال الترمذى : هذا حديث حسن . ورواه ابن حبان فى صحيحه والحاكم فى مستدركه . وقال الحاكم : صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه . وروى أبو داود والنسائى وابن جرير وابن مردويه — واللفظ له — وابنُ حبان والحاكم عن ابن عباس ، قال : « لما كان يوم بدر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا ، فتسارع فى ذلك شبان الرجال ، وبقى الشيوخ تحت الرايات ، فلما كانت المغانم جاءوا يطلبون الذى جُعل لهم ، فقال الشيوخ : لاتستأثروا علينا ، فإنا كنا رِدْءاً لكم لو انكشفتم لَفِئْتُمْ إلينا ، فتنازعوا ، فأنزل الله تعالى " يسألونك عن الأنفال " إلى قوله " وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين " »[1] . وقال الإمام أبو عبيدٍ القاسم بن سلاّم رحمه الله ، فى كتاب « الأموال الشرعية وبيان جهاتها » : أما الأنفال فهى المغانم وكل نَيْل ناله المسلمون من أموال أهل الحرب ، فكانت الأنفال الأولى إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، يقول الله تعالى " يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول " فقسمها يوم بدر على ما أراه الله ، من غير أن يُخَمِّسها ، على ما ذكرناه فى حديث سعد ، ثم نزلت بعد ذلك آية الخمس ، فنسخت الأولى . قلت : هكذا روى على بن أبى طلحة عن ابن عباس سواء ، وبه قال مجاهد وعكرمة والسدى ، وقال ابن زيد : ليست منسوخة ، بل هى محكمة . قال أبو عبيد : فى ذلك آثار ، والأنفال أصلها جماع الغنائم ، إلا أن الخمس منها مخصوص لأهله على ما نزل به الكتاب وجرت به السنة . ومعنى الأنفال فى كلام العرب : كل إحسان فعله فاعل تفضلاً من غير أن يجب ذلك عليه ، فذلك النفل الذى أحله الله للمؤمنين من أموال عدوهم ، وإنما هو شىء خصهم الله به تطولاً منه عليهم ، بعد أن كانت المغانم محرمةً على الأمم قبلهم ، فنفلها الله تعالى هذه الأمة ، فهذا أصل النفل ، قلت : شاهد هذا

---

(١) رواه الطبرى بثلاثة أسانيد صحاح إلى ابن عباس : ١٥٦٥٠ — ١٥٦٥٢ ، ورواه بإسناد رابع : ١٥٦٥٣ إلى عكرمة فقط . وهو فى أبى داود : ٢٧٣٧ . والحاكم ٢ : ١٣١ — ١٣٢ وقال الذهبى : « هو على شرط البخارى » . ورواه مرة أخرى مطولا ، من وجه آخر ٢ : ٣٢٦ ، وصححه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى .

ما فى الصحيحين عن جابر ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أعطيتُ خمساً لم يعطهن أحد قبلى — فذكر الحديث إلى أن قال — : وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى » . وذكر تمام الحديث . ثم قال أبو عبيد : ولهذا سمى ما جعل الإمام للمقاتلة نفلا ، وهو تفضيله بعض الجيش على بعض بشىء سوى سهامهم ، يفعل ذلك بهم على قدر الغَنَاء عن الإسلام والنكاية فى العدو .

وقوله تعالى " فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم " أى : اتقوا الله فى أموركم ، وأصلحوا فيما بينكم ، ولا تظالموا ولا تخاصموا ولا تشاجروا ، فما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون بسببه " وأطيعوا الله ورسوله " أى : فى قَسْمِه بينكم على ما أراده الله ، فإنه إنما يقسمه كما أمره الله من العدل والإنصاف .

وقال ابن عباس : هذا تحريج من الله ورسوله أن يتقوا ويصلحوا ذات بينهم . وكذا قال مجاهد . وقال السدى " فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم " أى : لا لا تستبوا .

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ، لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾

قال ابن عباس فى قوله " إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم " قال : المنافقون لا يدخل قلوبهم شىء من ذكر الله عند أداء فرائضه ، ولا يؤمنون بشىء من آيات الله ، ولا يتوكلون ، ولا يصلون إذا غابوا ، ولا يؤدّون زكاة أموالهم ، فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين ، ثم وَصَفَ المؤمنين فقال " إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم " فأدَّوْا فرائضه " وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً " يقول : زادتهم تصديقاً " وعلى ربهم يتوكلون " يقول : لا يرجون غيره . وقال مجاهد " وجلت قلوبهم " فَرِقَتْ ، أى : فزعت وخافت . وكذا قال السدى وغير واحد . وهذه صفة المؤمن حقّ المؤمن ، الذى

إذا ذكر الله وجل قلبه ، أى : خاف منه ، ففعل أوامره ، وترك زواجره . كقوله تعالى: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴾ . وكقوله : ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى * فإن الجنة هى المأوى﴾ . ولهذا قال سفيان الثورى : سمعت السدى يقول فى قوله تعالى " إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم " قال: هو الرجل يريد أن يَظْلم ، أو قال : يَهُمّ بمعصية ، فيقال له: اتق الله، فيَجِلُ قلبُه، وقوله "وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً " كقوله :﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً ، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون﴾ . وقد استدل البخارى وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهها على زيادة الإيمان وتفاضله فى القلوب ، كما هو مذهب جمهور الأمة . بل قد حكى الإجماعَ عليه غيرُ واحد من الأئمة ، كالشافعى وأحمد بن حنبل وأبى عُبيد ، كما بينا ذلك مستقصى فى أول شرح البخارى . ولله الحمد والمنة . " وعلى ربهم يتوكلون " أى : لا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه ، ولا يلوذون إلا بجنابه ، ولايطلبون الحوائج إلا منه ، ولا يرغبون إلا إليه ، ويعلمون أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه المتصرف فى الملك وحده لاشريك له ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب . ولهذا قال سعيد بن جبير : التوكل على الله جماع الإيمان ، وقوله " الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون " ينبه تعالى بذلك على أعمالهم بعد ما ذكر اعتقادهم . وهذه الأعمال تشمل أنواع الخير كلها ، وهو إقامة الصلاة ، وهو حق الله تعالى . قال قتادة : إقامة الصلاة المحافظةُ على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها . وقال مقاتل بن حيان : إقامتها المحافظة على مواقيتها وإسباغ الطهور فيها وتمام ركوعها وسجودها وتلاوة القرآن فيها والتشهد والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم، هذا إقامتها . والإنفاق مما رزقهم الله يشمل إخراجَ الزكاة وسائر الحقوق للعباد من واجب ومستحب. والخلق كلهم عيالُ الله ، فأحبهم إلى الله أنفعهم لخلقه . قال قتادة فى قوله "ومما رزقناهم ينفقون"

فأنفقوا مما أعطاكم الله ، فإنما هذه الأموال عَوَارِى وودائع عندك يا ابن آدم ، أَوْشَكْتَ أن تفارقها . وقوله " أولئك هم المؤمنون حقًّا " أى : المتصفون بهذه الصفات هم المؤمنون حق الإيمان . وقال عمرو بن مرة فى قوله تعالى " أولئك هم المؤمنون حقًّا " — : إنما نزَل القرآن بلسان العرب ، كقولك : فلان سيد حقًّا ، وفى القوم سادة ، وفلان تاجر حقًّا ، وفى القوم تُجَّار ، وفلان شاعر حقًّا . وفى القوم شعراء . وقوله " لهم درجات عند ربهم " أى : منازل ومقامات ودرجات فى الجنات . كما قال تعالى : ﴿هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون﴾ . " ومغفرة " أى : يغفر لهم السيئات ويشكر لهم الحسنات . وقال الضحاك فى قوله " لهم درجات عند ربهم " — : أهل الجنة بعضهم فوق بعض ، فيرى الذى هو فوق فضلَه على الذى هو أسفل منه ، ولا يرى الذى هو أسفل منه أنه فضِّل عليه أحد . ولهذا جاء فى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أهل عليين ليراهم من أسفل منهم كما ترون الكوكب الغابر فى أفق من آفاق السماء ، قالوا : يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا ينالها غيرهم ، فقال : بلى والذى نفسى بيده ، لرجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين »[١] . وفى الحديث الآخر الذى رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن أبى سعيد، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن أهل الجنة لَيَتَرَاءَوْن أهل الدرجات العلى كما ترون الكوكب الغابر فى أفق السماء ، وإن أبا بكر وعمر منهم ، وأَنْعَمَا »[٢] .

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا

---

(١) انظر البخارى ٦ : ٢٣٣ — ٢٣٤ (فتح) . ومسلم ٢ : ٣٤٩ .

(٢) « وأنعما » : أى زادا وفضلا ، ويقال : قد أحسنت إلى فى الإحسان وأنعمت ، أى زدت على الإحسان . وقيل : معناه صارا إلى النعيم ودخلا فيه . قاله فى اللسان .

لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ ﴾

قال الإمام أبو جعفر الطبرى : اختلف المفسرون فى السبب الجالب لهذه الكاف فى قوله " كما أخرجك ربك " . فقال بعضهم : شبه به فى الصلاح للمؤمنين اتقاؤهم ربَّهم وإصلاحُهم ذاتَ بينهم وطاعتُهم لله ورسوله . ثم روى عن عكرمة نحو هذا . ومعنى هذا : أن الله تعالى يقول : كما أنكم لما اختلفتم فى المغانم وتشاححتم فيها فانتزعها الله منكم ، وجعلها إلى قسمه وقسم رسوله صلى الله عليه وسلم ، فقسمها على العدل والتسوية ، فكان هذا هو المصلحة التامة لكم — : وكذلك لما كرهتم الخروج إلى الأعداء من قتال ذات الشوكة ، وهم النفير الذين خرجوا لنصر دينهم وإحراز عيرهم ، فكان عاقبة كراهتكم للقتال بأن قدَّره لكم ، وجمع به بينكم وبين عدوكم على غير ميعاد — : رشداً وهدًى ، ونصراً وفتحاً . كما قال تعالى : ﴿ كُتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم . وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرٌّ لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ . قال ابن جرير : وقال آخرون : معنى ذلك " كما أخرجك ربك من بيتك بالحق " على كره من فريق من المؤمنين ، كذلك هم كارهون لقتال ، فهم يجادلونك فيه بعد ما تبين لهم . ثم روى نحوه عن مجاهد أنه قال " كما أخرجك ربك " قال : كذلك يجادلونك فى الحق . وقال السدى : أنزل الله فى خروجه إلى بدر ومجادلتهم إياه فقال " كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون " لطلب المشركين " يجادلونك فى الحق بعد ما تبين " . وقال بعضهم : يسألونك عن الأنفال مجادلةً كما جادلوك يوم بدر فقالوا أخرجتنا للعير ولم تعلمنا قتالاً فنستعدَّ له . قلت : رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما خرج من المدينة طالباً لعير أبى سفيان التى بلغه خبرها أنها صادرة من الشام فيها أموال جزيلة لقريش ، فاستنهض رسول الله صلى الله

عليه وسلم المسلمين من خفَّ منهم ، فخرج فى ثلثمائة وبضعة عشر رجلاً ، وطلب نحو الساحل من على طريق بدر ، وعلم أبو سفيان بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طلبه ، فبعث ضَمْضَمَ بن عمرو نذيراً إلى أهل مكة ، فنهضوا فى قريبٍ من ألف مقنَّع ، ما بين التسعمائة إلى الألف ، وتيَامَنَ أبو سفيان بالعِير إلى سِيفِ البحر ، فنجا وجاء النفيرُ فوردوا ماءَ بدر ، وجمع الله بين المسلمين والكافرين على غير ميعادٍ ، لما يريد الله تعالى من إعلاء كلمة المسلمين ونصرهم على عدوهم ، والتفرقة بين الحق والباطل ، كما سيأتى بيانه . والغرض : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغه خروج النفير أوحى الله إليه يَعِدُه إحدى الطائفتين : إما العير وإما النفير ، ورغب كثير من المسلمين إلى العِير ، لأنه كسب بلا قتال ، كما قال تعالى " وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين " . روى الحافظ أبو بكر بن مردويه عن أبى أيوب الأنصارى ، قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بالمدينة : إنى أُخبرتُ عن عير أبى سفيان أنها مقبلة ، فهل لكم أن نخرج قِبَلَ هذه العير ، لعل الله يغنمناها ؟ فقلنا : نعم ، فخرج وخرجنا فلما سرنا يوماً أو يومين قال لنا : ما تَرَوْن فى قتال القوم ، إنهم قد أُخبروا بخروجكم ؟ فقلنا : لا والله ما لنا طاقة بقتال العدو ، ولكنا أردنا العِير ، ثم قال : ما ترون فى قتال القوم ؟ فقلنا مثل ذلك ، فقال المقداد بن عمرو : إذاً لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى : ﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ﴾ ، قال : فتمنينا معشرَ الأنصار أن لو قلنا كما قال المقداد أحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم ، قال : فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم " كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون " » . وذكر تمام الحديث . ورواه ابن أبى حاتم بنحوه . وروى ابن مردويه أيضاً عن علقمة بن وقّاص الليثى ، قال : « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر ، حتى إذا كان بالرَّوْحاء خطب الناس فقال : كيف ترون ؟ فقال أبو بكر : يا رسول الله ، بلغنا أنهم بمكان كذا وكذا ، قال : ثم خطب الناس فقال :

كيف ترون ؟ فقال عمر مثل قول أبى بكر ، ثم خطب الناس فقال : كيف ترون ؟ فقال سعد بن معاذ : يا رسول الله ، إيانا تُريد ؟ فو الذى أكرمك وأنزل عليك الكتاب ما سلكتُها قط ، ولا لى بها علم ، ولئن سرتَ حتى تأتى برك الغماد من ذى يَمَنٍ لنسيرنّ معك ، ولانكونُ كالذين قالوا لموسى : ﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ﴾ ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما متبعون ، ولعلك أن تكون خرجت لأمر وأحدث الله إليك غيره ، فانظر الذى أحدث الله إليك فامض له ، فَصِلْ حبالَ من شئتَ ، واقطعْ حبالَ من شئتَ وعَادِ من شئتَ ، وسَالِم من شئتَ ، وخذ من أموالنا ما شئتَ ، فنزل القرآن على قول سعد " كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون " الآيات » . وقال العوفى عن ابن عباس : لما شاور النبى صلى الله عليه وسلم فى لقاء العدو ، وقال له سعد بن عبادة ما قال ، وذلك يوم بدر ، أمر الناس أن يتهيئوا للقتال ، وأمرهم بالشوكة فكره ذلك أهل الإيمان ، فأنزل الله " كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون * يجادلونك فى الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون " . وقال مجاهد " يجادلونك فى الحق " : فى القتال . قال ابن جرير : وقال آخرون : عنى بذلك المشركين ، ثم روى عن ابن زيد ، قال : هؤلاء المشركون ، جادلوه فى الحق ، كأنما يساقون إلى الموت حين يُدْعَوْن إلى الإسلام وهم ينظرون . قال : وليس هذا من صفة الآخَرين ، هذه صفة مبتدأة لأهل الكفر . ثم قال ابن جرير : ولا معنى لما قاله ، لأن الذى قبل قوله " يجادلونك فى الحق " خبر عن أهل الإيمان والذى يتلوه خبر عنهم . والصواب قول ابن عباس وابن إسحق : أنه خبر عن المؤمنين . وهذا الذى نصره ابن جرير هو الحق ، وهو الذى يدل عليه سياق الكلام . والله أعلم . وروى الإمام أحمد عن ابن عباس ، قال : « قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين فرغ من بدر : عليك بالعير ليس دونها شىء ، فناداه العباس بن عبد المطلب وهو أسير فى وثاقه : إنه لا يصلح لك ، قال : ولم ؟ قال : لأن الله عز جل إنما وعدك إحدى الطائفتين ،

وقد أعطاك الله ما وعدك . إسناده جيد ولم يخرجوه[١] . ومعنى قوله تعالى " وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم " أى : يحبون أن الطائفة التى لا حدَّ لها ولا منعة ولا قتال تكون لهم ، وهى العيرُ " ويريد الله أن يحق الحق بكلماته " أى : هو يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التى لها الشوكة والقتال ، ليظفركم بهم وينصركم عليهم ، ويظهر دينه ، ويرفع كلمة الإسلام ، ويجعله غالباً على الأديان . وهو أعلم بعواقب الأمور ، وهو الذى يدبركم بحسن تدبيره ، وإن كان العباد يحبون خلافَ ذلك فيما يظهر لهم . كما قال تعالى : ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرٌّ لكم ﴾ . وقال محمد بن إسحق : حدثنى محمد بن مسلم الزهرى وعاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبى بكر ويزيد بن رُومان عن عروة بن الزبير ، وغيرُهم من علمائنا عن عبد الله بن عباس ، كلٌّ قد حدثنى بعضَ هذا الحديث ، فاجتمع حديثُهم فيما سقتُ من حديث بدر ، قالوا : « لما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبى سفيان مقبلاً من الشأم ، ندب المسلمين إليهم ، وقال : هذه عِيرُ قريش فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها ، لعل الله أن يُنَفِّلكُمُوها ، فانتَدَبَ الناسُ ، فخفَّ بعضهم وثقل بعضهم ، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى حرباً ، وكان أبوسفيان قد استنفر حين دنا من الحجاز يتحسَّس الأخبار ، ويسأل من لقى من الركبان ، تخوفاً على أمر الناس ، حتى أصاب خبراً من بعض الركبان : أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك ، فحذِرَ عند ذلك ، فاستأجر ضَمْضَمَ بن عمرو الغِفَارى ، فبعثه إلى مكة ، وأمره أن يأتى قريشاً فيستنفرَهم إلى أموالهم ، ويخبرَهم أن محمداً قد عرض لها فى أصحابه ، فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أصحابه ، حتى بلغ وادياً يقال له : ذَفِرَان[٢] ،

---

(١) المسند : ٢٠٢٢ . وفصلنا تخريجه هناك .

(٢) « ذفران » : بفتح الذال المعجمة وكسر الفاء وبعد الراء ألف ونون . قال ياقوت : « واد قرب وادى الصفراء » .

فخرج منه ، حتى إذا كان ببعضه نزل ، وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عِيرهم ، فاستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم الناسَ ، وأخبرهم عن قريش ، فقام أبو بكر رضى الله عنه ، فقال فأحسن ، ثم قام عمر فقال فأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله ، امْضِ لما أمرك الله به ، فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ اذهبْ أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ﴾ ، ولكن اذهبْ أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فو الذى بعثك بالحق لو سرتَ بنا إلى بِرْكِ الغماد – يعنى مدينة الحبشة – لجالدْنا معك مِن دونه حتى تبلغَه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً ، ودعا له بخير ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أشيروا علىَّ أيها الناسُ وإنما يريد الأنصار ، وذلك : أنهم كانوا عَدَدَ الناسِ ، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : يا رسول الله ، إنا بُرَآءُ من ذِمامك حتى تصل إلى دارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت فى ذمامنا ، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوَّفُ أن لا تكونَ الأنصارُ ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه ، وأنْ ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدوٍّ من بلادهم ، فلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، قال له سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال : أجلْ ، قال : فقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئتَ به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أمرك الله ، فو الذى بعثك بالحق إن استعرَضْتَ بنا هذا البحر ، فخضته لخضناه معك ما يتخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصُبُرٌ عند الحرب ، صُدُقٌ عند اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله ، فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد ، ونشطه ذلك ، ثم قال : سيروا على بركة الله وأبشروا ، فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين ، والله لكأنى الآنَ أنظرُ إلى مصارع القوم » . وروى العوفى عن ابن عباس نحو هذا . وكذلك قال السدى وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرُ واحد من علماء السلف والخلف ، اختصرنا أقوالهم اكتفاءً بسياق محمد بن إسحق .

تم الجزء الخامس

من

﴿ عمدة التفسير ﴾

الجزء السادس أوله قوله تعالى :

﴿ إذ تستغيثون ربكم ﴾

الآية : ٩ من سورة الأنفال

مسند

الجزء الخامس

من

﴿ عمدة التفسير ﴾ *

* هو مسند للأحاديث المرفوعة — وما فى حكمها — التى فى هذا الجزء ، على مسانيد الصحابة ، بترتيب أسمائهم على الحروف. وما كان عن صحابى مبهم ذكر فى اسم التابعى الذى رواه ، وكذلك الحديث المرسل يذكر باسم التابعى .

ولم نذكر أقوال الصحابة التى هى تفسير للآيات ، لكثرتها. وهى التى بنى عليها أكثر التفسير المأثور إذا تكرر رقم الصفحة ، فهذا يدل على أن الحديث مكرر فى هذه الصفحة .

هذه أحاديث أوردها المؤلف فى هذا الجزء ولم يذكر أسماء رواتها ، فها نحن أولاء نثبت ما أغفله

رقم الصفحة	الحديث	اسم راويه
٥٩	عن عبد الله	هو ابن مسعود
٨٩	وقال ورقة	عن عائشة
١٣٦	نحن معاشر الأنبياء	عن أبى هريرة
١٣٩	ابن أبزى عن أبيه	هو عبد الرحمن
١٤١	نحن معاشر الأنبياء	عن أبى هريرة
١٦٤	عن عبد الله	هو ابن مسعود
١٧٣	واعلموا أن أحدكم لا يدخله عمله الجنة	عن أبى هريرة
١٧٧	إن الله تعالى يقول لعباده يوم القيامة	عن أبى هريرة
١٩٤	إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ظهر على أهل بدر	عن أنس
٢٠٢	كما ثبت فى الصحيحين	عن صهيب
—	لا يزال البلاء بالمؤمن	أبو هريرة
—	موت الفجأة رحمة للمؤمن	عائشة
٢٠٦	يقول الله تعالى : إنى خلقت عبادى حنفاء	عياض بن حمار
—	كل مولود يولد	أبو هريرة
٢٢٤	ليس الخبر كالمعاينة	ابن عباس
٢٣١	بعثت بالحنيفة السمحة	أبو أمامة
	بشرا ولا تنفرا	أبو موسى الأشعرى
٢٣٢	إن الله تجاوز لأمتى	أبو هريرة
—	إن الله تعالى قال بعد كل سؤال	ابن عباس
٢٥٧	لما جاء جبريل عليه السلام فى صورة أعرابى	أبو هريرة
٢٥٨	ولما سأله ذلك الأعرابى وناداه بصوت جهورى	أنس
٢٦٤	إذا حدثكم أهل الكتاب	أبو نملة الأنصارى
—	حدثوا عن بنى إسرائيل	ابن عمرو
٢٦٩	حديث الرجلين اللذين تسابا	سليمان بن صرد
٢٧٥	الا تصفون كما تصف الملائكة	جابر بن سمرة
٢٨٢	إن أهل عليين ليراهم من أسفل منهم	أبو سعيد الخدرى

فهرس

الجزء الخامس

من

﴿ عمدة التفسير ﴾

رقم الصفحة	رقم الآية	الآية
٤٩	من ٧١ إلى ٧٣	قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا
٥٢	من ٧٤ إلى ٧٩	وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة
—	٧٤	ربع : (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر)
٥٨	من ٨٠ إلى ٨٣	وحاجه قومه ، قال أتحاجونى فى الله وقد هدان
٦٠	من ٨٤ إلى ٩٠	ووهبنا له إسحق ويعقوب ، كلا هدينا
٦٤	من ٩١ إلى ٩٢	وما قدروا الله حق قدره
٦٦	من ٩٣ إلى ٩٤	ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شىء
٦٩	من ٩٥ إلى ٩٧	إن الله فالق الحب والنوى
—	٩٥	ربع : (إن الله فالق الحب والنوى)
٧٢	من ٩٨ إلى ٩٩	وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة
٧٤	١٠٠	وجعلوا لله شركاء الجن
٧٥	١٠١	بديع السموات والأرض ، أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة
٧٦	من ١٠٢ إلى ١٠٣	ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو
٧٨	من ١٠٤ إلى ١٠٥	قد جاءكم بصائر من ربكم ، فمن أبصر فلنفسه
٨١	من ١٠٦ إلى ١٠٧	اتبع ما أوحى إليك من ربك
—	١٠٨	ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله
٨٢	من ١٠٩ إلى ١١٠	وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها
٨٤	١١١	ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى
—	١١١	الجزء — ٨ (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة)
٨٥	من ١١٢ إلى ١١٣	وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا
٨٨	من ١١٤ إلى ١١٥	أفغير الله أبتغى حكماً وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا
٨٩	من ١١٦ إلى ١١٧	وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله
—	من ١١٨ إلى ١١٩	فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين
٩٠	١٢٠	وذروا ظاهر الإثم وباطنه
٩١	١٢١	ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه
٩٥	١٢٢	أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس
٩٦	من ١٢٣ إلى ١٢٤	وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها
١٠٠	١٢٥	فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام
١٠١	من ١٢٦ إلى ١٢٧	وهذا صراط ربك مستقيما
—	١٢٧	ربع : (لهم دار السلام عند ربهم)
١٠٢	١٢٨	ويوم نحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس
١٠٣	١٢٩	وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً